التنصل والاعتراف

يوم القيامة..

المصطفى السالك بن الطالب الشنقيطي
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين

"٥٤ نموذجا قرآنيا تتحدث عن المراحل الصعبة التي يعيشها بعض البشر بعد النفخة الثانية.. "

تقريظ القارئ الكبير الشيخ سعد بن سعيد الغامدي

الحمدُ للهِ الذي أنزل علينا خير كتبه، وأرسل إلينا أفضل رسله، وشرع لنا أفضل شرائع دينه، والصلاة والسلام علىٰ الرحمة المهداة والنعمة المسداة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد قرأت كتاب أخينا الفاضل الشيخ مصطفىٰ السالك «التنصل والاعتزاف يوم القيامة» فأبحر بي في عالم الآخرة، حيث الزحام والخصام والمجادلة بين الخلائق في يوم الحساب والجزاء، فهذا يعترف بذنبه، وذاك يتَنَصَّل من أتباعه، و لث يواري وجهه ذات اليمين وذات الشِّمال، يختبئ عن أنظار أصحاب الحقوق، وبدا المشهد في أصعب صورةٍ وأقساها علىٰ النّفس البشَرِيّة، وهذا ما كَشَفَه القرآن الكريم مِن خلالِ إبرازِ الجوانبِ النفسيّة والانْفِعالاتِ الوُجدانِيّة بين المُتخاصِمين في عرصاتِ القِيامةبَلْهَ النار وما يحدثُ فيها مِن مُلاسَناتٍ بينَ أهْلِها.

إنّ الجهد الذي بذلَه أخي الشيخ المصطفىٰ السّالك في تجلية هذه الحقائق القُرآنيّة ليدلّ علىٰ فهمٍ واعٍ لكتاب تعالىٰ، وإحساسٍ عالٍ بهَوَلِ الموقف بينَ الناس في مشاهد الآخرة، وهذا هو واجب المسلِم تجاه كتاب ربّه سبحانه وتعالىٰ في أن يعكف علىٰ تلاوته وتدبُّر معانيه، ويفهم مراد تعالىٰ، مُستنبطًا حقائق القرآنِ وقواعدَه الكُبرىٰ، بل ويغُوصَ في أعماقهِ، مجَلّيًا للناس ما يذكرهم طبيعَة الدنيا والآخرة، وما يجب علىٰ المسلم تجاههما من واجب الإيمان والصدق والعمل للدار الآخرة، والحذر من وضع النفس في المواقف الصعبة أمام مطالبات الناس بحقوقهم في دنياهم وآخرهم، وقد علم المؤمن أن العاقبة الحُسنىٰ يكتبها للعبد الموفق المتطلع للآخرة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ

ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، والمؤمن المثالي والمسلم السّوِيّ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزّمر: ٩].

وختامًا أشكر أخي علىٰ جهده الرائع في هذا الكتاب، وآمل المزيد من الكتب في تجلِيَة هذه الحقائِق القُرآنيّة في إصداراتٍ قادِمة ذن ، وأسألُه سبحانهُ وتعالىٰ أن يتقبّل منه عمَلَه هذا، وأن ينفَعَ بهِ عِبادَه في كُلِّ مكان، اللهم آمين.

سعد بن سعيد الغامِدي/ إمام المسجد النبوي سابقًا

١١/ ٦/ ١٤٣٤

بسم الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على صفوة خلق أجمعين سيد وحبيبنا وشفيعنا؛ محمد وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين،، وبعد:

فهذا بحث يمكن أن يصنف في التفسير الموضوعي عنوانه (التنصل والاعتراف يوم القيامة) كانت بداية فكرته سببا في كتابة بحث (جوانب في عظمة نبي الرحمة صلى عليه وسلم)، وقد وعدت القارئ الكريم في مقدمة ذلك البحث إن مَنَّ عليَّ كماله[1]، أن أعود لهذا البحث لأبرز من خلاله بعض مظاهر التنصل والاعتراف يوم القيامة .

ولا شك أني- وبصحبة القراء الكرام - خذ العبرة من مواقف هؤلاء ونتعظ بمواقف أولئك إذ إنها مواقف مثيرة يجدها المسلم في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وعندما تستخرج منه وتجمع في رسالة واحدة دراسة و تفسيرا وتحليلا فإن القارئ يقترب من التصور الكامل لمصير تلك النماذج، حين يرى النماذجَ المتنصلة من المسؤولية {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ ا ٌّ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} البقرة ١٦٦-١٦٧. ويرى النماذج الأخرى المعترفة بمسؤوليتها أمام الأشهاد، {فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١١. ويرى النقاش العنيف والحوار الساخن الذي يصل في بعض الأحيان إلى الملاسنة الحادة بين هؤلاء وأولئك {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ }ص٦٠.

١: وقد من كماله وطبع عام ١٤٣٣هـ .

أيها الأحبة الكرام: إن القرآن الكريم فيه الأجوبة الشافية على مسيرة الفريقين {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}الشورى ٧. وقد أخبر النبي صلى عليه وسلم مبينا شمولية القرآن الكريم للمسيرة الكونية (فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ [١].

إننا نحتاج إلى استخدام جميع الوسائل والطرق التي تعيننا وتساعد على تدبر كتاب ، فعندما يخبر سبحانه وتعالى ن هذا القرآن تبيان لكل شيء في قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }النحل٨٩، لا شك أن المسلم يستوعب الحكمة من نقل القرآن الكريم لقصص السابقين واللاحقين ودور المصلحين الجادين والمفسدين المتهورين في سير الأحداث عبر التاريخ.

سبب الكتابة:

إن الحديث عن هذه النماذج يحتاج إلى تمهيد قبل الدخول في صلب الموضوع، ولعل سائلا يسأل :ما السبب الذي دعا إلى الحديث عن مواقف سيكتشفها قارئ القرآن أو سامعه ؟ ولا مانع من ذكر السبب لأخذ العبرة.

أذكر أنني صليت العشاء خلف أحد الأئمة المجودين المجيدين في مدينة الخبر في المملكة العربية السعودية عام ١٤٢٩هـ، فقرأ في تلك الصلاة من سورة فُصِّلت، ولما وصل قوله تعالى{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ }فصلت٢٩. فإذا التأثير القرآني الآسر يعمل عمله في نفسي، ويجعلني أثناء الصلاة أنظر وأشاهد جماعة في وسط جهنم !تشتعل غيظا، وتلتهب حنقا على طائفة أخرى تعتبرها مسؤولة مسؤولية كاملة عن هذا المصير الأليم، مما جعلهم

١: رواه الترمذي رقم(٢٩٠٦) والبزار رقم(٨٣٦) واللفظ له، والدارمي رقم (٣٣٣١) كلها من حديث علي رضي الله عنه

يخافون من أن يفلتوا من العذاب إذ كانوا هم السبب في هذا المآل المأساوي (أر الذين أضلا ...)الآية .

إن عذاب هؤلاء التابعين، لم يشغلهم عن تمني الانتقام من المتبوعين بشع صوره وأشكاله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِ الَّذَيْنِ أَضَلَّا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُو مِنَ الْأَسْفَلِينَ }فصلت٢٩ كأنهم يخافون من شيء واحد وهو أن يبقى من أضلوهم طلقاء..

ونحن نعلم أن أساتذة الضلال سيكونون في جهنم تحت تلاميذهم في دركات الجحيم {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ا زِدْ هُمْ عَذَا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ }النحل٨٨.

إنه موقف أثر في نفسي كثيرا، وجعلني تلقائيا أبحث كي أستخرج الآ ت التي تتعلق لتنصل من المسؤولية، أو الاعتراف بها، فجمعت طائفة من الآ ت، وحرصت قدر الإمكان على أن تكون معبرة عن مضمون الفكرة وفحواها، وقد انتقيت أربعة وخمسين نموذجا تتعلق لتنصل والاعتراف.

وقد يرى القارئ الكريم أن قوله تعالى {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ لْحَقِّ إِ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}الجاثية٢٨. اعتراف لمسؤولية، وقد يرى قارئ آخر أن قوله تعالى {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ تِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِرْ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} إبراهيم ٤٥ . اعتراف لمسؤولية كذلك. وقد يرى أن قوله تعالى{الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ

يُدَعُّونَ إِلَى َرِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} الطور١٣ اعتراف لمسؤولية .

وقد يرى أن قوله تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذْ َ مُتْرَفِيهِمْ ِلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ) اعتراف لمسؤولية أيضا .

لا شك أن هذه الآ ت- وبجرسها القوي-، تدل دلالة واضحة على الاعتراف الضمني -على الأقل -ولكني حاولت أن يكون عنوان الرسالة مطابقا لمضمونها، وقد انتقيت- كما أسلفت -أربعة وخمسين نموذجا، منها أربعة عشر نموذجا سيكون الحديث فيها عن التنصل من التابع، والباقي سيكون الحديث فيه عن الاعتراف لمسؤولية .

وسأبدأ لحديث عن التنصل لسببين اثنين:

الأول: أن نماذج التنصل أقل، ومن المناسب أن يبدأ لقليل.

الثاني :أن التنصل مقدم على الاعتراف في عنوان الرسالة.

من نماذج وأساليب التنصل والاعتراف:

سيلاحظ القارئ الكريم تفاو واختلافا في مواقف التابع والمتبوع..

١. قد يجد القارئ المتبوع يتبرأ من التابع، ويكون أقصى ما يتمناه التابع الرجوع للدنيا ليتبرأ من المتبوع، أي ليرفض دعوته إلى الضلال والانحراف، لو عادا -افتراضا- إلى الدنيا، ولكن القاعدة القرآنية الثابتة {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} الأنعام٢٨، والقاعدة الأخرى (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) المؤمنون.

ثم نعود إلى تنصل المتبوع من التابع: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

تبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} البقرة١٦٧ .

٢. قد يلاحظ القارئ أن المعبود ينفي عبادة التابع له كي يتنصل منه، { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} يونس٢٨ .

٣. قد يجد القارئ الضعفاء يعلنون للكبراء أنهم كانوا تبعا لهم، وينبغي أن يكافئوهم في هذا الوقت الحرج {وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ }إبراهيم٢١ . فكأن السادة في هذا الموقف جمعوا بين الاعتراف والتنصل.

٤. قد يلحظ القارئ أن المتبوع يحمل التابع المسؤولية كاملةً!، معلنا بعض الأدلة على ذلك !!{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }إبراهيم٢٢. وكأن المتبوع يقدم للتابع في الوقت الضائع بعض النصائح مخبرا إ ه ن الاستجابة دون تفكير ليست ظاهرة صحية (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي)، وبناء على هذا التهور والحمق فينبغي للتابع أن يلوم نفسه (فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) ثم يعلن أن التابع والمتبوع قد تساو في هذا الموقف الحرج (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) وكأنه موقف يجمع بين التنصل والاعتراف، ولكن الأذى النفسي يتمثل في نكران المتبوع جميل التابع (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) وهو صريح في التنصل.

٥. قد يلاحظ القارئ أن بعض المجرمين الذين يفتزون على الكذب، ويصدون البشرية عن دين يعرضون على تعالى، وعندهم ضمانة تحمي كل صاحب حق { لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ }غافر١٧. { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف٤٩. ومع ذلك فإنهم ينهارون في هذا المشهد أمام الأشهاد وعندئذ تتولى الملائكة إبراز حقيقة هؤلاء، ويختم النموذج لإخبار عن ضياع ما كانوا يتعلقون به و ملون منه الإنقاذ، { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى ا ّ كَذِ ً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ا ّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ا ّ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ لْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ا ّ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ }هود-٢٣-١٨ .

٦. قد يلاحظ القارئ أن تعالى يوجه سؤالا للتابعين في ذلك اليوم عن الشركاء الذين كانوا يشاقون فيهم، فلا يستطيعون جوا ، وهذا نوع من الاعتراف لجريمة، فيأخذ أهل العلم زمام المبادرة فيتولون الجواب {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ }النحل٢٧.

٧. قد يلحظ القارئ أن تنصل المتبوع من التابع يرمز له في بعض الأحيان بعدم الاستجابة{وَيَوْمَ يَقُولُ دُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُم فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً }الكهف٥٢.

٨. قد يجد القارئ التابع والمتبوع أمام امتحان حقيقي، تبرز فيه الأشياء على حقيقتها {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ا ّ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا

السَّبِيلَ }الفرقان١٧. فيكون جواب المتبوع، {قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً }الفرقان١٨.

٩. قد يلحظ القارئ أن بعض البشرية يحاول الاحتجاج نه كان يعبد الملائكة، فيجيب الملائكة متنصلين، {قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ }سبأ٤١.

١٠.قد يلحظ القارئ حوارا ساخنا وجدالا طويلا بين الرؤساء والمرؤوسين، والأتباع والمتبوعين { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ }سبأ٣١. وأثناء الموقف الرهيب يحاول التابعون- أو الذين استضعفوا حسب مصطلح القرآن الكريم -أن يحملوا المتبوعين -أو الذين استكبروا- المسؤولية الكاملة عما آلت إليه الأمور، مقدمين بعض الأدلة على أنهم ضحا مكر دائم دوام الملوين {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً }سبأ٣٣. ولكن الرؤساء يحاولون التنصل من المسؤولية، معلنين بعض الأدلة حسب زعمهم {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ }سبأ٣٢. وتكون النهاية المأساوية، إدانةُ الطرفين واشتراكهما في العقاب والعذاب، { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }سبأ٣٣.

١١.قد يجد القارئ ظاهرة السباب والشتم بين أفواج من البشر {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ }ص٥٩. فيرد الطرف الآخر {قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ }ص٦٠. ثم يدعو المتضررون- تنفيسا عما في

نفوسهم -على مَن كان سببا في هذا المصير {قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ }ص٦١. ثم يُختم النموذج بمصطلح قرآني يلخص ما يحصل عادة بين التابع والمتبوع في النار {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ }ص٦٤.

١٢.قد يجد القارئ محاجة عنيفة ومخاصمة شديدة وملاسنة حادة داخل جهنم بين التابع الضعيف، والمتبوع المستكبر، فيحتج الضعفاء نهم كانوا بعين للسادة {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ }غافر٤٧. فيجيب المستكبرون بلسان الحال ومنطق الواقع {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ }غافر٤٨، وبعد أن يتأكد التابعون من تنصل المتبوعين، يقدمون رجاءً جماعياW للملائكة {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ }غافر٤٩. فيستفسر الملائكة عن مسيرة هؤلاء في الدنيا، وستكون النتيجة مبنية على جواب هذا الاستفسار: {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى }غافر٥٠، وكأنهم يقولون لهم: مادامت الرسل قد جاءتكم لبينات فينبغي أن تتحملوا مباشرة مسؤوليتكم نفسكم (قَالُوا فَادْعُوا) ولكن الحقيقة النهائية المرة {وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ }غافر٥٠.

١٣.قد يلحظ القارئ أن المتبوع يتنصل من التابع فيا إضلاله له، ومبينا في نفس الوقت أن هذا التابع قد اختار طريق الانحراف رادته {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ }ق٢٧. والحقيقة أن نقاش التابع والمتبوع في ذلك الموقف هو من الخصام العقيم الذي لا يجدي نفعا ولا يكشف ضرا {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ }ق٢٨.

١٤.قد يلحظ القارئ أن بعض الناس في بعض محطات تلك المواقف يتعلق ببند الخلطة والمعاشرة في الدنيا، ظانين أنها تكفي في إ رة الطريق للسالكين {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن

مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }الحديد.١٤. ولكن التنصل تي في جواب المؤمنين كما يقول المفسرون {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }الحديد١٥.

١٥.قد يلاحظ القارئ أن المتبوع مر التابع لانحراف ثم يتخلى عنه في أصعب المواقف وأحلك الظروف، معلنا براءته منه ! والإشكال أنه يعلل ذلك بمخافته من تعالى، وأنت تعلم أن هذه المخافة المزيفة والخشية المصطنعة لم تحُل دون اجتماع التابع والمتبوع في جهنم ({فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا }الحشر١٧ والقاعدة الثابتة {وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ }الحشر١٧. هذه نماذج تتجلى فيها بعض مظاهر تنصل المتبوع من التابع .

أما النماذج الأخرى فإن أساليب الاعتزاف جاءت فيها متنوعة، وسأقتصر على أشهرها:

أ -فنجده بلفظ "ليت" ٨ مرات:

١- {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }الأنعام٢٧.

٢- {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً }الفرقان٢٧.

٣- {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً }الفرقان٢٨

٤- {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا }الأحزاب٦٦

٥- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾الزخرف٣٨.

٦- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾الحاقة٢٥.

٧- ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾النبأ٤٠.

٨- ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾الفجر٢٤.

ب- ونجده بلفظ "بلى" خمس مرات ..

١: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى ﴾الأنعام٣٠.

٢: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾الزمر ٧١

٣: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى؟﴾غافر٥٠.

٤: ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾الأحقاف٣٤.

٥: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قد جاءنا نذير؟﴾الملك٩ .

ج -و نجده بلفظ الشهادة أربع مرات:

١: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا ﴾الأنعام١٣٠.

٢: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾النور٢٤.

٣: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾يس٦٥.

٤: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾فصلت٢٠.

د -وبصيغة" ويل "الدالة على التحسر مرتين:

١: { وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف٤٩.

٢: { يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ }الأنبياء٩٧.

ه‍-ونجده بصيغة نداء المصحوب لاعتراف الذي يتضمن إرادة الانتقام ممن كانوا سببا في هذا المصير الشنيع ثلاث مرات:

١: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}. الأحزاب٦٧.

٢: {قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ }ص٦١.

٣: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ }فصلت٢٩

و- ونجده بصيغة الاعتراف مرتين:

١: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ }. غافر١١.

٢: {فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ }الملك١١.

ز -وبصيغة الإغواء مرتين:

١: {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }القصص٦٣.

٢: {فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ }الصافات٣٢.

ح -وجاء مصحوبا بتمني التابع وجود شفعاء يشفعون له أو تمنيه الخروج حتى يعمل عملا صالحا مرتين:

١: {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}الأعراف٥٣.

٢: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}فاطر٣٧.

ط - ونجده بصيغة نداء ، المصحوب لاعتراف لمسؤولية مرتين:

١: {رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ}الأعراف٣٨.

٢: {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ }المؤمنون١٠٦.

ي- كما نجده بلفظ الاستسلام مرتين:

١: {وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }النحل٨٧.

٢: {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ }الصافات٢٦.

ك- قد يحمل المعترف الطرف الآخر مسؤولية الإضلال، ونجده مرتين:

١: {لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي }الفرقان٢٩.

٢: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا }الأحزاب٦٧) .

ل: وقد يتحمل المجرم تبعات جريمته ونجده في قوله تعالى: { وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ }المؤمنون١٠٦.

م - قد يطلب من المدان تقديم الحجة والبرهان فيعجز معترفا:{فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }القصص٧٥.

ن- قد يرتبك المدان وتتبخر أدلته أمام هول الموقف: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ }القصص٦٦ .

ص- ونجده بلفظ القول أو النداء مع الاعتراف لجريمة، أو مع انهيار المجرم وتولي المؤمنين الإجابة.

١: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}المدثر٤٢.

٢: { وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ }الشورى٤٤.

٣: {وَ دَوْا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ }الزخرف٧٧.

٤: {وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ }الشورى٤٥.

ض- قد يلحظ القارئ في الاعتراف سا مصحو لإحباط:

{وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً }الفرقان١٣.

ع- وجاء بصيغة نعم مرة واحدة: {فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ا عَلَى الظَّالِمِينَ }الأعراف٤٤.

غ- كما أننا نجد الاعتراف من خلال حاستي البصر والسمع مرة واحدة: { رَبَّنَا أَبْصَرْ وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِ مُوقِنُونَ}السجدة١٢ .

ف – ونجده كذلك بلفظ القسم مرة واحدة { إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}الشعراء٩٨ .

ق- ونجده بصيغة الحسرة الدالة على غاية الندم: {قَالُوا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا}الأنعام٣١.

كما أن الاعترافات في هذه النماذج تفوق النماذج نفسها، فقد نجد اعترافات متعددة في سياق واحد!، كقوله تعالى في سورة الملك:

{أَلَمْ تِكُمْ نَذِيرٌ}؟

١: { قَالُوا بَلَى} .

٢: { قَدْ جَاءَ نَذِيرٌ} .

٣: {فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ا ّ ُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} .

٤: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} .

٥: {فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} .

كما أننا نلاحظ أن الاعترافات تنقسم إلى قسمين:

١: قسم تي بسرعة مناسبة لهول الموقف .

٢: وقسم يحاول صاحبه التنصل أولا ثم ينهار ويعترف في النهاية.

وقد نجد اعترافا وتنصلا اجتمعا في سياق واحد، فأنت ترى أن آية القصص جمعت بين عبارة (أَغْوَيْنَاهُمْ) وهي اعتراف وعبارة (تَبَرَّأْ) وهي تنصل..

ونموذج الصافات جمع بين (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ) وهو تنصل، وبين (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِ ّ كُنَّا غَاوِينَ) وهو اعتراف .

وقد يلاحظ القارئ الكريم أن هذه النماذج المتنصلة الشاملة لعدوّ الإنسان بقسميه؛ الأول من جنسه، والثاني من غير جنسه، وهذا- كما ذكرتُ في مقدمة جوانب في عظمة نبي الرحمة -يبرهن على أن الإنسان له صديقان في الدنيا أحدهما من جنسه والآخر من غير جنسه، وله عدوان في الدنيا أحدهما من جنسه،والثاني من غير جنسه، وله صديقان في الآخرة أحدهما من جنسه والثاني من غير جنسه، وله عدوان في الآخرة أيضا أحدهما من جنسه، والثاني من غير جنسه،ولا شك أن مواقف هذه الثمانية ومآلاتها تعد مادة أساسية وثرية- من خلال القرآن الكريم -لهذا البحث، والعقلاء يتعظون بمواقف النماذج المصيرية، التي تبرز انهيار التابع أمام المواقف المحرجة.

وقفة مع نموذج قرآني:

وللقارئ الكريم أن يتساءل عن جدوى الكتابة عن مواقف في غالبها تتعلق لكافرين والمشركين- ومصيرهم معروف عند المسلمين، ولكنه لا مانع من أن نقف سو مع هذا النموذج القرآني {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُو َنَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ َبٌ َطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ ا ِّ وَغَرَّكُمْ ِ َّ ِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}الحديد١٤-١٣.

وللقارئ الكريم أن يعود إلى تفسير هذا المقطع في نموذجه الخاص به، وسأقتصر منه على ملمحين يتعلقان بموضوعنا:

الأول: قوله تعالى { فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ َبٌ َطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ }الحديد١٣، من الواضح أن هذا السياق القرآني يتحدث عن بيئة مشتركة بين المؤمنين والمنافقين والمآلات النهائية لكلا الطرفين الأول: قوله {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى}، والثاني قوله { فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يقول ابن عاشور: وإقحام كلمة (فاليوم) لتذكيرهم بما كانوا يضمرونه في الدنيا حيث ينفقون مع المؤمنين ر ء وتقية"[1] انتهى

قلت: قوله تعالى: (منكم ولا من الذين كفروا)، فيه دليل على أن هذه الجماعة كانت مندمجة مع المؤمنين ومنفصلة عن الكافرين، ويشهد لما سبق قوله { أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى} و خذ من هذه الآية أنه ينبغي لكل واحد منا أن يراجع نفسه معتقدا أن كل إنسان منا ليس محصنا لاسم المسلم أو الهوية المسلمة من المهالك، وإذا كان الوحي

١: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس. ١٩٨٤م. (٢٧/ ٣٨٨).

قد تحدث عن المنافقين فالوحي قد انقطع، وإذا كان الرسول صلى   عليه وسلم قد أطلع حذيفة رضي   عنه على أسماء بعض المنافقين فإن حذيفة قد مات، ولم يبق إلا أن يفتش كل واحد منا نفسه مستحضرا خطورة هذا المصير، وجِلا من أن يُوَجّهَ هذا السؤال { أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ } إلى خُلَّص المؤمنين، فيأتيه الجواب { قَالُوا بَلَى }، ومن حسن حظنا أن نعي قيمة هذه المعية قلبا وقالبا، اعتقادا وسلوكا، قناعة وممارسة، ونحن على قيد الحياة، قادرين على تصحيح المسار، هذه الآية تحتم على كل واحد منا أن يشتغل بتأمين مستقبله مستشعرا خطورة الانحراف عن نهج النبي صلى   عليه وسلم الذي يؤدي إلى الطرد عن حوضه صلى   عليه وسلم إذ يقول (يَرِدُ عَلَى الْحَوْضِ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِي، فَيُحَلَّؤُونَ عَنْهُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لاَ عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ)[1] .

وإذا كان أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يناجي ربه تعالى قائلا: (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين) [الشعراء: ٨٣]، وإذا كان يوسف عليه السلام يسأل   تعالى أن يتوفاه مسلما ويسأله أن يلحقه بالصالحين بعد ذلك مخاطبا أرحم الراحمين {أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} يوسف١٠١، وإذا كان سليمان عليه السلام يسأل ربه تعالى أن يرزقه شكر نعمه ويسأله أن يدخله ضمن قائمة الصالحين، { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }النمل١٩، فهل نحن الضعفاء المقصرون قد استلمنا   مينا شاملا يجعلنا مطمئنين على مستقبلنا؟.

إن المسلم السوي يخاف عقاب   وعذابه، وهو لا يرضى- في نفس الوقت -أن يجتمع مع فاسق أو كافر في صفة، والوضع الطبيعي أن يفرح عندما يشترك مع المؤمنين في صفة، ويخاف كل الخوف ويحذر كل الحذر من أن يتصف بصفة تجمعه مع أعداء   .

١: صحيح البخاري برقم (٦٥٨٦) .

وفي القرطب: "أن مالكا رحمه دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس ولم يركع، فقال له صبي: شيخ قم فاركع، فقام فركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن أكون من الذين (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ)"[1] .

ويقول ابن عاشور في تفسير سورة الهمزة،: إن الهمزة واللمزة هما وصفان من معاملة أهل الشرك للمؤمنين يومئذ ومن عامل من المسلمين أحدا من أهل دينه بمثل ذلك كان له نصيب من ذلك الوعيد". انتهى[2] .

أخي الكريم إن هذه الرسالة -وبمادتها القرآنية-، تخاطب كل شخص لديه غبش في رؤية المستقبل، أو لم يقف يوما وقفة مل وتدبر مع قوله تعالى {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} الإسراء٧١، أو نسي أن يقارن بين موقفه صلى عليه وسلم كما في صحيح مسلم (أُمَّتِي أُمَّتِي)[3] وبين موقف المتبرئين المتنصلين من بعيهم {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ }البقرة١٦٦، { مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ}إبراهيم٢٢ . ...

مفاجأة الشهود!

إن الإنسان في هذه الدنيا له إرادة تتحكم في مكو ت جسمه، فإذا واجه موقفا حرجا سيكون ستطاعته أن يتفادى الحرج بعدة وسائل، فإن كان ذا مروءة أو ذوق رفيع وخوف من ويتحرج من الكذب فقد يتخلص من الإحراج بوسيلة التورية، قال ابن العربي في أحكامه "وَيُحْكَى عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مِنْ زَمَنِ فِتْنَةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَلَى خَلْقِ

١: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي،: دار الكتب المصرية – القاهرة،ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، (١٩ / ١٦٨) .

٢: التحرير والتنوير.(٣٠ / ١٧٢) .

٣: صحيح مسلم برقم (٥٠٠) .

الْقُرْآنِ أَنَّهُ دُعِيَ إِلَى أَنْ يَقُولَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ يُعَدِّدُهُنَّ بِيَدِهِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ مَخْلُوقَةٌ يَقْصِدُ هُوَ بِقَلْبِهِ أَصَابِعَهُ الَّتِي عَدَّدَ بِهَا، وَفَهِمَ الَّذِي أَكْرَهَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ الْكُتُبَ الْأَرْبَعَةَ الْمُنَزَّلَةَ مِنْ اللَّهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، فَخَلَصَ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَضُرَّهُ فَهْمُ الَّذِي أَكْرَهَهُ"(١) .

هذا مثال لتحكم الإرادة في مسيرة الأحداث وسير المواقف، ومن السهل على كثير من الأفراد أن يتخلصوا من المواقف المحرجة إذا كانوا أصحاب حجة، وقد عبر كعب بن مالك رضي عنه عن هذه الفكرة بقوله (يَا رَسُولَ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ)(٢) . أما الأفراد الذين تحدثت عنهم آيات التنصل والاعتراف فلا شك أن لهم ضمانة مطمئنة {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ }غافر١٧، { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف٤٩، ولكنهم عندما يحاولون المراوغة أثناء التحقيق ويعملون على قلب الحقائق فإنهم محاصرون بشهود لم يكونوا لهم في الحسبان، فعندما يتهيؤون للبدء في تفنيد ما نسب إليهم، فإذا جارحة الفم لا تستجيب لوظيفتها الطبيعية!، وفجأة تقوم جارحة اليد بنفس الوظيفة لكنها تعترف بجريمة وتشهد الأرجل على هذه الإدانة {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }يس٦٥ .

١: محمد بن عبد أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، أحكام القرآن لابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م (٣ / ١٦١) .

٢: صحيح البخاري (٤٤١٨) .

وفي موقف آخر من مواقف التحقيق تبدأ الأسماع والأبصار والجلود لإدلاء بشهادتها، فتقوم الحواس بعتاب الجلود على شهادتها عتبار الجلد قاسما مشتركا بين جميع الحواس، فتعتذر الجلود مبرهنة على أن هذه الشهادة خارجة عن إرادتها،{وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} فصلت ٢٠.

وفي نفس السياق فإنك تجد مجموعة من الأفراد يقومون بعملية مفتعلة تهدف إلى اتهام الأبر ء الأصفياء، وبما أن عملية ترويج الإفك ونشر الشائعات لا بد أن تشترك فيها الألسن ترويجا، والأيدي إشارة لشرح الفكرة، والأرجل مشيا لتوصيلها إلى أوسع نطاق، لهذه الأسباب نرى الجوارح الثلاثة مشتركة في الشهادة على الجريمة {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }النور ٢٤.

ولا شك أن اتهام الصديقة بنت الصديق رضي عنه لبهتان لا بد أن تكون لها عواقب وخيمة تناسب حجم الجريمة وحجم من ارتكبت بحقه.

* * *

وأما طريقتي في تفسير هذه الآ ت فإني أعود عند إعداد المادة إلى عدة تفاسير، وأنتقي منها ما أعتقد أنه يمتع القارئ الكريم ويقدم له الجديد، والقارئ هنا اسم جنس، بمعنى أنني لا أقتصر على ما يناسب فئة دون الأخرى!

فإذا لاحظ أحد القراء أن بعض المختارات صعبة على العامة من القراء فإني قصدت من ذلك أن يجد بعض نخبة القراء ما يحقق رغبتهم، مع الالتزام ذن تعالى بتحقيق رغبة غيرهم، وقصدت كذلك من هذه المختارات وبسقفها العالي أن ترتقي ببعض القراء الذين لهم قابلية للتطوير والتثقيف إلى فضاء التأمل ورحاب التدبر ! مما يساعد على تكسير بعض الأقفال التي قد تكون حاجزا بين المسلم والنور المبين.

ولا أدعي أنني أستطيع تكسير هذه الأقفال ! وإنما يقتصر دوري على انتقاء واختيار ما يحقق ذلك الهدف، من خلال ما يفتح به على العلماء الر نيين، الذين عاشوا مع القرآن الكريم .

وعندما يحظى المسلم بتوفيق ويحظى كذلك كتشاف بعض أسرار هذه المعجزة مستشعرا قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آ ـَتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }فصلت٥٣، لا شك أن روحه ستسمو عن هذا المحيط السفلي والعالم الأرضي، وتتجول في فضاءات بلا حدود، وفي عوالم بلا شيرة!

والخلاصة أنني في هذه الآ ت سأمتثل قوله عليه الصلاة والسلام: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[1]، فعندما أكثر النقل من كلام أحد المفسرين وإن لم يشتهر بين بعض القراء فمعنى ذلك أنني وجدت فيه ما أبحث عنه وأرضاه لنفسي، فأحببت أن أمتع به القارئ كما استمتعت به!

وعندما لا يجد القارئ نقلا لكلام بعض مشاهير المفسرين في نموذج معين، فينبغي للقارئ الكريم أن يحسن الظن، وليفترض أنني بحثت في ذلك المرجع ولم أجد فيه ما يسد الفجوة ويثري الفكرة !. ثم إنه قد يكون من المناسب، أن يطلع بعض القراء على الجديد المفيد وإن لم يشتهر أصحابه بينهم.

وإذا كان الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه يقول في مقدمة كتابه وحي القلم: (وربما عابوا السمو الأدبي نه قليل، ولكن الخير كذلك؛ و نه مخالف، ولكن الحق كذلك؛ و نه محير، ولكن الحسن كذلك، و نه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك).

١: صحيح البخاري برقم (٧) .

إلى أن قال: (إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب)[1].

وأقول: إذا كان الرافعي قرر ذلك عن الأدب والأديب، فإن المعجزة القرآنية لا يمكن أن يغوص في أعماقها، ويستخرج كنوزها إلا من أتقن السباحة في لججها .!

الأستاذ الإمام:

وقد أراد تعالى بحكمته البالغة أن يسخر رجلا آ ه بسطة في العلم والعمر والعقل!، فتصدى لتفسير القرآن الكريم، إذ يقول في مقدمة تفسيره منوها بما قدمه للأمة "فجعلت حقا علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتاًلم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين رة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد.

ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين :رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي كلتا الحالتين ضر كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، علما ن غمص فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزا سلفها ليس من حميد خصال الأمة" إلى أن يقول: "فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير" .

١: مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م وحي القلم للرافعي، (١ / ١٥) .

ويعلن في خاتمة تفسيره عن مدة إنجاز هذا المشروع الضخم قائلا: "فكانت مدة ليفه تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر" .

أخي الكريم، ألا تتفق معي أن أدوات هذا المفسر للتفسير تفوق بكثير ما اشترطه الرافعي للأدب والأديب؟

إننا نعترف ن تفسير "التحرير والتنوير" لسماحة الإمام محمد الطاهر بن عاشور التونسي رحمه لم خذ مكانته اللائقة ومرتبته الفائقة في المكتبة الإسلامية، وقد بقي هذا التفسير مقصورا على بعض النخبة من طلبة العلم، مع أن المطالع في تفسيره بتمعن سيجد ما يبهره إعجازا، ويؤثر فيه موعظة، ويربيه سلوكا ويطربه أد ويكسبه ذوقا وينمي فيه حصافة!

والمؤلف- كما سبق -عاش ستة وتسعين سنة[١] تمكن فيها من الأدوات العلمية مبكرا، ولم يبدأ في التفسير إلا بعد تخلصه من القضاء -على حد قوله- وبعد تجربة طويلة لاستخدام أدواته العلمية، ثم بدأ في تفسيره "التحرير والتنوير" وأمضى فيه أربعين سنة إلا أشهرا فهو كتاب العمر!

لهذا السبب، أكثرت من إبداعات ابن عاشور رحمه ولهذا السبب كان تحريره حاضرا في تفسير هذه الآ ت بقوة، كما سنرى ذن !.

ومع هذا كله، فإنني أعتقد أن ابن عاشور رحمه ليس معصوما، كغيره ممن أصدر فيهم الإمام مالك قانونه الذهبي: "كل يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر وأشار

١: ولد بتونس عام ١٢٩٦للهجرة (١٨٧٩م)، وبها توفي عام ١٣٩٣ للهجرة (١٩٧٢م) .

إلى حجرة النبي صلى عليه وسلم"[١]، ولكن المنصف الجاد خذ الصواب من كل طرف، ويتجنب الزلل من كل طرف، إذ هدفه البناء لا الهدم.!

وقد يلاحظ القارئ الكريم كثرة النقل من تفاسير بعض المعاصرين، ولا بد من ذكر بعض المسوغات لذلك .

١: فمن هذه المبررات أن تفاسير الأقدمين- على ما فيها من الفضل -فإن لبعض العلماء قاعدة صارت كالمثل وهي أن"المتأخر أَتمُّ نَظَرًا. "

٢: أن كثيرا من العلماء والتربويين يوصون ن يقرأ طلاب العلم لمعاصريهم، لأنهم يستوعبون لغتهم أكثر من لغة غيرهم.

٣: أن العلم لتعلم، والفضل فضل يؤتيه من يشاء، ولهذا قال ابن مالك رحمه : "وإذا كانت العلوم منحا إلهية، أو مواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتقدمين، ما عسر على كثير من المتأخرين، أعاذ من حسد يسد ب الإنصاف، ويصد عن جميل الأوصاف، وألهمنا شكرا يقتضي توالي الآلاء، ويقضي نقضاء اللأواء"[٢] .

ملاحظة: إن من عادة الخادم أن يعد المائدة وقد يعدها من أصناف الأطعمة المختلفة، للمدعوين المختلفين في أذواقهم وأمزجتهم، وبعد الإعداد سيبدأ المدعوون في تناولها وستجد اختلافا في الرغبات، فبعضهم يتجنب اللحم -مثلا- لصعوبة هضمه،

١: انظر يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو بكر بن أبي طاهر الأزدي السلماسي، منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، تحقيق: محمود بن عبد الرحمن قدح،نشر: مكتبة الملك فهد الوطنيةط١،، ٤٢٢ ١هـ/٢٠٠٢م، (٢٣).

٢: المساعد (شرحٌ لابن عقيل على التسهيل لابن مالك) (ج١ / ص ٣) . طبعة جامعة أم القرى .

وبعضهم يتجنب الحلو ت لأسباب مَرَضِيَّة، وبعضهم يستطيع أن كل من جميع أصناف المائدة .وأ أتشرف ن أكون خادما يقوم عداد الأصناف المختلفة وتقديمها للقراء الكرام، فمن وجد صعوبة في هضم شيء فليأخذ ما يناسبه وليدع لغيره ما يناسبه!.

وقد رأيت أنه من المناسب أن أبدأ كل نموذج بتفسير إجمالي لنخبة من العلماء المعاصرين إذ هو عمل جماعي مميز بتعدد مؤلفيه وتميزهم، اسمه "التفسير الميسر" طبعه مجمع المصحف لمدينة المنورة، وهو تفسير مختصر على هامش صفحات المصحف - فلذلك لم أُحِلْ إلى رقم الصفحة في كل نقل إذ يكفي الرجوع إلى المصحف- وقد جعلته بعنوان (التفسير الإجمالي:)، ثم آتي بعد ذلك بنقولات مطولة من كلام العلماء في النماذج القرآنية تحمل عنوان (التفسير التفصيلي)، إذ سيجد القارئ -إن شاء - ترجيحات ابن جرير، وأقوال ابن الجوزي، واستنباطات القرطبي، ولطائف ابن عاشور، وتحليقات صاحب الظلال، ونظرات السعدي، وغير ذلك مما يحقق رغبة الجميع على مختلف مستو تهم بعون .

مجال هذه الرسالة:

ليس من اختصاص هذا البحث أن يتحدث عن أحوال الموتى وما يقاسونه .

مثل قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ ـسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ا ـِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آ ـَتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ }الأنعام٩٣ .

وقوله {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ }المؤمنون٩٩.

وقوله {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}الواقعة٨٣-٨٤ .

وقوله: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ }المنافقون١٠.

وقوله: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}القيامة٢٦-٢٩ .

وليس من اختصاصه أن يتحدث عن آثار الكوارث التي يتعرض لها المجرمون في الدنيا، والمقاساة التي يعيشونها مما يؤدي إلى الاعتراف بالجريمة، {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ}الأنبياء١٥.

وليس من اختصاصه كذلك أن يتحدث عن شهادة بعض المجرمين بالكفر أثناء التحقيق إبان نزع الروح على ما رجحه بعض المفسرين في قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}الأعراف٣٧.

ولا شك أن هذه الآيات وقعها على القلوب شديد مما يجعلها مستعدة لاستقبال تلك الحقيقة وما بعدها .

أما النماذج التي نريد الحديث عنها فلا بد أن تكون تجاوزت النفخة الثانية، ولا بد أن تتولى الاعتراف أو التنصل بأساليبهما المعروفة والمحددة، فالتعريف لا ينطبق على حالة عامة تحدث القرآن عنها، كقوله تعالى {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ

مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ}إبراهيم٤٤، ولا ينطبق على نماذج أخبر القرآن الكريم فيها عن تنصل المتبوع من التابع دون حوار من الطرفين، نحو قوله تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}طه٥٩، وقوله {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ }فاطر١٤، وقوله { ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ}العنكبوت٢٥، وقوله {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً}مريم٨٢.

ولا ينطبق على نماذج أخرى جاءها التحذير مقرو بما ستلجأ إليه في المواقف المحرجة!، كقوله تعالى {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ }الزمر٥٦، لأن حرف "أن" إذا تقدم على المضارع أفاد الاستقبال، وموضوعنا يتحدث عن واقع يراه الإنسان رأي العين، أو مشهد يراه الإنسان أمامه يوم القيامة، يحكمه قانون {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }غافر١٧، والعدل يسود الموقف { لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}غافر١٧م، {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً }يس، ٥٤، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }الكهف٤٩، وعندما يتنصل أو يعترف هذا أو ذاك في ذلك الوقت، فإنه حينئذ يشمله موضوع الرسالة .

لقد تعمدت إطالة التمهيد، لئلا يصل القارئ إلى صلب الموضوع إلا وعنده تصور شامل عن مقصد الرسالة ومضامينها وأهدافها .

النموذج الأول: قال تعالى {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ ِ َّ جَمِيعًا وَأَنَّ ا َّ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ ا َّ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} البقرة ١٦٥-١٦٦.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ولو يعلم الذين ظلموا أنفسهم لشرك في الحياة الدنيا حين يشاهدون عذاب الآخرة أن هو المتفرد لقوة جميعا وأن شديد العذاب لما اتخذوا من دون آلهة يعبدوهم من دونه، ويتقربون بهم إليه.

عند معاينتهم عذاب الآخرة يتبرأ الرؤساء المتبوعون ممن اتبعهم على الشرك وتنقطع بينهم كل الصلات التي ارتبطوا بها في الدنيا من القرابة والاتِّباع والدين وغير ذلك.

وقال التابعون ليت لنا عودة إلى الدنيا فنعلن براءتنا من هؤلاء الرؤساء كما أعلنوا براءهم منا وكما أراهم شدة عذابه يوم القيامة، يريهم أعمالهم الباطلة ندامات عليهم وليسوا بخارجين من النار أبدا. اهـ

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشور: "قرأ فع وابن عامر ويعقوب (ولو تَرى) لتاء، وهو خطاب لغير معين، يعم كل من يسمع هذا الخطاب وذلك لتناهي حالهم في الفظاعة والسوء، حتى لو حضرها الناس لظهرت لجميعهم-كما يقول ابن عاشور رحمه ، ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي صلى عليه وسلم ف(الذين ظلموا)مفعول به لفعل(ترى) على المعنيين،

والرؤية بصرية في كلا الحالتين وقرأ الجمهور (لو يرى) لياء، فيكون الذين ظلموا فاعلا لفعل يرى، وحذف مفعول (يرى) لدلالة المقام عليه، وتقديره: لو يرون عذابهم، أو لو يرون أنفسهم، وقد تكون (إذ) ظرف زمان، وقد تكون اسماً غير ظرف، أي لو ينظرون الآن ذلك الوقت، فيكون بدل اشتمال من الذين ظلموا في هذا الموضع"(١) .

ثم يقول ابن عاشور: "والذين ظلموا هم الذين اتخذوا من دون أندادا، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، ليكون شاملا لهؤلاء المشركين وغيرهم، وجعل ذلك ظلما لأنه اعتداء على عدة حقوق:

فقد اعتدوا على حق من وجوب توحيده، واعتدوا على من جعلوهم أندادا من دون على العقلاء منهم مثل الملائكة وعيسى عليه السلام ومثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وقد جاء في الصحيح أنهم كانوا رجالا صالحين من قوم نوح فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم تماثيل ثم عبدوها، لأن هذا الصنيع يكون سببا لهول يحصل لهم من السؤال يوم القيامة قال تعالى (عيسى ابن مريم أأنت قلت....).الخ، وقال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة)....الخ

وظلموا أنفسهم في ذلك بتعريضها للسخرية في الدنيا، وللعذاب في الآخرة، وظلموا أعقابهم وقومهم الذين يتبعونهم في هذا الضلال، فتمضي عليه العصور والأجيال، ولذلك حذف مفعول (ظلموا) للدلالة على العموم .

ولك –كما يقول صاحب التحرير والتنوير– أن تجعل ظلموا بمعنى أشركوا وهو مصطلح شائع في القرآن قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم).

ثم إن جواب (لو) محذوف لقصد التفخيم والتعظيم لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، نحو قوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار) وقوله (ولو أن قرآ سيرت به

---

(١) التحرير والتنوير (٢ / ٩٣) .

الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) إذ حذف الجواب في هذه المواضيع أبلغ وأدل.

قوله (أن القوة لله جميعا) قرأ الجمهور بفتح الهمزة وقرأ أبو جعفر ويعقوب بكسر الهمزة على الاستئناف البياني، كأن سائلا قال :ماذا أرى وما هذا التهويل فقيل(إن القوة لله جميعا)، وانتصب (جميعا) على التوكيد لقوله(القوة) أي جميع جنس القوة بت لله تعالى، وهو مبالغة لعدم الاعتماد بقوة غيره، فمفاد (جميع) هنا مفاد لام الاستغراق في قوله (الحمد لله)"(١).

(إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا)، ذكر ابن جرير بسنده عن قتادة قال: "هُمُ الْجَبَابِرَةُ، وَالْقَادَةُ، وَالرُّؤوسُ فِي الشر والشِّرْكِ"(٢).

وقال ابن عاشور:"(إذ) ظرف وهو بدل من (إذ) السابقة (إذ يرون العذاب)، أي لو تراهم في هذين الحالين حال رؤيتهم العذاب، وهي حالة فظيعة، وتبرؤ بعضهم من بعض وهي حالة شنيعة، وهما حاصلان في زمن واحد (تبرأ) التبرؤ تكلف البراءة وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قربه أن يكون مضرا (الذين اتُّبِعُوا)   لبناء للمجهول، أي اتبعهم غيرهم (فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا) أي نجازيهم على إخلافهم الوعد، ومعنى براءتهم منهم كما يقول ابن عاشور تنصلهم من مواعيد نفعهم في الآخرة، الذي وعدوهم في الدنيا وجملة (ورأوا العذاب) حالية، أي تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب بمعنى أنهم لما رأوا أسبابه وعلموا أنه أعِدَّ لمن أضل الناس جعلوا يتباعدون من أتباعهم كي لا يحق عليهم عذاب المضلِّين، وضمير (رأوا) يعود إلى الفريقين، المضَلِّين و المضَلَّين وجملة (وتقطعت بهم الأسباب) معطوفة على جملة (تبرأ)، أي وإذ تقطعت بهم الأسباب

١: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢ / ٩٤).

٢: تفسير الطبري (١٩ / ١٨٩).

وضمير (بهم) عائد إلى كلا الفريقين، والتقطع الانقطاع الشديد، لأن أصله مطاوع قطَّعه لتشديد، مضاعف قطع لتخفيف . و(الأسباب) جمع سبب وهو الحبل"[١].

وذكر صاحب زاد المسير أربعة أقوال في الأسباب: الأول :المودات، والثاني: الأعمال، والثالث: الأرحام والرابع: أنها تشمل جميع ذلك. وقال ابن قتيبة: هي الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا[٢].

ويضيف ابن عاشور أن "السبب هو الحبل الذي يمتد ليرتقى عليه في النخلة أو السطح، ثم قال (وتقطعت بهم الأسباب) تمثيلية، شبهت حالتهم حين خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا لأجله طيلة حياتهم وقد جاء إ ّنه في ظنهم فوجدوا مكانه العذاب، شبه بحال المرتقي إلى النخلة ليجني الثمر الذي كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب، عند ارتقائه فسقط هالكا " فكذلك هؤلاء قد علم كلهم حينئذ ألاّ نجاة لهم فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة، وهي تمثيلية بديعة، لأنها الهيئة المشبهة تشتمل على سبعة أشياء .

ومن إبداعات العلامة ابن عاشور استنباطه لهذه السبعة مبينا بفكره العميق وخياله الواسع أن كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التي تشتمل عليها الهيئة المشبه بها وهي :

١- تشبيه المشرك في عبادته الأصنام واتباع دينها لمرتقى بجامع السعي.
٢- تشبيه العبادة وقبول الآلهة منه لحبل الموصل.
٣- تشبيه النعيم والثواب لثمرة في أعلى النخلة لأنها لا يصل لها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر.

١: التحرير والتنوير (٢ / ٩٦).

٢: زاد المسير (١ / ١٥٧).

٤- تشبيه العمر لنخلة في الطول.

٥- تشبيه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطيع الحبل.

٦- تشبيه الخيبة لبعد عن الثمرة.

٧- تشبيه الوقوع في العذاب لسقوط المهلك .

ثم يقول: وقلما تي في التمثيلية صلوحية أجزاء التشبيه المركب فيها لأن تكون تشبيهات مستقلة، والوارد في ذلك يكون في أشياء قليلة كقول بشار الذي يعد مثالا في الحسن:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا. ..وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فليس في البيت أكثر من تشبيهات ثلاثة.

قوله (وقال الذينـ لتَّبَعوا) إظهار في مقام الإضمار، لأن ضمير الغيبة (الذين) قبله عائد إلى مجموع الفريقين وأنت تلاحظ أن (من) صلة (الذين)، اتبعوا تنبيها على إغاظة المتبوعين وإ رة حسرتهم إذ هو عذاب نفساني يضاعف العذاب الجثماني وقد نبه عليه قوله تعالى (كذلك يريهم أعمالهم حسرات عليهم)[1].

(فلو أن لنا كرة)، يقول ابن عاشور: لو مستعملة في التمني، وهو استعمال كثير لها والكرة الرجعة إلى محل كان فيه الراجع وهي مرة من الكر، ولذلك تطلق في القرآن على الرجوع إلى الدنيا لأنه رجوع لمكان سابق، (كما تبرؤوا)، الكاف للتشبيه، استعملت في المجازاة، والمعنى أنهم تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم فيدعوهم الرؤساء إلى دينهم فلا يجيبوهم ليشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيبوهم في الآخرة.

١: التحرير والتنوير: (٢ / ٩٧) .

(كذلك يريهم أعمالهم حسرات عليهم)، الإراءة هنا بصرية، بمعنى أنه يريهم ما هو عواقب أعمالهم لأن الأعمال لا تدرك لبصر، لأنها انقضت فلا يحسون بها.

والحسرة حزن في ندامة وتلهف، واشتقاقها من الحسر وهو الكشف، لأن الكشف عن الواقع هو سبب الندامة على ما فات من عدم الحيطة له"[1].

(وما هم بخارجين من النار): إنها الحقيقة المرة والمصير المأساوي نسأل السلامة .

(إذ تبرأ الذين اتبعوا): قال الرازي: "فبين أن الذين أفنوا عمرهم على عبادتهم واعتقدوا أنهم أوكد أسباب نجاتهم فإنهم يتبرءون منهم عند احتياجهم إليهم ونظيره قوله تعالى {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}وقوله أيضا: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}، وقوله (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} وحكى عن إبليس أنه قال {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}"[2].

قال صاحب الظلال: أولئك الذين اتخذوا من دون ا" أندادا .فظلموا الحق، وظلموا أنفسهم. .لو مدوا بصارهم إلى يوم يقفون بين يدي ا" الواحد !لو تطلعوا ببصائرهم إلى يوم يرون العذاب الذي ينتظر الظالمين !لو يرون لرأوا (أَنَّ الْقُوَّةَ ِ" جَمِيعاً) فلا شركاء ولا أنداد. .(وَأَنَّ ا" شَدِيدُ الْعَذابِ)

–لو يرون إذ تبرأ المتبوعون من التابعين .ورأوا العذاب .فتقطعت بينهم الأواصر والعلاقات والأسباب، وانشغل كل بنفسه بعا كان أم متبوعا .وسقطت الر سات والقيادات التي كان المخدوعون يتبعونها، وعجزت عن وقاية أنفسها فضلا على وقاية بعيها .وظهرت حقيقة الألوهية الواحدة والقدرة الواحدة، وكذب القيادات الضالة وضعفها وعجزها أمام ا" وأمام العذاب.

١: التحرير والتنوير (٢ / ٩٩).

٢: تفسير الرازي (٤ / ١٨٩).

«وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا»..

وتبدى الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة. وتمنوا لو يردون لهم الجميل! لو يعودون إلى الأرض فيتبرؤوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب! إنه مشهد مؤثر: مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم بين التابعين والمتبوعين. بين المحبين والمحبوبين! وهنا يجيء التعقيب الممض المؤلم:

{كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ، وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ}[1].

١: في ظلال القرآن (١ / ١٥٤).

النموذج الثاني: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.يونس٣٠

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الإجمالي:: واذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم نحشر الخلق جميعا للحساب والجزاء ثم نقول للذين أشركوا بالله الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله حتى تنظروا ما يفعل بكم ففرقنا بين المشركين ومعبوديهم وتبرأ من عبدوا من دون الله ممن كانوا يعبدونهم وقالوا للمشركين ماكنتم إيانا تعبدون في الدنيا، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إننا لم نكن نعلم ما كنتم تقولون وتفعلون ولقد كنا عن عبادتكم إيانا غافلين لا نشعر بها، وفي ذلك الموقف للحساب تتفقد كل نفس أحوالها وأعمالها التي سلفت وتعاينها وتجازى بحسبها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ورد الجميع إلى الله الحكم العدل فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور: "انتصب يوم إما على المفعولية بتقدير اذكر وإما على الظرفية لفعل مقدر يدل عليه قوله تعالى: (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) التقدير كما يقول ابن عاشور ونقول للذين أشركوا مكانكم يوم نحشر الناس جميعا وضمير نحشرهم للذين تقدم الحديث عنهم وهم الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات قوله (جميعا): الضمير البارز في كلمة نحشرهم للتنصيص على إرادة عموم الضمير وذلك أن الحشر يعم الناس

كلهم ومن نكت ذكرِ حشر الجميع هنا التنبيه على أن فظيع حال المشركين وافتضاحهم يكون بمرأى ومسمع من المؤمنين فتكون السلامة من تلك الحالة ز دة في النعمة على المسلمين وتقوية في النكاية للمشركين قوله (مكانكم) منصوب على المفعولية لفعل محذوف تقديره الزموا مكانكم وهو استعمال شائع في كلام العرب في الأمر لملازمة مع التزام حذف العامل فيه حتى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر نحو صه، ثم إن أمرهم بملازمة المكان، تثقيف وحبس وإذ قد جمع فيه المخاطبون وشركاؤهم على أن ذلك الحبس لأجل جريمة مشتركة بين الفريقين وهو كون أحد الفريقين عابداً والآخر معبوداً قوله (أنتم) كيد للضمير المتصل المقدر في الفعل المقدر وهو المسوغ للعطف عليه وبهذا العطف صار الشركاء مأمورين للبث في المكان والشركاء الأصنام وصفوا لشركاء لاعتقاد المخاطَبين ذلك ولذلك أضيف إلى ضميرهم أي أنتم والذين زعمتم أنهم شركاء فإضافة شركاء إلى ضمير المخاطبين تهكم -كما يقول صاحب التحرير والتنوير[1]- قوله (فزيلنا) الفاء للتعقيب، وهو لإفادة حصول ذلك في عقب وقت الأمر للبث ولما كانت الفاء تقتضي الترتيب الزمني في حصول معطوفها إثر المعطوف عليه وكان المقصود هنا أن التزييل حصل مقار ً لإلزامهم المكان عبر عن فعل التزييل بصيغة الماضي لإفادة وقوع التزييل كقوله(أتى أمر) و(زيّل)مضاعف زال المتعدي يقال زال عن موضعه يزيّله بمعنى أزاله فجعلوه ئي العين للتفرقة بينه وبين زال القاصر الذي هو واويّ العين فزيّل فعّل للمبالغة في الزّيل مثل فرّق مبالغة في (فَرَق) والمعنى وقع بينهم تفريق قويّ بحيث انقطعت جميع الوصل التي كانت بينهم، وتعليق التزييل لأصنام عتبار خلق معناه فيها حين أنطقها مما يخالف زعم عبادها (وقال شركاؤهم ما كنتم إ تعبدون) أي ويقول الشركاء هذا الكلام بخلق نطق فيها خارق للعادة يفهمه الناس لإشعار أولئك العابدين

١: التحرير والتنوير (١١ / ٦٨).

ن أصنامهم تبرؤا منهم وذلك ممّا يزيدهم ندامة وكلام الأصنام يفيد نفي أن يكونوا عبدوهم بل عبدوا غيرهم"[١] .

وقال ابن الجوزي: "فإن قيل: كيف تقع الفرقة بينهم وهم معهم في النار، لقوله (إِنَّكُمْ وَمَاـتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اـّ حَصَبُ جَهَنَّمَـأَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) فالجواب: أن الفرقة وقعت بتبرّي كل معبود ممن عبده[٢].

ويقول ابن عاشور في تفسير هذا النموذج: "وقد ول المفسرون هذا بوجوه لا ينثلج لها الصدر". ثم يقول:" والذي يظهر لي أن يكون آخر كلام الأصنام مبيناً لما أجمله أوله هم نفوا أن يكونوا عبدوهم عبادة كاملة وهي العبادة التي يقصد منها العابد امتثال أمر المعبود وإرضاءه فتقتضي أن يكون المعبود عالماً وآمراً بتلك العبادة ولما كانت تلك الأصنام غير عالمين ولا آمرين استقام نفيهم أن يكون عبدتهم قد عبدوهم تلك العبادة وإنما عبدوا غيرهم ممن أمروهم لعبادة وهم الشياطين، و لذلك قالوا (إن كنا عن عبادتكم لغافلين) كما تفسره الآية الأخرى وهي قوله (أهؤلاء إ كم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) فالمراد لشركاء الأصنام لا غيرها ويحتمل أن يكون نطقها بجحد عبادة المشركين ن خلق لها عقولًا فكانت عقولها مستحدثة يومئذ،لم يتقرر فيها علم ن المشركين عبدوهم ويفسر هذا قولهم بعد ذلك إن كنا عن عبادتكم لغافلين وجملة (فكفى لله شهيداً) مؤكدة لقسم ليثبتوا البراءة مما ألصق بهم وجواب القسم (إن كنّا عن عبادتكم لغافلين))فكفى) بمعنى أجزأ وأغنى عن غيره وهو بصيغة خبر مستعمل في إنشاء القسم والباء مزيدة للتأكيد و(الشهيد) الشاهد وهو المؤيد والمصدق لدعوى مدعٍ وانتصب (شهيدا) على

١: المرجع السابق.

٢: زاد المسير (٣ / ٢٦٩).

التمييز لنسبة الكفاية إلى لما فيها من الإجمال وجملة إن كنا عن عبادتكم لغافلين جواب للقسم كما أسلفنا (وإن) مخففة من إنَّ الثقيلة واسمها ضمير شأن ملتزَمُ الحذف وجملة (كنا عن عبادتكم لغافلين) مفسرة لضمير الشأن واللام فارقة بين (إنَّ) المؤكدة المخففة و(إنْ) النافية قوله(هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت(واسم الإشارة(هنالك(في محل نصب على الظرفية وعامله(تبلو(وقدم هذا الظرف للإهتمام به لأن الغرض الأهم من الكلام لعظم ما يقع فيه (تبلو) تختبر وهو هنا كناية عن التحقق وعلم اليقين (وأسلفت(أي قدمت عملاً أسلفته والمعنى أنه تختبر حاله وثمرته فتعرف ما هو حسن و فع وما هو قبيح وضار إذ قد وضح لهم ما يفضي إلى النعيم وما يفضي إلى النار، وقرأ الجمهور(تبلو(لتاء والباء وقرأ حمزةُ والكسائي)تتلو(على أنه من التلو وهو المتابعة أي تتبع كل نفسٍ ما قدمته من عمل فيسوقها الى الجنة أو النار" وقد تكون تتلو بمعنى تقرأ أي تقرأ كتابها. [١]

قال الرازي: وأما قوله: {وَرُدُّواْ إِلَى ا ـِّ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} فاعلم أن الرد عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه، وههنا فيه احتمالات؛ الأول أن يكون المراد من قوله{ وَرُدُّواْ إِلَى ا ـَّ } أي وردوا إلى حيث لا حكم إلا لله والثان؛ أن يكون المراد وَرُدُّواْ إلى ما يظهر لهم من من ثواب وعقاب منبهاً بذلك على أن حكم لثواب والعقاب لا يتغير، الثالث؛ أن يكون المراد من قوله وَرُدُّواْ إِلَى ا ـِّ أي جعلوا ملجئين إلى الإقرار لهيته بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير تعالى ولذلك قال مَوْلَاهُمُ الْحَقّ أعني أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق.

١: التحرير والتنوير (١١ / ٧٠).

وأما قوله {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُون} فالمراد أنهم كانوا يدعون فيما يعبدونه أنهم شفعاء وأن عبادتهم مقربة إلى تعالى فنبه تعالى على أن ذلك يزول في الآخرة ويعلمون أن ذلك طل وافتراء واختلاق[1].

(وردوا إلى مولهم والحق) قال ابن عاشور: "والرد بمعنى الإرجاع، والإرجاع إلى : الإرجاع إلى تصرفه لجزاء على ما يرضيه وما لا يرضيه وقد كانوا من قبل في الحياة الدنيا ممهلين غير مجازين والمولى السيد لأن بينه وبين عبده ولاء عهد الملك ويطلق على متولي أمور غيره والحق الموافق للواقع والصدق أي ردوا إلى الإله الحق دون الباطل(وضل عنهم ما كانوا يفترون) والضلال الضياع ما كانوا يفترون أي ما كانو يكذبون من نسبتهم الألوهية إلى الأصنام"[2] .

وقال صاحب الظلال:"هذه هي قصة الشفعاء والشركاء في مشهد من مشاهد القيامة، مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد ن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من ا ، ولن يملكوا لهم خلاصًا ولا نجاة .

هؤلاء هم محشورون جميعا. .الكفار والشركاء. .وهم كانوا يزعمونهم شركاء ، ولكن القرآن يسميهم (شركاءهم) تهكما من جهة، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوما شركاء .

هؤلاء هم جميعا كفارا وشركاء .يصدر إليهم الأمر:

(مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ) قفوا حيث أنتم .ولا بد أن يكونوا قد تسمروا في أماكنهم !فالأمر يومئذ للنفاذ .ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما في الموقف(فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ) وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء، يتكلمون

١: تفسير الرازي (١٧/ ٧٠).

٢: التحرير والتنوير (١١/ ٧١).

ليبرئوا أنفسهم من الجريمة. جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع ا ّ ، أو من دون ا ّ ، وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إ هم ولم يشعروا، فهم إذن لم يشنزكوا في الجناية، ويشهدون ا ّ وحده على ما يقولون:

(وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ: ما كُنْتُمْ إِيَّ ـتَعْبُدُونَ .فَكَفى ِ ـَّ شَهِيدلًـبَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِين)

هؤلاء هم الشركاء الذين كانوا يعبدون هؤلاء هم ضعاف يطلبون البراءة من إثم أتباعهم .ويجعلون ا ّ وحده شهيداً، ويطلبون النجاة من إثم لم يشاركوا فيه ! عندئذ، وفي هذا الموقف المكشوف، تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة:

(هُنالِكَـتَبْلُوا كُلُّـنَفْسٍ ما أَسْلَفَت)

وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع، وما عداه طل:

(وَرُدُّوا إِلَى ا ِـَّ مَوْلاهُمُ الْحَقّ)

وهنالك لا يجد المشركون شيئا من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود:

(وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُولـيَفْتَرُونَ)

وهكذا يتجلى المشهد الحي، في ساحة الحشر، بكل حقائقه، وبكل وقائعه، وبكل مؤثراته واستجا ته.

تعرضه تلك الكلمات القلائل، فتبلغ من النفس ما لا يبلغه الإخبار المجرد، ولا براهين الجدل الطويل! ومن جولة الحشر الذي تسقط فيه الدعاوى والأ طيل، ويتجلى فيه أن المولى هو ا ّ المهيمن على الموقف وما فيه[1].

١: في ظلال القرآن (٣ / ١٧٨٠).

وقال الشعراوي: "والحشر هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة؛ ليصيروا في المكان الذي شاءه سبحانه لهم.

وكلما اقترب الناس من هذا المكان؛ ازدحموا، وذلك شأن الدائرة بمحيطها، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقي في المركز، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع؛ لتلتقي بهم في المركز؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز؛ فالدوائر تضيق، ويحدث الحشر.

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً، ولهذا الازدحام متاعب، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة.

وقوله الحق: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج تعالى، ولا لدعوة سبحانه لهم، وكذبوا رسلهم، واتخذوا من دون تعالى أنداداً، فيجمع سبحانه المتَّخذَ أنداداً، والمتَّخَذَ ندّاً، ويواجههم؛ لتكون الفضيحة مة وعامَة، بين عابد عبد طلاً، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده، أو معبود طلب من عابده أن يعبده.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾.

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً، ومن عبد صنماً، أو عبد شمساً، أو عبد قمراً، أو جِنّاً أو شيطا ً من شياطين الإنس أو شياطين الجن.

إذن: فالمعبودون متعددون، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك الحشر، وستكون المواجهة علنية مكشوفة.

فإذا نظر إلى العابد الذي اتخذ إلهاً طلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد هو سبحانه وتعالى ففتنوا في الرسول وعبدوه، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها: كالأصنام، والشمس، والقمر، والأشجار.

أما المعبود الذي له علْم، وله دعوة إلى أن يعبده غيره، فهو ينزكز في شياطين الإنس، وشياطين الجن، وإبليس.

أما الملائكة فإن سبحانه وتعالى يواجههم بمن عبدهم، فيسألهم: أأنتم دعوتم هؤلاء؛ ليتخذوكم آلهة، فيقولون: سبحانك أنت وليُّنا، ويتبرأون من هؤلاء الناس، مصداقاً لقول الحق سبحانه: (إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعو).

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمَّتهم الرسل عليهم السلام، فيأتي سيد عيسى ابن مريم عليه السلام، ويَقول الحق سبحانه له (أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ).

فيقول سيد عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن الكريم (سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه، ولم يَدْعُ إليه"[1].

١: تفسير الشعراوي (١ / ٣٩١٧).

النموذج الثالث: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ}

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: وخرجت الخلائق من قبورهم وظهروا كلهم يوم القيامة لله الواحد القهار ليحكم بينهم فيقولوا الأتباع لقادتهم إ كنا لكم في الدنيا أتباعا تمر مركم فهل أنتم اليوم دافعون عنا من عذاب شيئا كما كنتم تعدوننا ؟ فيقول الرؤساء لو هدا إلى الإيمان لأرشد كم إليه، ولكنه لم يوفقنا فضللنا وأضللناكم يستوي علينا وعليكم الجزع والصبر عليه، فليس لنا مهرب ولا منجى.

التفسير التفصيلي:

(وبرزوا) قال القرطبي "أي برزوا من قبورهم يعني يوم القيامة، والبروز الظهور"[١] .

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "كان مقتضى الظاهر أن يقول: (ويبرزون لله) فعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع مثل قوله تعالى (أتى أمر) قوله (جميعا) كيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيف ثم يقول وقد جيء في هذه الآية بوصف الفِرَقِ يوم القيامة ومجادلة أهل الضلال مع قادتهم والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارك شأنهم قبل الفوات، فالمقصود التحذير مما يفضي إلى سوء المصير، قوله (فقال الضعفاء للذين استكبروا) الضعفاء عوام الناس والأتباع،(والذين استكبروا) السادة لأنهم يتكبرون على العموم وكأن التكبر شعار السادة والسين والتاء للمبالغة في الكبر والتبع اسم جمع بع مثل الخدم والخول والفاء لتفريع الاستكبار على التبعية لأنها سبب يقتضي الشفاعة لهم قوله (فهل أنتم مغنون عنا) أي فهل أنتم دافعون عنا من

١: تفسير القرطبي (٩ / ٣٥٥).

عذاب من شيء وموجب تقديم المسند إليه على المسند في قوله (فهل أنتم مغنون عنا) كما يقول ابن عاشور أن المستفهم عنه هو كون المستكبرين يغنون عنهم لا أصل الغناء عنهم لأنهم آيسون منهم لما رأو الغضب الإلهي عليهم وعلى سادهم كما يدل عليه قول المستكبرين سواء علينا أجزعنا ...فعلموا أنهم قد أغروهم في الدنيا فتعين أن الاستفهام مستعمل في التوبيخ والتبكيت أي فأظهروا مكانتكم عند التي كنتم تَدَّعُونَهَا وتغروننا بها في الدنيا، فإيلاء المسند إليه حرف الاستفهام قرينة على أنه استفهام غير حقيقي قوله (من عذاب من شيء) مِن "صلة أي فهل أنتم مغنون عنا شيئا من عذاب يقال أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى وأغناه إذا أوصل إليه النفع و"من "في قوله من عذاب بدلية أي غناء بدلا من عذاب "[1].

قوله (لو هدا) قال القرطبي :أي لو هدا إلى الإيمان لهديناكم، وقيل لو هدا إلى طريق الجنة لهديناكم وقيل لو نجا من العذاب لنجيناكم[2].

ويقول ابن عاشور: "وجواب المستكبرين اعتذار عن تغريرهم لأنهم ما قصدوا به توريط أتباعهم كيف وقد ورطوا أنفسهم أي لو كنا فعين لنفعنا أنفسنا وهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التوبيخي العتابي إذ لم يجيبوهم لا نملك لكم غناء ولكن ابتدؤوا لاعتذار عما صدر عنهم نَحْوَهم في الدنيا علما ن الضعفاء عالمون نهم لا يملكون لهم غناء من العذاب وجملة، (سواء علينا) من كلام الذين استكبروا وهي مستأنفة تبين عن سؤال من الضعفاء يستفتون المستكبرين أيصبرون أم يجزعون تطلبا للخلاص من العذاب فأرادوا ييسهم من ذلك يقولون لا يفيد جزع ولا صبر فلا نجاة

١: التحرير والتنوير: (١٢ / ٢٤٤).

٢: تفسير القرطبي: (٩ / ٣٥٥).

من العذاب، فضمير المتكلم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين جمعوا أنفسهم إتماما للاعتذار عن توريطهم[١].

والجزع :حزن مشوب ضطراب، والصبر الثبات على تحمل المكروه والمشاق.

وجملة (مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) كما يقول صاحب التحرير والتنوير واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء، أي حيث لا محيص ولا نجاة فسواء الجزع والصبر. والمحيص :مصدر ميمي كالمغيب والمشيب وهو النجاة، ويقال :حاص عنه، أي نجا منه .ويحتمل أن يكون اسم مكان من حاص أيضا، أي ما لنا ملجأ ومكان ننجو فيه وما لنا وجه نتباعد به عن النار"[٢].

وفي القرطبي: "وروي عن النبي صَلَّى ا ّ ُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال ":يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هلم فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا "سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْ ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ ."وقال محمد بن كعب القرظي :لما ذكر أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : هؤلاء !قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون، فهلم فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة فنفعهم الصبر إذ صبروا، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا، فطال صبرهم فجزعوا، فنادوا ":سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْ ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ "أي منجى، فقام إبليس عند ذلك فقال ":إِنَّ ا ّ َ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَ َ بِمُصْرِخِكُمْ "يقول :لست بمغن عنكم

١: التحرير والتنوير (١٢ / ٢٤٤) .

٢: التحرير والتنوير: (١٢ / ٢٤٤ - ٢٤٥).

شيئا "وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ " ثم يقول القرطبي رحمه وقد كتبنا الحديث بطوله، في كتاب التذكرة(١).

وفي زاد المسير: "وروى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم قال: جَزِعوا مائة سنة، وصبروا مائة سنة. وقال مقاتل: جزعوا خمس مائة عام، وصبروا خمس مائة عام"(٢).

ويقول السعدي رحمه : (وَبَرَزُو) أي :الخلائق (ِ ّ جَمِيعًا) حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاعٍ صفصفٍ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ويبرزون له لا يخفى عليه منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟(٣)

ويقول صاحب الظلال "لقد انتقلت الرواية. .رواية الدعوة والدعاة، والمكذبين والطغاة. .انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة: (وَبَرَزُوا ِ ّ جَمِيعاً)

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين .ومعهم الشيطان. .ثم الذين آمنوا لرسل وعملوا الصالحات. .برزوا (جميعا) مكشوفين .وهم مكشوفون ّ دائما، ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون

لا يحجبهم حجاب، ولا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق. .برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار، وبدأ الحوار: (فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِ ّ كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ ا ّ ِ مِنْ شَيْ ءٍ)..

والضعفاء هم الضعفاء .هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على ا ّ حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعا

١: تفسير القرطبي (٩ / ٣٥٦) والتذكرة كتاب فريد في به تحدث فيه القرطبي رحمه عن أحوال الآخرة..

٢: زاد المسير لابن الجوزي (٤ / ٢٥).

٣: تفسير السعدي (١ / ٤٢٤).

للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير ا ّ من عبيده واختاروها على الدينونة ّ . والضعف ليس عذرا، بل هو الجريمة فما يريد ا ّ لأحد أن يكون ضعيفا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة ّ .وما يريد ا ّ لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه في الحرية – التي هي ميزته ومناط تكريمه – أو أن ينزل كارها .والقوة المادية – كائنة ما كانت – لا تملك أن تستعبد إنسا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية .فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه .أما الضمير .أما الروح .أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك ؟

لا أحد لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما كلا، إن هذه كلّها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف لضعفاء إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم خص خصائص الإنسان !إن المستضعفين كثرة، والطواغيت قلة فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة؟ وماالذي يخضعها؟ إنما يخضعها ضعف الروح، وسقوط الهمة، وقلة النخوة، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها ا ّ لبني الإنسان !إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير فهي دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت .

فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان !إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء. .وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة !!والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم:

(إِ ّ كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ ا ّ ِ مِنْ شَيْءٍ)

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم؟ !أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة، وتعريضهم إ هم للعذاب؟

إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال !ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال:

(قالُوا: لَوْ هَدا َ ا ّ ُ لَهَدَيْناكُمْ !سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْ ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ)

وهو رد يبدو فيه التبرم والضيق: (لَوْ هَدا َ ا ّ ُ لَهَدَيْناكُمْ)

فعلام تلوموننا ونحن وإ كم في طريق واحد إلى مصير واحد؟ إننا لم نهتد ونضللكم ولو هدا ا ّ لقد كم إلى الهدى معنا، كما قد كم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى ا ّ . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسا لقدرة القاهر الجبار. وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر ّ . وا ّ لا مر لضلال كما قال سبحانه: (إِنَّ ا َّ لا َمُرُ ِلْفَحْشاءِ) ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي، فيعلمونهم ن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر. فقد حق العذاب، ولا راد له من صبر أو جزع، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة ا ّ .

لقد انتهى كل شي ء، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص:

(سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْ ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ!) لقد قضي الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار(١).

١: في ظلال القرآن: (٤ / ٢٠٩٧).

النموذج الرابع:

قال تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ ا ـَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَ َ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: وقال الشيطان بعد أن قضى الأمر وحاسب خلقه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إن وعدكم وعدا حقا لبعث والجزاء ووعدتكم وعدا طلا أنه لا بعْثَ ولا جزاء فأخلفتكم وعدي وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي ولا كانت معي حجة ولكن دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني فلا تلوموني ولوموا أنفسكم فالذنب ذنبكم ما أ بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب إني تبرأت من جعلكم لي شريكا مع في طاعته في الدنيا، إن الظالمين- في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل -لهم عذاب مؤلم موجع. اهـ

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور: "أفضت مجادلة الضعفاء وسادهم في تغريرهم لضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان :إما لأهم بعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم لحرمان من الهدى علموا أن سبب إضلالهم هو الشيطان لأن نفي الاهتداء يرادفه الضلال، وإما لأن المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وكل ذلك بعلم يقع في نفوسهم كالوجدان، (وقال الشيطان) عطف على جملة (فقال الضعفاء)"[١].

١: التحرير والتنوير: (١٢ / ٢٤٥).

وفي القرطبي:" قال الحسن يقف إبليس يوم القيامة خطيبا في جهنم على منبر من ر يسمعه الخلائق جميعا ومعنى (قضي الأمر) أي تم الشأن أي إذن وحكمه، ومعنى إتمامه ظهوره وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية، قال تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون)، وذلك كل فريق على مستقره الذي استحقه بعمله[1]".

{إِنَّ ا ـَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}

قال القرطبي "روى ابن المبارك من حديث عقبة ابن عامر عن النبي صلى عليه وسلم: فيقول عيسى أدلكم على النبي الأمي فيأتوني فيأذن لي أن أقوم فيثور مجلسي من أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم نحيبهم ويقول عند ذلك {إِنَّ ا ـَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ}...الآية[2].

قال ابن عاشور: "فيتصدى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلهم معه في تبعة ضلالهم، وقد أنطقه بذلك لإعلان الحق، والشهادة عليهم ن لهم كسبا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحق .فهذا شبيه بشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون" ثم يقول ابن عاشور :"وأخبر بها الناس استقصاء في الإبلاغ ليحيط الناس علما بكل ما سيحل بهم، وإيقاظا لهم ليتأملوا الحقائق الخفية فتصبح بينة واضحة، فقول الشيطان {فَلا ـتَلُومُونِي وَلُومُوا ـأَنْفُسَكُمْ} إبطال لإفراده للوم أو لابتداء توجيه الملام إليه في حين أنهم أجدر للوم أو بتداء توجيهه.

١: القرطبي: (٩ / ٣٥٦).

٢ السابق

قوله {إِنَّ ا ّ َ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ }يعني البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا ر ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم.

وإضافة (وَعْدَ) إلى (الْحَقِّ) من إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف، أي الوعد الحق الذي لا نقض له.

والحق :هنا بمعنى الصدق والوفاء لموعود به .وضده :الإخلاف، ولذلك قال : (وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) أي كذبت موعدي، وشمل وعد الحق جميع ما وعدهم في القرآن على لسان رسوله – عليه الصلاة والسلام .– وشمل الخلف جميع ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه وما يعدهم إلا غرورا.

قوله{ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ} أي ما كان لي حجة وبيان أي ما أظهرت حجة على ما وعدتكم وزينته لكم في الدنيا (إلا أن دعوتكم) أي أغويتكم فاتبعتموني وقيل معناه لم أقهركم على ما دعوتكم إليه.

(إلا أن دعوتكم) استثناء منقطع لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس المستثنى منه.

والمعنى لكني دعوتكم فاستجبتم لي وتفرع على ذلك كما يقول ابن عاشور (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم)، والمقصود :لوموا أنفسكم، أي إذ قبلتم إشارتي ودعوتي"[1].

(وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ) أي على قلوبكم وموضع إيمانكم كما يقول القرطبي[2].

١: التحرير والتنوير (١٢ / ٢٤٦) .

٢: تفسير القرطبي (٩ / ٣٥٦) .

وجملة {ما أَ ۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ}، بيان لجملة النهي عن لومه لأن لومه فيه تعريض هم يتطلبون منه حيلة لنجاهم، فنفي ذلك عن نفسه بعد أن هاهم عن أن يلوموه .

(ما أ بمصرخكم) والإصراخ :الإغاثة، اشتق من الصراخ لأن المستغيث يصرخ على صوته، فقيل :أصرخه، إذا أجاب صراخه، كما قالوا :أعتبه، إذا قبل استعتابه، والاستصراخ الاستغاثة يقال :صرخ فلان أي استغاث يصرخ صرخا وصراخا وصرخة، واصطرخ بمعنى صرخ، والتصرخ تكلف الصراخ.

وأما عطف (وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) فالمقصود منه استقصاء عدم غناء أحدهما عن الآخر.

وجملة (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) استئناف آخر من تبعات عبادهم إ ه قصد منه دفع ز دة العذاب عنه ظهار الخضوع لله تعالى .وأراد بقوله (كَفَرْتُ) شدة التبري من إشراكهم إ ه في العبادة، فإن أراد من مضى فعل (كَفَرْتُ) مضي الأزمنة كلها، -أي كنت غير راض شراككم إ ي- فهو كذب منه أظهر به التذلل، وإن كان مراده من المضي إنشاء عدم الرضى شراكهم إ ه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبل متاب .و (مِنْ قَبْلُ) على التقديرين متعلق بـ(أَشْرَكْتُمُونِ)[1].

وقال القرطبي: "أي كفرت شراككم إ ي مع في الطاعة وقال ابن جريج :إني كفرت اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشرك لله تعالى، قال قتادة :إني عصيت وقال الثوري :كفرت بطاعتكم إ ي في الدنيا).[2]

١: التحرير والتنوير (١٢ / ٢٤٨) .

٢: تفسير القرطبي (٩ / ٣٥٨).

قال ابن عاشور وجملة (إن الظالمين لهم عذاب أليم) "من الكلام المحكي عن الشيطان. وهي في موقع التعليل لما تقدم من قوله :(مَا أَ َ بِمُصْرِخِكُمْ) أي لأنه لا يدفع عنكم العذاب دافع فهو واقع بكم"[1].

وقال الشيخ السعدي: "إن الظالمين لأنفسهم بطاعة الشيطان (لهم عذاب أليم) خالدين فيه أبدا، وهذا من لطف بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ويكفر بشركهم ولا ينبئك مثل خبير، ثم يقول السعدي :واعلم أن سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان وقال في آية أخرى (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط لإغراء على المعاصي لأوليائه يؤُزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا (ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)"[2].

١: التحرير والتنوير (١٢ / ٢٤٨).

٢: تفسير السعدي (١ / ٤٢٤).

النموذج الخامس:

{وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} الكهف٥٣

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: واذكر لهم إذ يقول للمجرمين يوم القيامة: دوا شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي في العبادة لينصروكم اليوم مني، فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم، وجعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكا في جهنم يهلكون فيه جميعا.

وشاهد المجرمون النار، فأيقنوا أنهم واقعون فيها لا محالة، ولم يجدوا عنها معدلا للانصراف عنها إلى غيرها.اهـ

التفسير التفصيلي:

يربط ابن عاشور رحمه هذه الآية بما قبلها، مقدرا ولا أشهدت شركاءهم جميعا يوم الحشر حيث يقول: "فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتزيهم من الخيبة واليأس يومئذ، وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية نتفاء لوازمها، فإنه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم و سهم من النجاة.

وقرأه الجمهور (يقول) بياء الغيبة والضمير عائد إلى تعالى لدلالة المقام عليه، وقرأ حمزة (نقول) بنون العظمة.

واليوم الذي يقع فيه يوم الحشر .والمعنى :يقول للمشركين، كما دل عليه قوله : (الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أي زعمتموهم شركائي .وقدم وصفهم بوصف الشركاء قبل فعل الزعم

تهكما لمخاطبين وتوبيخا لهم، ثم أردف بما يدل على كذبهم فيما ادعوا لفعل الدال على اعتقاد طل .

والنداء :طلب الإقبال للنصرة والشفاعة.

والاستجابة :الكلام الدال على سماع النداء والأخذ في الإقبال على المنادِي بنحو قول :لبيكم .

وأمره إ هم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار طلهم بقرينة الزعم، ولذلك لم يسعهم إلا أن ينادوهم حيث قال :(فدعوهم) لطمعهم، فإذا دوهم تبين لهم خيبة طمعهم، ولذلك عطف فعل الدعاء لفاء الدالة على التعقيب، وأتى به في صيغة المضي للدلالة على تعجيل وقوعه حينئذ حتى كأنه قد انقضى"[1].

وذكر الطبري بسنده عن الحسن أن الموبق هو العداوة، وعن قتادة والضحاك أنه الهلاك، أو هو واد في جهنم، كما فرق به يوم القيامة بين أهل الضلالة وأهل الهدى، وختم الطبري بقوله (وجائز أن يكون المهلك هو الوادي وجائز أن يكون العداوة)[2].

قال ابن عاشور رحمه "والموبق: مكان الوبوق، أي الهلاك. يقال: وبق مثل وعد ووجل وورث، والموبق هنا أريد به جهنم، أي حين دعوا أصنامهم سمائهم كون فيما بين مكانهم ومكان أصنامهم فوهات جهنم، ويحتمل أن تكون جملة (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً) جملةً حاليةً، أي وقد جعلنا بينهم موبقا، أي جعلنا الموبق ورآه المجرمون، فذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للدلالة على ما يفيد المجرمون من تلبسهم بما استحقوا به عذاب النار، وكذلك بـ (النار) في مقام الإضمار للموبق للدلالة على أن الموبق هو النار فهو شبيه بعطف البيان.

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨٧).

٢: تفسير الطبري: (١٥ / ٢٩٦).

والظن مستعمل هنا في معنى التحقق وهو من استعمالاته، ولعل اختياره هنا ضرب من التهكم بهم، نهم رجحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنهم موقنون بذلك.

والمواقعة :مفاعلة من الوقوع، وهو الحصول لقصد المبالغة، أي واقعون فيها وقوع الشيء الحاصل في موقع يتطلبه فكأنه يقع هو فيه.

والمصرف :مكان الصرف، أي التخلص والمجاوزة ."

وفي الكلام إيجاز، تقديره- كما يقول ابن عاشور: "وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفا، أي مخلصا"[1].

وقال السعدي رحمه : لما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفهه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن يقول لهم :(َدُوا شُرَكَائِيَ) بزعمكم أي :على موجب زعمكم الفاسد، وإلا فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض، ولا في السماء، أي : دوهم، لينفعوكم، ويخلصوكم من الشدائد، (فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ) أي :بين المشركين وشركائهم (مَوْبِقًا) أي، مهلكا، يفرق بينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم[2].

وقال صاحب الظلال: (وَيَوْمَ يَقُولُ: دُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ).. الخ.

"إنهم في الموقف الذي لا تجدي فيه دعوى بلا برهان، والد ن يطالبهم أن توا بشركائهم الذين زعموا، و مرهم أن يدعوهم ليحضروا، وإنهم لفي ذهول ينسون أنها

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨٨).

٢: تفسير السعدي (١ / ٤٨٠) .

الآخرة، فينادون، لكن الشركاء لا يجيبون !وهم بعض خلق ا ّ الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا في الموقف المرهوب، وقد جعل ا ّ بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ولا هؤلاء، إنها النار (وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً) .

ويتطلع المجرمون، فتمتلىء نفوسهم لخوف والهلع، وهم يتوقعون في كل لحظة أن يقعوا فيها .وما أشق توقع العذاب وهو حاضر، وقد أيقنوا أن لا نجاة منها ولا محيص: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً) ولقد كان لهم عنها مصرف، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن، ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به"(١).

١: في ظلال القرآن (٤ / ٢٢٧٥).

النموذج السادس:

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) } الفرقان ١٧-١٨.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم القيامة يحشر المشركين وما كانوا يعبدونه من دونه فيقول لهؤلاء المعبودين: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء عن طريق الحق وأمرتموهم بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل فعبدوكم من تلقاء أنفسهم ؟ قال المعبودون من دون تنزيها لك — ربنا -عما فعل هؤلاء فما يصح أن نتخذ سواك أولياء نواليهم ولكن متعت هؤلاء المشركين وآ ءهم لمال والعافية في الدنيا حتى نسوا ذكرك فأشركوا بك وكانوا قوما هلكى غلب عليهم الشقاء والخذلان، فيقال للمشركين لقد كذبكم هؤلاء الذين عبدتموهم دعائكم عليهم فها أنتم أولاء لا تستطيعون دفعا للعذاب عن أنفسكم ولا نصرا لها ومن يشرك لله فيظلم نفسه ويعبد غير ويمت على ذلك يعذبه عذا شديدا. اهـ

التفسير التفصيلي:

قوله تعالى (ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ) قال القرطبي: "فإن قيل :فإن كانت الأصنام التي تعبد تحشر فكيف تنطق وهي جماد؟ قيل له :ينطقها تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل"[1].

وقال ابن الجوزي: "والمعنى ما كان ينبغي لنا أن نعبد نحن غيرك، فكيف ندعو إلى عبادتنا؟ !فدل هذا الجواب على أنهم لم مروا بعبادتهم"[1].

١: تفسير القرطبي (١٣ / ١٠).

قال ابن عاشور: "(يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ) منصوب على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله، تقديره :اذكر ذلك اليوم لأنه لما توعدهم لسعير وما يلاقون من هولها بين لهم حال ما قبل ذلك وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم، وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم إذ يرون حقارتها بين يدي وتبرؤها من عبادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة وإعراضهم عن القرآن، وإذ يسمعون تكذيب من عبدوهم من العقلاء من الملائكة وعيسى عليهم السلام والجن ونسبوا إليهم أنهم أمروهم لضلالات.

وعموم الموصول من قوله (وَمَا يَعْبُدُونَ) شامل لأصناف المعبودات التي عبدوها، ولذلك اختيرت" ما "الموصولة لأنها تصدق على العقلاء وغيرهم.

على أن التغليب هنا لغير العقلاء، والخطاب في (أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ) للعقلاء بقرينة توجيه الخطاب.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ)هذه الجملة جواب عن سؤال إ هم :(أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)، والاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد، والمعنى :أأنتم أضللتموهم أم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم، ففي الكلام حذف دل عليه المذكور.

والإخبار بفعل (أَضْلَلْتُمْ) عن ضمير المخاطبين المنفصل (أنتم) وبفعل (ضَلُّوا) عن ضمير الغائبين المنفصل (هم) يفيد تقديم المسند إليهما على الخبرين الفعليين تقوي الحكم المقرر به لإشعارهم نهم لا مناص لهم من الإقرار حد الأمرين وأن أحدهم محقق الوقوع لا محالة .فالمقصود لتقوية هو معادِلُ همزة الاستفهام وهو (أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)،

١: تفسير ابن الجوزي (٤ / ٤٦٨).

وقولهم (سُبْحَانَكَ) كلمة تنزيه كني بها عن التعجب من قول فظيع، و (سُبْحَانَكَ) تعظيم لله تعالى في مقام الاعتزاف نهم ينزهون عن أن يدَّعُوا لأنفسهم مشاركته في الإلهية، ووصف العباد هنا تسجيل على المشركين لعبودية وتعريض بكفرانهم حقها.

والإشارة إليهم لتمييزهم من بين بقية العباد.

وهذا أصل في أداء الشهادة على عين المشهود عليه لدى القاضي" -كما يقول صاحب التحرير والتنوير-[1].

ثم يقول: "وإسناد القول إلى ما يعبدون من دون يقتضي أن يجعل في الأصنام نطقا يسمعه عبدتها، أما غير الأصنام ممن عبد من العقلاء فالقول فيهم ظاهر.

(مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا) لا يمكن لنا اتخاذ أولياء، أي عبادا،وهو هنا كناية عن انتفاء طلبهم هذا الاتخاذ انتفاء شديدا، أي نتبرأ من ذلك، لأن نفي"كان "وجعل المطلوب نفيه خبرا عن" كان "أقوى في النفي ولذلك يسمى جحودا، والخبر مستعمل في لازم فائدته، أي نعلم أنه لا ينبغي لنا فكيف نحاوله.

والأولياء :جمع الولي بمعنى التابع في الولاء فإن الولي يرادف المولى فيصدق على كلا طرفي الولاء، أي على السيد والعبد، أو الناصر والمنصور، والمراد هنا :الولي التابع كما في قوله (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً) في سورة مريم، أي لا نطلب من الناس أن يكونوا عابدين لنا.

والاستدراك الذي أفاده" لكن " شئ عن التبرؤ من أن يكونوا هم المضلين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلا يتوهم أن تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين، والمقصود لاستدراك ما بعد" حتى "وهو (نَسُوا الذِّكْرَ) وأما ما قبلها فقد أدمج بين حرف الاستدراك ومدخوله ما يسجل عليهم فظاعة ضلالهم نهم قابلوا رحمة

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٧) .

ونعمته عليهم وعلى آ ئهم لكفران، فالخبر عن نه متع الضالين وآ ءهم مستعمل في الثناء على بسعة الرحمة، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة لكفران غضبا عليهم.

وجعل نسياهم الذكر غاية للتمتع للإيماء إلى أن ذلك التمتع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم.

والتعرض إلى تمتيع آ ئهم هنا مع أن نسيان الذكر إنما حصل من المشركين الذين بلغتهم الدعوة المحمدية ونسوا الذكر، أي القرآن، هو ز دة تعظيم نعمة التمتيع عليهم نها نعمة متأثلة تليدة، مع الإشارة إلى أن كفران النعمة قد انجر لهم من آ ئهم الذين سنوا لهم عبادة الأصنام، ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى عليه وسلم.

وبهذا يظهر أن ضمير (نَسُوا) وضمير (كَانُوا) عائدان إلى الظالمين المكذبين لإسلام دون آ ئهم لأن الآ ء لم يسمعوا الذكر، والنسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة لأنه إعراض يشبه النسيان في كونه عن غير مل ولا بصيرة"[١].

ويضيف ابن عاشور قائلا: "وقد استعير البوار لشدة سوء الحالة بناء على العرف الذي يعد الهلاك آخر ما يبلغ إليه الحي من سوء الحال كما قال تعالى (يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ) أي سوء حالهم في نفس الأمر وهم عنه غافلون.

واجتلاب فعل" كان "وبناء (بُوراً) على (قَوْماً) دون أن يقال :حتى نسوا الذكر و روا للدلالة على تمكن البوار منهم بما تقتضيه" كان "من تمكن معنى الخبر، وما يقتضيه "قوما "من كون البوار من مكو ت قوميتهم.

١: التحرير والتنوير: (١٩ / ٢٨).

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ)، الفاء فصيحة، أي إفصاح عن حجة بعد تهيئة ما يقتضيها، وهو إفصاح رائع وزاده الالتفات في قوله (كَذَّبُوكُمْ).

وفي الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام، والتقدير :إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم، وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا .

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ)الجملة مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ) بعد قوله (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)،

جملة (بما تقولون) الباء إما أن تكون ظرفية أي كذبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون، وإما سببية، أي كذبوكم بسبب ما تقولون.

و"ما "موصولة .والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.

وفرع على الإعلان بتكذيبهم إ هم ييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفا، أي صرف ضر عنهم، ولا نصرا، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم . ووجه التفريع ما دل عليه قولهم (سُبْحَانَكَ) الذي يقتضي أنهم في موقف العبودية والخضوع .

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَا ً كَبِيراً)،

تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب (مِنْكُمْ) لجميع المكلفين . ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث عنهم معذبون عذا كبيرا :والعذاب الكبير هو عذاب جهنم[1].

(قالوا سبحانك)

قال السعدي: "نزهوا عن شرك المشركين به وبرؤوا أنفسهم من ذلك، (مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا) أي :لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك متبرئين من عبادة غيرك، فكيف مر أحدا بعبادتنا؟ هذا لا يكون أو، سبحانك عن (أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) وهذا كقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام :(وَإِذْ قَالَ ا ّ ُ َ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ ا ّ ِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا ا ّ َ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) الآية.

وقال تعالى :(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) وقوله(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير أو يكونوا أضلوهم ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا : (وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآ َ ءَهُمْ) في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية، (حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ) اشتغالا في لذات الدنيا وإكبا على شهواتها، فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم (وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا) أي : ئرين لا خير فيهم ولا يصلحون لصالح لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى وهو التمتع في الدنيا الذي صرفهم عن الهدى،

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٩).

وعدم المقتضي للهدى وهو أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي ووجد المانع فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم قال توبيخا وتقريعا للعابدين (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم فحق عليكم العذاب، (فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا) للعذاب عنكم بفعلكم أو بفداء أو غير ذلك، (وَلا نَصْرًا) لعجزكم وانعدام صركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين كما رأيت أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه فقال في حقه :(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ) بنزك الحق ظلما وعنادا (نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا) لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره)"[١].

وقال صاحب الظلال: "ثم يمضي مستطردا يعرض مشهدا آخر من مشاهد الساعة التي كذب بها المكذبون .مشهد أولئك المشركين، وقد حشروا مع آلهتهم التي كانوا يزعمون، ووقف الجميع عبادا ومعبودين أمام الد ن يسألون ويجيبون !(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ا ّ ِ) وما يعبدون من دون ا ّ قد يكونون هم الأصنام .وقد يكونون هم الملائكة والجن، وكل معبود من دون ا ّ ، وإن ا ّ ليعلم، ولكن الاستجواب هكذا في الساحة الكبرى، وهم محشورون أجمعين، فيه تشهير و نيب، وهو ذاته عذاب مرهوب! والجواب هو الإ بة من هؤلاء الآلهة الإ بة ّ الواحد القهار.

وتنزيهه عن ذلك الافنزاء، والتبرؤ لا من ادعاء الألوهية، ولكن من مجرد أن يتخذوا لهم أولياء من دون ا ّ ، والزراية على أولئك الجاحدين الجهال ..(قالُوا سُبْحانَكَ !ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ)، فهذا المتاع الطويل الموروث – على غير معرفة بواهب النعمة ولا توجه ولا شكر– قد ألهاهم وأنساهم ذكر المنعم، فانتهت قلوبهم إلى

١: تفسير السعدي (١ / ٥٨٠).

الجدب والبوار، كالأرض البور لا حياة فيها ولا زرع ولا ثمار، والبوار الهلاك، ولكن اللفظ يوحي كذلك لجدب والخواء، جدب القلوب، وخواء الحياة.

عندئذ يتوجه إلى أولئك العباد الجهال لخطاب المخزي المهين: (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ .فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً)، لا صرف العذاب ولا الانتصار.

وبينما المشهد في الآخرة يوم الحشر، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين وهم بعد في الأرض:

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ: نُذِقْهُ عَذا ً كَبِيراً)

ذلك على طريقة القرآن في لمس القلوب في اللحظة التي تتهيأ فيها للاستجابة وهي متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب"[١]

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ).

قال الشعرواي: "يعني يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال في مكان واحد معاً، لماذا؟ لأن العابد إذا وجد نفسه في العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل في النجاة .

على أن قول كلمة (عِبَادِي)، العبد يعني أنه خاضع لأمر السيد، وليس له تصرُّف من ذاته، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق عبيد؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته.

لذلك نقول للذين أَلِفُوا مخالفة أوامر والتمرد عليه سبحانه: قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه.

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٥٥٦).

إذن: لكم جَرْأة على المخالفة وإلْف للتمرد، وما دام لك دُرْبة على ذلك، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول: لن أمرض وتتمرّد على الموت فلا تموت، لكن هيهات، فهذه مسائل، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه، المؤمن والكافر، والطائع والعاصي.

وهناك أمور أخرى جعلها لاختيار، فالذين سبقتْ لهم من الحسنى، وأُلْهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده، فيكونون عبيداً لله في كل الأمور القهر ت وغير القهر ت، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله.

فالعباد إذن يشترِكون مع العبيد في القهر ت، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم، وعن اختيارهم لاختياره عَزَّ وجلَّ؛ لذلك سمّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون؛ لأن الكلام في الآخرة، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار، الاختيار كان في الدنيا وعليه ميَّز بين العبيد والعباد، أما في الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد، فقد زال ما يُمَيِّزهم؛ لأنهم جمعياً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم"[١].

١: تفسير الشعراوي (١ / ٦٤٠٥).

النموذج السابع:

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} القصص٦٣.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم ينادي عز وجل الذين أشركوا به الأولياء والأو ن في الدنيا فيقول لهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون أنهم لي شركاء ؟ قال الذين حق عليهم العذاب وهم دعاة الكفر ربنا هؤلاء الذين أضللنا أضللناهم كما ضللنا تبرأ إليك من ولايتهم ونصرهم ما كانوا إ يعبدون وإنما كانوا يعبدون الشياطين، وقيل للمشركين لله يوم القيامة ادعوا شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دون فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وعاينوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق لما عذبوا . اهـ

التفسير التفصيلي:

قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ).

قال القرطبي: "أي ينادي يوم القيامة هؤلاء المشركين (فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ) بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم .(قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء، قاله الكلبي، أو الشياطين قاله قتادة (رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا) أي دعو هم إلى الغي .فقيل لهم :أغويتموهم؟ قالوا :(أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا) يعنون أضللناهم كما كنا ضالين .(تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ) أي تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرءون

ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرءون ممن قبل منهم، كما قال تعالى ":الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ"[١].

قوله تعالى (وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ)

قال ابن عاشور رحمه : "(ويوم) منصوب بفعل مقدر بعد واو العطف بتقدير : اذكر، أو بتقدير فعل دل عليه معنى النداء .واستفهام التوبيخ من حصول أمر فظيع، تقديره :يوم يناديهم يكون ما لا يوصف من الرعب.

والاستفهام بكلمة (أَيْنَ) ظاهره استفهام عن المكان الذي يوجد فيه الشركاء، ولكنه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذ، فالاستفهام مستعمل في الانتفاء.

(قال الذين حق عليهم القول)جردت الجملة عن حرف العطف لأنها وقعت في موقع المحاورة فهي جواب عن قوله تعالى (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)،

قوله (حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) إما أن يكون حق بمعنى تحقق وثبت ويكون القول قولا معهودا وهو ما عهد للمسلمين، قوله تعالى و(حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) فالذين حق عليهم القول هم الذين حل الإ ن الذي يحق عليهم فيه هذا القول .والمعنى :أن أجأهم إلى الاعتراف نهم أضلوا الضالين وأغووهم.

وإما أن يكون (حَقَّ) بمعنى وجب وتعين، أي حق عليهم الجواب لأنهم علموا أن قوله تعالى (فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) موجه إليهم فلم يكن لهم بد من إجابة ذلك السؤال، ويكون المراد لقول جنس القول، أي الكلام الذي يقال في ذلك المقام وهو الجواب عن الاستفهام بقوله (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وعلى كلا

١: تفسير القرطبي (١٣ / ٣٠٣).

الاحتمالين فالذين حق عليهم القول هم أئمة الكفر كما يقتضيه قوله تعالى (هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) -كما يقول صاحب التحرير- [١] .

قوله (قال الذين حق عليهم القول) أي الذين كانوا أحرى ن يجيبوا لعلمهم ن تبعة المسؤول عنه واقعة عليهم لأنه لما وجه التوبيخ إلى جملتهم تعين أن يتصدى للجواب الفريق الذين ثبَّتُوا العَامَّةَ على الشرك وأضلوا الدهماء .

وابتدأوا جوابهم بتوجيه النداء إلى بعنوان أنه ربهم، نداء أريد منه الاستعطاف نه الذي خلقهم اعترافا منهم لعبودية وتمهيدا للتنصل من أن يكونوا هم المخترعين لدين الشرك فإنهم إنما تلقوه عن غيرهم من سلفهم، والإشارة بـ (هَؤُلاءِ) إلى بقية المنادين معهم قصدا لأن يتميزوا عمن سواهم من أهل الموقف وذلك لهام من ليزدادوا رعبا، وأن يكون لهم مطمع في التخليص .و (الَّذِينَ أَغْوَيْنَا(خبر عن اسم الإشارة وهو اعتراف نهم أغووهم.

وجملة)أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا(استئناف بياني لجملة)الَّذِينَ أَغْوَيْنَا(لأن اعترافهم نهم أغووهم يثير سؤال سائل متعجب كيف يعترفون بمثل هذا الجرم فأرادوا بيان الباعث لهم على إغواء إخوانهم وهو أنهم بثوا في عامة أتباعهم الغواية المستقرة في نفوسهم وظنوا أن ذلك الاعتراف يخفف عنهم من العذاب بقرينة قولهم)تَبَرَّأْ َ إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِ َّ َيَعْبُدُونَ)

وإنما لم يقتصر على جملة (أَغْوَيْنَاهُمْ) ن يقال :هؤلاء الذين أغويناهم كما غوينا، لقصد الاهتمام بذكر هذا الإغواء بتأكيده اللفظي، و جماله في المرة الأولى وتفصيله في المرة الثانية.

و (كَمَا غَوَيْنَا) الكاف صفة لمصدر، أي إغواء يوقع في نفوسهم غيا مثل الغي الذي في قلوبنا، ووجه الشبه في أنهم تلقوا الغواية من غيرهم فأفاد التشبيه أن المجيبين

١: التحرير والتنوير

أغواهم مغوون قبلهم، وهم يحسبون هذا الجواب يدفع التبعة عنهم ويتوهمون أن السير على قدم الغاوين يبرر الغواية، وهذا كما حكى عنهم في سورة الشعراء :(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ˝ ˝ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

وجملة (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) —كما يقول صاحب التحرير- استئنافٌ، والتبرؤ : تفعل من البراءة وهي انتفاء ما يصم، فالتبرؤ :معالجة إثبات البراءة وتحقيقها، فالمعنى هنا تحقق التبرؤ لديك، والمتبرأ منه هو مضمون جملة (مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) فهي بيان لإجمال التبرؤ.

والمقصود :أنهم يتبرأون من أن يكونوا هم المزعوم أنهم شركاء وإنما قصارى أمرهم أنهم مضلون وكان هذا المقصد إلجاء من إ هم ليعلنوا تنصلهم من ادعاء أنهم شركاء على رؤوس الملأ، و حملهم على ذلك ما يشاهدون من فظاعة عذاب كل من ادعى المشركون له الإلهية طلا لما سمعوا قوله تعالى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)،

وتقديم (إِيَّانَا) على (يَعْبُدُونَ) دون أن يقال يعبدوننا للاهتمام بهذا التبرؤ مع الرعاية على الفاصلة"[1].

يقول صاحب الظلال: "(ويوم يناديهم فيقول أين شركائي)، السؤال للتوبيخ والتأنيب ..(أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)؟ والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئا، ولا يستطيعون إليهم سبيلا، ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد.

ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال، فليس المقصود به هو الجواب !إنما يحاولون أن يتبرؤوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم، وصدهم عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم، فيقولون (رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْ

١: التحرير والتنوير (٢٠ / ٩١).

إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّـ ـيَعْبُدُونَ) ربنا إننا لم نغوهم قسرا، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار، كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار . (تَبَرَّأْ إِلَيْكَ) من جريمة إغوائهم .(ما كانُوا إِيَّـ ـيَعْبُدُونَ) إنما كانوا يعبدون أصناما وأو وخلقا من خلقك، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة، ولم يتوجهوا إلينا نحن لعبادة"[1]

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٧٠٦).

النموذج الثامن:

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)) }

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ولو ترى - أيها الرسول — إذ الظالمون محبوسون عند ربهم للحساب يتراجعون الكلام فيما بينهم كل يلقي لعتاب على الآخر لرأيت شيئا فظيعا يقول المستضعفون للذين استكبروا- وهم القادة والرؤساء الضالون المضلون -لولا أنتم أضللتمو عن الهدى لكنا مؤمنين لله ورسوله، قال الرؤساء للذين استُضعفوا: أنحن منعناكم من الهدى ؟ بل كنتم مجرمين إذ دخلتم في الكفر رادتكم مختارين وقال المستضعفون لرؤسائهم في الضلال بل تدبيركم الشر لنا في الليل والنهار هو الذي أوقعنا في التهلكة فكنتم تطلبون منا أن نكفر لله ونجعل له شركاء في العبادة وأسر كل من الفريقين الحسرة حين رأوا العذاب الذي أعد لهم وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا لا يعاقبون بهذا العقاب إلا بسبب كفرهم لله وعملهم السيئات في الدنيا، وفي الآ ت تحذير شديد من متابعة دعاة الضلال وأئمة الطغيان.اهـ

التفسير التفصيلي:

قال القشيري: "لو رأيتهم يومذاك لرأيتَ منظراً فظيعاً؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القولَ، ويُحيل بعضهم على بعضٍ الجُرْمَ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أَنتم

أضللتمو ، ويُنكرُ الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمو ... وهكذا أصحابُ الزلاتِ الأخلاءُ في الفساد، قال تعالى: (بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) وكذلك الجوارحُ والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض؛ فاليد تقول للجملة أخذت، والعين تقول أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة، ومَنْ عمل لمعاصي أخرج عليه كل من هو أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لاعتبروا، ولو اعتبروا لتابوا ووفّقُوا،(ولكن ليقضي ا ٱلَّهُ أَمْراً كان مفعولاً)[1].

(ولو ترى) .

قال ابن عاشور " لكل من يصلح لتلقي الخطاب ممن تبلغه هذه الآية أي ولو يرى الرائي هذا الوقت وجواب (لو) محذوف للتهويل وهو حذف شائع، وتقديره لرأيت أمرا عجبا، وإذ ظرف متعلق بفعل ترى، أي لو ترى في الزمان الذي يوقف فيه الظالمون بين يدي ربهم.

الظالمون :المشركون، قال تعالى :(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وقد وقع التصريح نه إيقاف جمع بين المشركين والذين دعوهم إلى الإشراك في قوله تعالى :(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ).

والإتيان لجملة التي أضيف إليها الظرف اسمية هنا لإفادة طول وقوفهم بين يدي طولا يستوجب الضجر ويملأ القلوب رعبا وهو ما أشار له حديث أنس وحديث أبي

١: تفسير القشيري (٦ / ٣٠٢).

هريرة في شفاعة النبي صلى عليه وسلم لأهل المحشر: (تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرها فيقولون :لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا)[١].

(موقوفون عند ربهم) أي محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم للوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين. وجملة :(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) في موضع الحال إما من كلمة (الظَّالِمُونَ) أو من ضمير (مَوْقُوفُونَ) وجيء لمضارع في قوله :(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) لاستحضار الحالة ورجْع القول : الجواب، ورجع البعض إلى البعض :المجاوبة والمحاورة .وهي أن يقول بعضهم كلاما ويجيبه الآخر عنه وهكذا؛ شبه الجواب عن القول رجاع القول كأن المجيب أرجع إلى المتكلم كلامه بعينه ومنه قيل للجواب :رد .ورجْع الرشق في الرمي :ما ترد عليه من النزاشق.

(يقول الذين استضعفوا) هذه الجملة وما ذكر بعدها من الجمل المحكية فعال القول بيان لجملة (يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) وجيء لمضارع فيها على نحو ماجيء في قوله :(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) ليكون البيان كالمبيّن بها لاستحضار حالة القول لأنها حالة غريبة لما فيها من جرأة المستضعفين على المستكبرين ومن تنبه هؤلاء من غفلتهم عما كان المستكبرون يغرونهم به حتى أوقعهم في هذا المأزق.

والسين والتاء في (اسْتُضْعِفُوا) للعد والحسبان، أي الذين يعدهم الناس ضعفاء لا يؤبه بهم وإنما يعدهم الناس كذلك لأنهم كذلك ويعلم أنهم يستضعفون أنفسهم لأولى لأنهم أعلم بما في أنفسهم". [٢]

ثم يقول: "والضعف هنا الضعف المجازي وهو حالة الاحتجاج في المهام إلى من يضطلع بشؤونهم ويذب عنهم ويصرفهم كيف يشاء.

١: صحيح البخاري (٦٥٦٥).

٢: التحرير والتنوير (٢٢ / ٦٩).

ومن مشمولاته الضعة والضراعة ولذلك قوبل بـ"الذين استكبروا"، أي عدوا أنفسهم كبراء وهم ما عدوا أنفسهم كبراء إلا لما يقتضي استكبارهم لأنهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا لغرور والإعجاب الكاذب .ولهذا عبر في جانب الذين استضعفوا لفعل المبني للمجهول وفي جانب الذين استكبروا لفعل المبني للمعلوم"[١].

(لولا أنتم لكنا مؤمنين).

قال السعدي رحمه "ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفران، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم"[٢]

ويقول ابن عاشور: "وقد جاء في هذه الآية ربط التعليق بضمير" الذين استكبروا " فاقتضى أن جميع أحوال المستكبرين كانت تدندن حول منعهم من الإيمان فكأن وجودهم لا أثر له إلا في ذلك من انقطاعهم للسعي في ذلك المنع وهو ما دل عليه قولهم فيما بعد (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ) من فرط إلحاحهم عليهم بذلك وتكريره في معظم الأوقات، فكأنه استغرق وجودهم فكان قولهم هنا (لَوْلا أَنْتُمْ) مبالغة في شدة حرصهم على كفرهم، وهذا وجه وجيه في الاعتبار البلاغي فمقتضى الحال من هذه الآية هو حذف المشبه، واعلم أن المراد بقولهم :(مُؤْمِنِينَ) لمعنى اللقبي الذي اشتهر به المسلمون.

ثم يقول: وجُرِّد فعل (قَالَ) عن العاطف لأنه جاء على طريقة المحاوبة والشأن فيه حكاية القول بدون عطف وهمزة الاستفهام مستعملة في الإنكار على قول المستضعفين تبرؤا منهم، وهذا الإنكار بهتان وإنكار للواقع بعثه فيهم خوف إلقاء التبعة عليهم وفرط

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٦٩) .

٢: تفسير السعدي (١ / ٦٨٠).

الغضب والحسرة من انتقاض اتباعهم عليهم وزوال حرمتهم بينهم فلم يتمالكوا أن لا يكذبوهم ويذيلوا بتوريطهم.

قوله :(بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) أي ثبت لكم الإجرام من قبل وإجرامكم هو الذي صدكم إذ لم تكونوا على مقاربة الإيمان فنصدكم عنه ولكنكم صددتم وأعرضتم جرامكم ولم تقبلوا دعوة الإيمان.

وحاصل المعنى :أن حالنا وحالكم سواء، كل فريق يتحمل تبعة أعماله فإن كلا الفريقين كان معرضا عن الإيمان، وهذا الاستدلال مكابرة منهم وبهتان وسفسطة فإنهم كانوا يصدون الدهماء عن الدين ويختلقون لهم المعاذير، وإنما نفوا هنا أن يكونوا محولين لهم عن الإيمان بعد تقلده وليس ذلك هو المدعى، فموقع السفسطة هو قولهم :(بَعْدَ إِذْجَاءَكُمْ) لأن المجيء فيه مستعمل في معنى الاقتراب منه والمخالطة له"[1] .

قوله :(إِذْ جَاءَكُمْ)إذ: مجردة عن معنى الظرفية ومحضة لكونها اسم زمان غير ظرف ولهذا صحت إضافة (بَعْدَ) إليها لأن الإضافة قرينة على تجريد (إِذْ) من معنى الظرفية إلى مطلق الزمان مثل قولهم :حينئذ ويومئذ، والتقدير :بعد زمن مجيئهم إ كم .و (بَلْ) إضراب إبطال عن الأمر الذي دخل عليه الاستفهام الإنكاري، أي ما صدد كم بل كنتم مجرمين.

والإجرام :الشرك وهو مؤذن بتعمدهم إ ه وتصميمهم عليه على بصيرة من أنفسهم دون تسويل مسول.

(وقال الذين استضعفوا) لم تجر حكاية هذا القول على طريقة حكاية المقاولات والمحاورات التي تحكي بدون عطف فجيء بحرف العطف في حكاية هذه المقالة مع أن المستضعفين جاوبوا بها قول الذين استكبروا (أَنَحْنُ صَدَدْ َكُمْ) الآية لنكتة دقيقة، وهي

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٧١) .

التنبيه على أن مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله :(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) تنبيها على أن مقالتهم تلقفها الذين استكبروا فابتدروها لجواب بحيث لو انتظروا تمام كلامهم وأبلغوهم ريقهم لحصل ما فيه إبطال كلامهم ولكنهم قاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون .

وحكي قولهم هذا بفعل المضي لمزاوجة كلام الذين استكبروا لأن قول الذين استضعفوا هذا بعد أن كان تكملة لقولهم الذي قاطعه المستكبرون، انقلب جوا عن تبرؤ المستكبرين من أن يكونوا صدوا المستضعفين عن الهدى، فصار لقول المستضعفين موقعان يقتضي أحد الموقعين عطفه لواو، ويقتضي الموقع الآخر قرنه بحرف (بَلْ) وبز دة (مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) "[1]

والمكر كما يقول القرطبي "أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة، وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكار"[2]

ويقول ابن عاشور: "وإطلاق المكر على تسويلهم على البقاء على الشرك عتبار أنهم يموهون عليهم ويوهمونهم أشياء كقولهم :إنه دين آ ئكم، وكيف تؤمنون غضب الآلهة عليكم إذا تركتم دينكم ونحو ذلك، والاحتيال لا يقتضي أن المحتال غير مستحسن الفعل الذي يحتال لتحصيله، والمعنى :ملازمتهم المكر ليلا ونهارا، وهو كناية عن دوام الإلحاح عليهم في التمسك لشرك.

و (إِذْ ـمُرُونَنَا) ظرف لما في (مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) من معنى" صدّ "أي حين مروننا أن نكفر لله.

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٧٢).

٢: تفسير القرطبي (١٤ / ٣٠٢).

والأنداد :جمع ند، وهو المماثل، أي نجعل لله أمثالا ونظراء في الإلهية، وهذا تطاول من المستضعفين على المستكبرين حين علموا كذبهم وبهتانهم.

وضمير واو الجماعة من كلمة (أسروا) عائد إلى جميع المذكور قبلُ، وهم الذين استضعفوا والذين استكبروا، والمعنى :أنهم كشف لهم عن العذاب المعد لهم، وذلك عقب المحاورة التي جرت بينهم، فعلموا أن ذلك التزامي الواقع بينهم لم يغن عن أحد من الفريقين شيئا، فحينئذ أيقنوا لخيبة وندموا على ما فات منهم في الحياة الدنيا وأسروا الندامة في أنفسهم، وكأنهم أسروا الندامة استبقاء للطمع في صرف ذلك عنهم أو اتقاء للفضيحة بين أهل الموقف،وقد أعلنوا بها في مواقف أخرى كما في قوله تعالى :(قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) في سورة الأنعام، وقوله :(لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) في سورة الزمر.

والندامة :التحسر من عمل فات تداركه.

و (الأَغْلاَلَ): جمع غُلّ بضم الغين، وهو دائرة من حديد أو جلد على سعة الرقبة توضع في رقبة المأسور ونحوه ويشد إليها بسلسلة أو سير من جلد أو حبل،

وجعل الأغلال في الأعناق شعار على أنهم يساقون إلى ما يحاولون الفرار والانفلات منه، و (الَّذِينَ كَفَرُوا) هم هؤلاء الذين جرت عليهم الضمائر المتقدمة فالإتيان لاسم الظاهر وكونه موصولا للإيماء إلى أن ذلك جزاء الكفر،والاستفهام ب (هَلْ) مستعمل في الإنكار عتبار ما يعقبه من الاستثناء، و المعنى :هل جزوا بغير ما كانوا يعملون، والاستثناء مفرغ.

وجعل جزاءهم ما كانوا يعملون على معنى التشبيه البليغ، أي مثل ما كانوا يعملون، وهذه المماثلة كناية عن المعادلة فيما يجاوزونه بمساواة الجزاء للأعمال التي جوزا عليها حتى كأنه نفسها كقوله تعالى :(جَزَاءً وِفَاقاً) [١]

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ)

قال صاحب الظلال: "ذلك كان قولهم في الدنيا: (لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) فلو ترى قولهم في موقف آخر،

لو ترى هؤلاء الظالمين وهم (مَوْقُوفُونَ) على غير إرادة منهم ولا اختيار إنما هم مذنبون لوقوف في انتظار الجزاء (عِنْدَ رَبِّهِمْ) ربهم الذي يجزمون نهم لن يؤمنوا بقوله وكتبه .ثم ها هم أولاء موقوفون عنده !لو ترى يومئذ لرأيت هؤلاء الظالمين يلوم بعضهم بعضا، ويؤنب بعضهم بعضا، ويلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض: (يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) فماذا يرجعون من القول؟ (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) فيلقون على الذين استكبروا تبعة الوقفة المرهوبة المهينة، وما يتوقعون بعدها من البلاء! يقولون لهم هذه القولة الجاهرة اليوم ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة، كان يمنعهم الذل والضعف والاستسلام، وبيع الحرية التي وهبها ا" لهم، والكرامة التي منحها إ هم، والإدراك الذي أنعم به عليهم.

أما اليوم وقد سقطت القيم الزائفة، وواجهوا العذاب الأليم، فهم يقولونها غير خائفين ولا مبقين !(لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) ويضيق الذين استكبروا لذين استضعفوا، فهم في البلاء سواء، وهؤلاء الضعفاء يريدون أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء !وعندئذ يردون عليهم ستنكار، ويجبهونهم لسب الغليظ:

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٧٤).

(قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا: أَنَحْنُ صَدَدْ كُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) فهو التخلي عن التبعة، والإقرار لهدى، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وز للمستضعفين ولا خذون منهم رأ ، ولا يعتبرون لهم وجودا، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة !أما اليوم – وأما العذاب – فهم يسألونهم في إنكار: (أَنَحْنُ صَدَدْ كُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) من ذات أنفسكم، لا تهتدون، لأنكم مجرمون ! ولو كانوا في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة، ولكنهم في الآخرة حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة، ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهارا ولا ليلا للصد عن الهدى وللتمكين للباطل، ولتلبيس الحق، وللأمر لمنكر، ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء:

(وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، إِذْ ـْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ ـِ ـّ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً)

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء، ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين.

فلكل جريمته وإثمه، المستكبرون عليهم وزرهم، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم، والمستضعفون عليهم وزرهم، فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين، لقد كرمهم ا ـّ لإدراك والحرية، فعطلوا الإدراك و عوا الحرية ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولا وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين، فاستحقوا العذاب جميعا وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضرا لهم مهيأ:

(وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ)

وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور، فلا تفوه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه.

ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد:

(وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا)

ثم يلتفت السياق يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال، مهملا خطابهم إلى خطاب المتفرجين !(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ)

ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين، وكلاهما ظالم، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان، وإدراك الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان، وكلهم في العذاب سواء، لا يجزون إلا ما كانوا يعملون"[١]

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٩٠٨).

النموذج التاسع:

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)) } سبأ ٤٠-٤٢

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: واذكر أيها الرسول- يوم يحشر المشركين والمعبودين من دونه من الملائكة، ثم يقول للملائكة- على وجه التوبيخ لمن عبدهم :-أهؤلاء إ كم كانوا يعبدون من دوننا ؟

قالت الملائكة: ننزهك الله عن أن يكون لك شريك في العبادة، أنت ولينا الذي نطيعه ونعبده وحده، بل كان هؤلاء يعبدون الشياطين، أكثرهم بهم مصدقون ومطيعون.

ففي يوم الحشر لا يملك المعبودون للعابدين نفعا ولا ضرا، ونقول للذين ظلموا أنفسهم لشرك والمعاصي: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون.

التفسير التفصيلي:

(ويوم يحشرهم جميعا)

يقول ابن عاشور: "إن جملة (يحشرهم) عطف على جملة (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) السالفة، استكمالاً لتصوير فظاعة حالهم يوم الوعد الذي أنكروه تبعا لما وصف من حال مراجعة المستكبرين منهم والمستضعفين، فوصف هنا افتضاحهم بتبرؤ الملائكة منهم وشهادتهم عليهم نهم يعبدون الجن.

والمقصد من هذه الآية إبطال قولهم في الملائكة إنهم بنات ، وقولهم :(لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْ َ هُمْ) كانوا يخلطون بين الملائكة والجن ويجعلون بينهم نسبا فكانوا يقولون : الملائكة بنات من سروات الجن.

والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية من هو دونهم ممن عبد من دون بدلالة الفحوى، أي بطريق الأولى فإن ذلك التقرير من أجل ما جعل الحشر لأجله" [1].

ثم يقول ابن عاشور: "وتوجيه الخطاب إلى الملائكة بهذا الاستفهام مستعمل في التعريض لمشركين على طريقة المثل (إ ك أعني واسمعي جارة) .

والإشارةبـ (هَؤُلاَءِ) إلى فريق كانوا عبدوا الملائكة والجن ومن شايعهم على أقوالهم من بقية المشركين.

وحكي قول الملائكة بدون عاطف لوقوعه في المحاورة كما تقدم غير مرة ولذلك جيء فيه بصيغة الماضي لأن ذلك هو الغالب في الحكاية.

وجواب الملائكة يتضمن إقرارا، مع لتنزه عن لفظ كونهم معبودين كما يتنزه من يحكي كفر أحد فيقول قال :هو مشرك لله، وإنما القائل قال :أ مشرك لله.

فمورد التنزيه في قول الملائكة :(سُبْحَانَكَ) هو أن يكون غير مستحقا أن يعبد، مع لازم الفائدة وهو أنهم يعلمون ذلك فلا يرضون ن يكونوا معبودين.

والولي :الناصر والحليف والصديق، مشتق من الولْي مصدر وَلِيَ بوزن عَلِم وكلٌّ منْ فاعِل الوَلْيِ ومفعولِه وليٌّ، لأنَّ الوَلاية نسبةٌ تستدعي طرفين ولذلك كان الولي فعيلاً صالحا لمعنى فاعل ولمعنى مفعول .فيقع اسم الولي على الموالِي بكسر اللام وعلى الموالَى بفتحها.

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٨٤) .

قوله (أَنْتَ وَلِيُّنَا) بمعنى :لا نوالي غيرك،أي لا نرضى به وليا، والعبادة ولاية بين العابد والمعبود، ورضي المعبود بعبادة عابده إ ه ولاية بين المعبود وعابده، فيقول الملائكة : (سُبْحَانَكَ) تبرؤٌ من الرضى ن يعبدهم المشركون لأن الملائكة لما جعلوا أنفسهم موالين لله فقد كذبوا المشركين الذين زعموا لهم الإلهية، لأن العابد لا يكون معبودا .و (مِنْ) زائدة للتوكيد و"دُونِ "اسم لمعنى غير، أي أنت ولينا وهم ليسوا أولياء لنا ولا نرضى بهم لكفرهم (مِنْ دُونِهِمْ) كيد لما أفادته جملة :(أَنْتَ وَلِيُّنَا) من الحصر لتعريف الجزءين.[1]

و (بَلْ) للإضراب الانتقالي انتقالا من التبرؤ منهم إلى الشهادة عليهم وعلى الذين سولوا لهم عبادة غير تعالى، وليس إضراب إبطال- كما يقول ابن عاشور -لأن المشركين المتحدث عنهم كانوا يعبدون الملائكة، والمعنى بل كان أكثر هؤلاء يعبدون الجن وكان الجن راضين بعبادتهم إ هم، وحاصل المعنى، أ منكرون عبادتهم إ ولم مرهم بها ولكن الجن سولت لهم عبادة غير فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة.

وقرأ الجمهور: (نَحْشُرُهُمْ) و (نَقُولُ) بنون العظمة، وقرأ حفص عن عاصم بياء الغائب فيهما، والضمير عائد إلى الرَبِّ سبحانه وتعالى.

(فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً) .

ثم يقول ابن عاشور: الأظهر أن هذا من خطاب تعالى المشركين والجن، والفاء فصيحة شئة عن المقاولة السابقة، وهي كلام موجه من جانب تعالى إلى الملائكة والمقصود به :التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجن لأن الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر فلا تُقْصَدُ إفادتهم به "والمعنى: إذ علمتم أنكم عبدتم الجن فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا"[2].

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٨٥)

٢: التحرير والتنوير (٢٢ / ٨٥).

وقال صاحب الظلال: "فهؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون ا ّ ، أو يتخذونهم عنده شفعاء، هؤلاء هم يواجهون بهم، فيسبحون ا ّ تنزيها له من هذا الادعاء، ويتبرأون من عبادة القوم لهم، فكأنما هذه العبادة كانت طلا أصلا، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة، إنما هم يتولون الشيطان، إما بعبادته والتوجه إليه، وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون ا ّ ، وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان !

ذلك إلى أن عبادة الجن عرفت بين العرب وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن لعبادة أو الاستعانة: (بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)

وبينما المشهد معروض يتغير السياق من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة، ويوجه القول إليهم لتأنيب والتبكيت (فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا)

لا الملائكة يملكون للناس شيئا، ولا هؤلاء الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئا، والنار التي كذب بها الظالمون، وكانوا يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، ها هم أولاء يرونها واقعا لا شك فيه: (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا: ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ"(١)

ويقول السعدي رحمه : "(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا) أي :العابدين لغير ا ّ والمعبودين من دونه من الملائكة (ثُمَّ يَقُولُ) (لِلْمَلائِكَةِ) على وجه التوبيخ لمن عبدهم (أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون)

فتبرَّؤوا من عبادتهم و(قَالُوا سُبْحَانَكَ) أي :تنزيها لك وتقديسا، أن يكون لك شريك، أو ند (أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ) فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غير إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟

١: التحرير والتنوير (٥ / ٢٩١١).

ولكن هؤلاء المشركون (كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) أي :الشياطين، مرون بعبادتنا أو عبادة غير ، فيطيعوهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم، لأن العبادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

(أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) أي مصدقون للجن منقادون لهم لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

فلما تبرؤُوا منهم قال تعالى مخاطبا لهم (فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا) تقطعت بينكم الأسباب وانقطع بعضكم من بعض (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) لكفر والمعاصي – بعد ما ندخلهم النار – (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها"[١]

١: تفسير السعدي (١/ ٦٨١).

النموذج العاشر:

{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩)

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} غافر ٤٧-٤٩.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: وإذ يتخاصم أهل النار ويعاتب بعضهم بعضا فيحتج الأتباع المقلدون على رؤسائهم المستكبرين الذين أضلوهم وزينوا لهم طريق الشقاء قائلين لهم: هل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار بتحملكم قسطا من عذابنا ؟ قال الرؤساء المستكبرون مبينين عجزهم لا نتحمل عنكم شيئا من عذاب النار، وكلنا فيها لا خلاص لنا منها، إن الله قد قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحق كل منا بقضائه العادل، وقال الذين في النار من المستكبرين والضعفاء لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما واحدا من العذاب كي تحصل لنا بعض الراحة، قال خزنة جهنم لهم توبيخا: هذا الدعاء لا ينفعكم في شيء أولم تأتكم رسلكم بالحجج الواضحة من الله فكذبتموهم ؟ فاعترف الجاحدون بذلك وقالوا بلى فتبرأ خزنة جهنم منهم وقالوا نحن لا ندعو لكم ولا نشفع فيكم فادعوا أنتم ولكن هذا الدعاء لا يغني شيئا لأنكم كافرون وما دعاء الكافرين إلا في ضياع لا يقبل ولا يستجاب اهـ

التفسير التفصيلي:

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ) .

قال القشيري :"يقول الضعفاء للذين استكبروا: أنتم أضللتمو ، ويقول لهم المستكبرون: أنتم وافقتمو ختياركم؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد في غيظ قلوبهم، فكملـ يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضِيقِ صدورهم وببُغْضِ بعضهم لبعض"[1] .

(وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا)

قال ابن عاشور:" (إذ): إما أن تكون معمولا لفعل محذوف تقديره اذكر، فتكون عطفا على جملة (وأنذرهم يوم الآزفة) في صدر السورة وإما أن تكون (وَإِذْ) عطفا على الجملة السابقة (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) لأن" إذ "و"يوم " كليهما ظرف بمعنى" حين"، فيكون المعنى :كما يقول ابن عاشور وحين تقوم الساعة يقال :أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وحين يتحاج أهل النار فيقول الضعفاء... الخ.

وقرن (فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ) لفاء لإفادة كون هذا القول شئا عن تحاجهم في النار مع كون ذلك دالا على أنه في معنى متعلق (إذ) "[2].

قال القرطبي: (يتحاجون) أي يختصمون فيها، (والذين استكبروا: أي استكبروا عن الانقياد للأنبياء"[3].

والتحاج كما يقول صاحب التحرير والتنوير: "الاحتجاج من جانبين فأكثر، أي إقامة كل فريق حجته وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاجين إذ الحجة يبد لدعوى لدفع الشك في صحتها.

والضعفاء :عامة الناس الذين لا تَصَرُّفَ لهم في أمور الأمة، والذين استكبروا :سادة القوم، أي الذين تكبروا كبرا شديدا، فالسين والتاء فيه للمبالغة"[4] .

١: تفسير القشيري (٧ / ٩٨).

٢: التحريرو التنوير (٢٤ / ٢١٠).

٣: تفسير القرطبي (١٥ / ٣٢١).

٤: التحرير والتنوير (٣٠ / ١٧٠).

ثم إن قول الضعفاء للكبراء هذا الكلام يحتمل -كما يقول ابن عاشور- أنَّه على حقيقته "فهو شئ عما اعتادوه من اللجإ إليهم في مهامهم حين كانوا في الدنيا فخالوا أنهم يتولون تدبير أمورهم في ذلك المكان ولهذا أجاب الذين استكبروا بما يفيد أنهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة فقالوا :(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) أي لو أغنينا عنكم لأغنينا عن أنفسنا.

وتقديم قولهم :(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) على طلب التخفيف عنهم من النار، مقدمة للطلب لقصد توجيهه وتعليله وتذكيرهم لولاء الذي بينهم في الدنيا، يلهمهم هذا القول لافتضاح عجز المستكبرين أن ينفعوا أتباعهم تحقيرا لهم جزاء على تعاظمهم الذي كانوا يتعاظمون به في الدنيا.

ويحتمل أن قول الضعفاء ليس مستعملا في حقيقة الحث على التخفيف عنهم ولكنه مستعمل في التوبيخ، أي كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أن صر في هذا العذاب فهل تستطيعون الدفع عنا.

و كيدُ (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) بـ"إنَّ "للاهتمام لخبر وليس لرد إنكار" [١].

ثم يقول: "والتبع :اسم لمن يتبع غيره، يستوي فيه الواحد والجمع، وهو مثل خدم وحشم لأن أصله مصدر، فلذلك استوى فيه الواحد والجمع، وقيل التبع :جمع لا يجري على الواحد، فهو إذن من الجموع النادرة.

والاستفهام في قوله :(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا) مستعمل في الحث واللوم على خذلانهم وترك الاهتمام بما هم فيه من عذاب.

وجيء لجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي هل من شأنكم أنكم مغنون عنا .

و(مُغْنُونَ) اسم فاعل من أغنى غناء بفتح الغين والمد، أي فائدة وإجزاء.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢١٠) .

والنصيب :الحظ والحصة من الشيء، قال تعالى :(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) إلى قوله :(نَصِيباً مَفْرُوضاً)

وقد ضُمِّنَ (مُغْنُونَ) معنى دافعون ورادون، فلذلك عدي إلى مفعول (نَصِيباً)، أي جزءًا من حر النار غير محدد المقدار من قوتها، و (مِنَ النَّارِ) بيان لـ كلمة (نَصِيباً) فهم قانعون بكل ما يخفف عنهم من شدة حر النار وغير طامعين في الخروج منها، ويحتمل أن يكون (مُغْنُونَ) على معناه دون تضمين ويكون (نَصِيباً) منصو على المفعول المطلق لمغنون والتقدير غناء نصيبا، أي غناء ما ولو قليلا.

ويحتمل أن يكون النصيب الجزء من أزمنة العذاب فيكون على حذف مضاف تقديره :من مدة النار(١).

ولما كان جواب الذين استكبروا للذين استضعفوا جار في مجرى المحاورة جرد فعل (قال) من حرف العطف على طريقة المحاورة كما تقدم معنا في آية سبأ.

ومعنى قولهم :(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) أي نحن وأنتم مستوون في الكون في النار فكيف تطمعون أن ندفع عنكم شيئا من العذاب، وإذا كان قول الضعفاء :(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) إلى آخره توبيخا ولوما لزعمائهم فيكون قول الزعماء :(إِنَّا كُلٌّ فِيهَا) اعترافا لغلط، أي دعوا لومنا وتوبيخنا فقد كفا أ معكم في النار، و كيد الكلام بـ"إِنَّ "للاهتمام بتحقيقه أو لتنزيل من طالبوهم لغناء عنهم من عذاب النار مع مشاهدتهم أنهم في العذاب مثلهم، منزلة من يحسبهم غير واقعين في النار، وفي هذا التنزيل ضرب من التوبيخ يقولون :ألستم ترونا في النار مثلكم فكيف نغني عنكم، و (كُلٌّ) مرفوع لابتداء وخبره

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢١١) .

(فيها) والجملة من المبتدإ وخبره خبر (إن)، وتنوينُ (كلٌّ) عوض عن اسم محذوف والتقدير إ كلنا فيها"[١] .

ثم يقول ابن عاشور: "وجملة (إِنَّ ا ّ َ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) تتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة (إ ّ كُلٌّ فِيهَا) فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيس من حصول التخفيف عنهم، والمعنى :نحن مستوون في العذاب وهو حكم فلا مطمع في التفصي من حكمه فقد جوزي كل فريق بما يستحق، وما في هذه الجملة الثانية من عموم تعلق فعل الحكم بين العباد ما يجعل هذا البدل بمنزلة التذييل، أي أن حكم بين العباد كلهم بجزاء أعمالهم فكان قسطنا من الحكم هذا العذاب، فكلمة (بَيْنَ) هنا مستعملة في معناها الحقيقي وهو المكان المتوسط، أي وقع حكمه وقضاؤه في مجمعهم الذي حضره من حكم عليه ومن حكم له ومن لم يتعرض للمحاكمة لأنه من أهل الكرامة لجنة،فليست كلمة" بين "هنا بمنزلة" بين "في قوله تعالى :(فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ا ّ ُ) فإنها في ذلك مستعملة في التفرقة بين المحق والمبطل، وكما يقول ابن عاشور فإن"في هذه الآية عبرة لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء نفسهم في مهاوي الخسران فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي فإن كان إقدامهم ومغامرتهم نفسهم وأممهم على علم بعواقب ذلك كانوا أحر ء لمذمة والخزي في الدنيا ومضاعفة العذاب في الآخرة، إذ ما كان لهم أن يغرروا قوام وكلوا أمورهم بقادتهم عن حسن ظن فيهم، أن يخونوا أمانتهم فيهم كما قال تعالى :(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ) وإن كان قحمهم أنفسهم في مضائق الزعامة عن جهل بعواقب قصورهم وتقصيرهم فإنهم ملومون على عدم التوثيق

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢١١) .

من كفاءهم لتدبير الأمة فيخبطوا ها خبط عشواء حتى يزلوا ها فيهووا ها من شواهق بعيدة فيصيروا رميما، ويلقوا في الآخرة جحيما"[١].

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "لما لم يجدوا مساغا للتخفيف من العذاب في جانب كبرائهم، وتنصل كبراؤهم من ذلك أو اعترفوا بغلطهم وتوريطهم قومهم وأنفسهم تمالأ الجميع على محاولة طلب تخفيف العذاب بدعوة من خزنة جهنم، فلذلك أسند القول إلى الذين في النار، أي جميعهم من الضعفاء والذين استكبروا.

وخزنة :جمع خازن، وهو الحافظ لما في المكان من مال أو عروض .و)خَزَنَةِ جَهَنَّمَ(هم الملائكة الموكلون بما تحويه من النار ووقودها والمعذبين فيها وموكلون بتسيير ما تحتوي عليه دار العذاب وأهلها ولذلك يقال لهم :خزنة النار، لأن الخزن لا يتعلق لنار بل بما تحويها ،

وفي إضافة" رب "إلى ضمير المخاطبين ضرب من الإغراء لدعاء، أي لأنكم أقرب إلى استجابته لكم، ولما ظنوهم أرجى للاستجابة سألوا التخفيف يوما من أزمنة العذاب وهو أنفع لهم من تخفيف قوة النار الذي سألوه من مستكبريهم.

وجزم فعل (يُخَفِّفْ) بعد الأمر لدعاء، ولعله بتقدير لام الأمر لكثرة الاستعمال، أومجزوم على أنه جواب الطلب لتحقيق التسبب، فيكون فيه إيذان ن الذين في النار واثقون ن خزنة جهنم إذا دعوا استجاب لهم، وهذا الجزم شائع بعد الأمر لقول وما في معناه لهذه النكتة[٢] .

وضمن (يُخَفِّفْ) معنى ينقص فنصب (يَوْماً) أو هو على تقدير مضاف، أي عذاب يوم، أي مقدار يوم، واليوم كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢١٢).

٢: التحرير والتنوير (٢٤ / ١١٣) .

وجَوابُ خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به: إظهار سوء صنيعهم نفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب، وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم ن الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب.

وهمزة الاستفهام مقدمة من التأخير على التقديرين، لوجوب صدارتها.

وجملة (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) يحتمل أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلا لكلامهم يبين أن قولهم فادعوا مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي دعاؤكم لم ينفعكم لأن دعاء الكافرين في ضلال والواو اعتراضية، ويحتمل أن تكون من كلام تعالى. [1]

والبينات :الحجج الواضحة والدعوات الصريحة إلى اتباع الهدى، فلم يسعهم إلا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم لبينات فقالوا: بلى، فرد عليهم خزنة جهنم لتنصل من أن يدعوا بذلك، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم بقولهم :(فادعوا) تفريعا على اعترافهم بمجيء الرسل إليهم لبينات.

ومعنى تفريعه عليه كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور هو أنه مفرع عليه عتبار معناه الكنائي الذي هو التنصل من أن يدعوا لهم، أي كما توليتم الإعراض عن الرسل استبدادا رائكم فتولوا اليوم أمر أنفسكم فادعوا أنتم، فإن" من تولى قرها يتولى حرها"، فالأمر في قوله :(فادعوا) فيه تنبيه على خطأ السائلين في سؤالهم.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢١٤) .

وز دة فعل الكون في قوله (أَوَلَمْ تَكُ ـَ ْتِيكُمْ) للدلالة على أن مجيء الرسل إلى الأمم أمر متقرر محقق، لما يدل عليه فعل الكون من الوجود بمعنى التحقق، وأما الدلالة على أن فعل الإتيان كان في الزمن الماضي فهو مستفاد من" لم"النافية في الماضي.

والضلال :الضياع، وأصله :خطأ الطريق، كما في قوله تعالى :(أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِ ّ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)، والمعنى: أن دعاءهم لا ينفعهم ولا يقبل منهم، وسواء أكان قوله : (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) من كلام الملائكة أو من كلام تعالى فهو مقتض عموم دعائهم، لأن المصدر المضاف من صيغ عموم الذوات يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة"[١]

(وإذ يتحاجون في النار)

ويقول صاحب الظلال: "أما في الآية التالية فقد كانت القيامة فعلا، والسياق يلتقط لهم موقفا في النار! وهم يتحاجون فيها:

(فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِ ّ كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ)؟

إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولا وإمعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنما تساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار! لقد منحهم ا ّ الكرامة، كرامة الإنسانية، وكرامة التبعة الفردية، وكرامة الاختيار والحرية، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا .تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية، لم يقولوا لهم: لا. بل لم يفكروا أن يقولوها. بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال. .(إِ ّ كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً)

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢١٥).

وما كان تنازلهم عما وهبهم ا ّ واتباعهم الكبراء ليكون شفيعا لهم عند ا ّ . فهم في النار. ساقهم إليها قادهم كما كانوا يسوقوهم في الحياة. سوق الشياه! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ) كما كانوا يوهموهم في الأرض أهم يقودوهم في طريق الرشاد، وأهم يحموهم من الفساد، وأهم يمنعوهم من الشر والضر وكيد الأعداء! فأما الذين استكبروا فيضيقون صدرا لذين استضعفوا، ويجيبوهم في ضيق وبرم وملالة .وفي إقرار بعد الاستكبار:

(قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِ ّ كُلٌّ فِيها إِنَّ ا ّ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ)

(إِ ّ كُلٌّ فِيها) إ كل ضعاف لا نجد صرا ولا معينا، إ كل في هذا الكرب والضيق سواء. فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء؟

(إِنَّ ا ّ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ) فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل. وقد قضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئا من حكم ا ّ .

وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ من ا ّ إلا إليه، اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع، وفي ضراعة تسوي هؤلاء بهؤلاء:

(وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ)

إهم يستشفعون حراس جهنم، ليدعوا رهم. في رجاء يكشف عن شدة البلاء: (ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ) .

يوما فقط. يوما يلقطون فيه أنفاسهم ويسنزيحون. فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة. فهم يعرفون الأصول. ويعرفون سنة ا ّ ، ويعرفون أن الأوان قد فات. وهم لهذا يزيدون المعذبين عذا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب:

(قالُوا: أَوَلَمْ تَكُ َتِيكُمْ رُسُلُكُمْ ِلْبَيِّناتِ؟. .قالُوا: بَلى)

وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار. وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار:

(قالُوا: فَادْعُوا)

إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئا، فتولوا أنتم الدعاء.

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء:

(وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ)

لا يبلغ، ولا يصل، ولا ينتهي إلى جواب، إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء[1] .

يقول السعدي: "يحتج التابعون غواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، (فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ) أي :الأتباع للقادة (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) على الحق، ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله .(إِ كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا) أنتم أغويتمو وأضللتمو وزينتم لنا الشرك والشر، (فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ) أي :ولو قليلا.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع :(إِ كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ا قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

(وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ) من المستكبرين والضعفاء (لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ) لعله تحصل بعض الراحة.

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣٠٨٥).

ـف (قَالُوا) لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا :(أَوَ لَمْ تَكُ ـَ ْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ ـِلْبَيِّنَاتِ) التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من وما يبعد منه؟

(قَالُولـبَلَى) قد جاءو لبينات، وقامت علينا حجة البالغة فظلمنا وعاند الحق بعد ما تبين .(قَالُوا) أي :الخزنة لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة :(فَادْعُوا) أنتم ولكن هذا الدعاء هل يغني شيئا أم لا؟

قال تعالى :(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ) أي : طل لا غ، لأن الكفر محبط لجميع الأعمال صادّ لإجابة الدعاء"[١]

١: تفسير السعدي (١ / ٧٣٩).

النموذج الحادي عشر:

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)} فصلت

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم ينادي تعالى المشركين يوم القيامة توبيخا لهم وإظهارا لكذبهم، أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتي ؟

قالوا أعلمناك الآن، ما منا من أحد يشهد اليوم أن معك شركاء.

وذهب عن هؤلاء المشركين شركاؤهم الذين كانوا يعبدون من دون ، فلم ينفعوهم، وأيقنوا ألا ملجأ لهم من عذاب ولا محيد عنه.

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشور: "ويوم متعلق بمحذوف شائع حذفه في القرآن الكريم، تقديره: اذكر يوم يناديهم والنداء كناية عن الخطاب العلني كقوله (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)

وجملة (أَيْنَ شُرَكَائِي) يصح أن تَكون مقول قول محذوف كما صرح به في آية أخرى (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ).

ويصح أن تكون مبينة لما تضمنه (يناديهم) من معنى الكلام المعلن به .وجاءت جملة (قَالُوا آذَنَّاكَ) غير معطوفة لأنها جارية على طريقة حكاية المحاورات[١] .

و (آذ ك) أخبر ك وأعلمناك. وأصل هذا الفعل مشتق من الاسم الجامد وهو الأذن بضم الهمزة وسكون الذال، قال تعالى (فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ).

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨٢).

وصيغة الماضي في (آذ ك) إنشاء فهو بمعنى الحال مثل :بعت وطلقت، أي ذنك ونقر نه ما منا من شهيد"[١].

ويضيف ابن عاشور: "والشهيد يجوز أن يكون بمعنى المشاهد، أي المبصر، أي ما أحد منا يرى الذين كنا ندعوهم شركاءك الآن، أي لا نرى واحدا من الأصنام التي كنا نعبدها فتكون جملة (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ) في موضع الحال، والواو واو الحال. ويحتمل أن يكون الشهيد بمعنى الشاهد، أي ما منا أحد يشهد أنهم شركاؤك، فيكون ذلك اعترافا بكذبهم فيما مضى، وتكون جملة (وَضَلَّ عَنْهُمْ) معطوفة على جملة (قَالُوا آذَ ّكَ) أي قالوا ذلك ولم يجدوا واحدا من أصنامهم. وفعل (آذ ك) معلق عن العمل لورود النفي بعده"[٢]

(ما منا من شهيد) قال ابن الجوزي: "فيه قولان، أحدهما: أنه من قول المشركين؛ والمعنى: ما مِنّا مِنْ شهيد نَّ لكَ شريكاً، فيتبرَّؤون يومئذ ممّا كانوا يقولون، هذا قول مقاتل، والثاني: أنه من قول الآلهة التي كانت تُعبد؛ والمعنى: ما مِنّا من شهيد لهم بما قالوا، قاله الفراء، وابن قتيبة"[٣]

(وضل): قال ابن عاشور: "حقيقته غاب عنهم، أي لم يجدوا ما كانوا يدعونهم من قبل في الدنيا، قال تعالى (بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ) فالمراد هنا :غيبة أصنامهم عنهم وعدم وجودها في تلك الحضرة بقطع النظر عن كونها ملقاة في جهنم أو بقيت في العالم الدنيوي حين فنائه. وإذ لم يجدوا ما كانوا يزعمونه فقد علموا أنهم لا محيص لهم، أي لا ملجأ لهم من العذاب الذي شاهدوا إعداده، فالظن هنا بمعنى اليقين.

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨٢).

٢: التحرير والتنوير (٢٥ / ٨٣).

٣: تفسير ابن الجوزي (٥ / ٣١٠).

والمحيص مصدر ميمي أو اسم مكان من :حاص يحيص، إذا هرب، أي ما لهم مفر من النار"[١].

قال السعدي: "(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) أي: المشركين به يوم القيامة توبيخًا وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم :(أَيْنَ شُرَكَائِيَ) الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم، وجادلتم على ذلك، وعاديتم الرسل لأجلهم؟ (قَالُوا) مقرين ببطلان إلهيتهم، وشركتهم مع :(آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ) أي :أعلمناك ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأ منها، ولهذا قال : (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ) من دون ، أي :ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير ، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند ، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا (وَظَنُّوا) أي :أيقنوا في تلك الحال (مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ) أي :منقذ ينقذهم، ولا مغيث، ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك لله غيره، بينها لعباده، ليحذروا الشرك به"[٢].

قال في الظلال: "(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ: أَيْنَ شُرَكائِي؟)، هنا في هذا اليوم الذي لا يجدي فيه جدال، ولا تحريف للكلم ولا محال، فماذا هم قائلون؟

(قالُوا: آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)

أعلمناك، أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك !(وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ، وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٨٣)

٢: تفسير السعدي (١ / ٧٥١).

فما عادوا يعرفون شيئا عن دعواهم السابقة. ووقع في نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه وتلك أمارة الكرب المذهل، الذي ينسي الإنسان ماضيه كله فلا يذكر إلا ما هو فيه.

ذلك هو اليوم الذي لا يحتاطون له، ولا يحترسون منه، مع شدة حرص الإنسان على الخير، وجزعه من الضر"[١]

١: في ظلال القرآن (٥/ ٣١٢٩).

النموذج الثاني عشر:

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ ا ّ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ لْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }.ق ٢٠-٢٨.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ونفخ في القرن نفخة البعث الثانية ذلك النفخ في يوم وقوع الوعيد الذي توعد به الكفار، وجاءت كل نفس معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير وشر، لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان فكشفنا عنك غطاءك الذي غطى قلبك فزالت الغفلة عنك فبصرك اليوم في ما تشهد قوي شديد، وقال الملك الكاتب الشهيد عليه هذا ما عندي من ديوان عمله وهو لدّي معد محفوظ حاضر، يقول للملكين السائق والشهيد بعد أن يفصل بين الخلائق ألقيا في جهنم كل جاحد أن هو الإله الحق كثير الكفر والتكذيب معاند للحق مناع لأداء ما عليه من الحقوق في ماله معتد على عباد وعلى حدوده شاك في وعده ووعيده الذي أشرك لله فعبد معه معبودا آخر من خلقه فألقياه في عذاب جهنم الشديد، قال شيطانه الذي كان معه في الدنيا: ربنا ما أضللته ولكن كان في طريق بعيد عن سبيل الهدى، قال تعالى: لا تختصموا لدي اليوم في موقف الجزاء والحساب إذ لا فائدة من ذلك وقد قدمت إليكم في الدنيا لوعيد

لمن كفر بي وعصاني، ما يغير القول لدي ولست أعذب أحدا بذنب أحد فلا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه ـ اهـ

التفسير التفصيلي:

قال القشيري: "سائقٌ يسوقها إمّا إلى الجنة أو إلى النار، وشهيدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشرِّ. ويقال له: (لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) المؤمنون – اليومَ بَصَرُهم حديد؛ يُبصرون رُشْدَهم ويحذرون شرَّهم.

والكافر يقال له غداً: (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) أي: ها أنت عَلِمْتَ ما كنتَ فيه من التكذيب؛ فاليومَ لا يُسْمَعُ منكَ خطابٌ، ولا يُرْفَعُ عنكَ عذابٌ.

قوله جلّ ذكره: (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ).

لا يَخْفَى من أحوالهم شيءٌ إلاَّ ذُكِرَ، إنْ كان خيراً يُجازون عليه، وإن كان غير خيرٍ يُحَاسَبونَ عليه: إمَّا برحمةٍ منه فيغفر لهم وينجون، وإمَّا على مقدار جُرْمِهم يُعَذَّبون.

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ) منَّاعٍ للزكاة المفروضة، ويقال: يمنع فَضْلَ مائِه وفَضْلَ كَلَئِه عن المسلمين، ويقال: يمنع الناسَ من الخيرِ والإحسان، ويسيءُ القول فيهما حتى يُزَهِّدُ الناسَ فيهما، ويقال: المناعُ للخير هو المِعْوانُ على الشَّرِّ.

ويقال: هو الذي قيل فيه: (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

(مُرِيبٍ): أي يُشَكِّكُ الناسَ في أمره لأنه غير مخلص، ويُلَبِّسُ على الناس حالَه لأنه منافق"(١)

(ونفخ في الصور): قال الشوكاني: "وعبر لماضي لتحقق وقوعه، (ذلك يوم الوعيد) ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور (يوم الوعيد) الذي أوعد به الكفار قال

١: تفسير القشيري (٧ / ٣٠٠).

مقاتل يعني لوعيد العذاب في الآخرة وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعا وذلك لتهويله"[١]

قال القرطبي: "(وجاءت كل نفس) أي جاءت كل نفس من النفوس، معها من يسوقها، ويشهد لها أو عليها، واختلف العلماء في السائق والشهيد، قال ابن عباس رضي عنه السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل، وقال أبو هريرة السائق الملك والشهيد العمل، وقال الحسن وقتادة: المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها لعمل، وقال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين سمي سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها، وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان، عن عثمان رضي عنه أنه قال وهو على المنبر، سائق يسوقها إلى أمر وشهيد يشهد عليها بعملها، ورجح القرطبي هذا القول[٢].

ومن المعاني التي ذكرها الشوكاني: أن السائق كاتب السيئات، والشهيد كاتب الحسنات[٣].

(لقد كنت في غفلة من هذا) "أي: يقال له لقد كنت في غفلة من هذا. قال الضحاك: المراد بهذا المشركون أنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم، وقال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برهم وفاجرهم، واختار هذا القول إمام المفسرين الطبري[٤].

(فكشفنا عنك غطاءَك) الذي كان في الدنيا، يعني رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك، وذكر القرطبي فيه أربعة أقوال:

١: تفسير الشوكاني (٧ / ٣٠).

٢: تفسير القرطبي (١٧ / ١٤).

٣: تفسير الشوكاني (٧ / ٣٠).

٤: نقلا عن تفسير الشوكاني (٧ / ٣٠).

١- الأول أنه كان في بطن أمه فولد.

٢- الثاني أنه كان في القبر فنشر.

٣- الثالث: وقت العرض يوم القيامة.

٤- الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة.

(فبصرك اليوم حديد) قيل: يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير لفقه فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلها من الاشخاص والأجسام .وقيل :المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد، أي قوي فذ يرى ما كان محجو عنك .قال مجاهد :(فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك .وقاله الضحاك [١].

(وقال قرينه): قال الشوكاني "أي قال الملك الموكل به: هذا ما عندي من كتاب عملك عتيد حاضر قد هيأته، كذا قال الحسن، وقتادة، والضحاك. وقال مجاهد: إن الملك يقول للربّ سبحانه: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته، وأحضرت ديوان عمله.وقيل :إن قرينه من الشياطين يقول ذلك أي: هذا ما قد هيأته لك غوائي وإضلالي. وقال ابن زيد: إن المراد هنا قرينه من الإنس.

(أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ) قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به وهما السائق، والشاهد، وقيل أمر للسائق والحافظ.

(ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) أي معاند، قاله مجاهد وعكرمة .وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق، يقال عند يعند لكسر عنودا أي خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيد وعاند (مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ) لا يبذل خيراً"[٢].

١: تفسير القرطبي (١٧ / ١٥).

٢: تفسير الشوكاني (٧ / ٣١).

وقال القرطبي "أي يمنع الزكاة المفروضة وكل حق واجب"[١].

(مُعْتَدٍ) في منطقه وسيرته وأمره[٢].

وقال الشوكاني: "ظالم لا يقرّ بتوحيد (مُرِيبٍ) شاكّ في الحق، من قولهم أراب الرجل: إذا صار ذا ريب(فألقياه فِي العذاب الشديد) كيد للأمر الأول، أو بدل منه، كما يقول صاحب فتح القدير)"[٣].

وهو المشرك كما يقول القرطبي: "دل عليه قوله (الذي جعل مع إلهاً آخر)"[٤]

(ولكن كَانَ فِي ضلال بَعِيدٍ) قال الشوكاني "أي: عن الحق فدعوته، فاستجاب لي، ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه، وقيل: إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته،وإن الكافر يقول: ربّ إنه أعجلني فيجيبه بهذا، كذا قال مقاتل، وسعيد بن جبير، والأوّل أولى، وبه قال الجمهور.

(قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ(هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: فماذا قال ؟ فقيل: (قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ) يعني: الكافرين وقر ءهم، نهاهم سبحانه عن الاختصام في موقف الحساب"[٥]

(وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ ِ لْوَعِيدِ). قال القرطبي: "أي أرسلت الرسل. وقيل :هذا خطاب لكل من اختصم وقيل :هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع.

(مــا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) قيل هو قوله :(مَنْ جاءَ ِ لْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ ِ لسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها) وقيل هو قوله :(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

١: تفسير القرطبي (١٧ / ١٧).

٢: تفسير الطبري (٢١ / ٤٣٩).

٣: تفسير الشوكاني (٧ / ٣١).

٤: تفسير القرطبي (١٧ / ١٧).

٥: تفسير الشوكاني (٧ / ٣١).

وقال الفراء :ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي لغيب .(وَما أَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) أي ما أ بمعذب من لم يجرم، قاله ابن عباس"[١]

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ) قال أبو السعود: "الغطاء: الحجابُ المغطِّي لأمورِ المعادِ وهو الغفلةُ والإنهماكُ في المحسوساتِ والألْفُ بها وقصرُ النظرِ عَلَيها (فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ) فذٌ لزوالِ المانعِ للإبصارِ"[٢]

وقال ابن عاشور: "والإخبار عن النفخ نه (يَوْمُ الْوَعِيدِ) بتقدير مضاف، أي ذلك حلول يوم الوعيد .وإضافة (يوم) إلى (الوعيد) من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي يوم حصول الوعيد الذي كانوا تُوُعِّدُوا به، وجملة (مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) بدل اشتمال من جملة (جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) والسائق الذي يجعل غيره أمامه يزجيه في السير ليكون بمرأى منه كيلا ينفلت وذلك من شأن المَشْيِ به إلى ما يسوء، (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) .

مقول قول محذوف دل على تعيينه من الخطاب، أي يقال هذا الكلام لكل نفس من نفوس المشركين فهو خطاب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء.

وعلامات الخطاب في كلمات (كنت) و (عنك) و (غطاءك) و(بصرك) مفتوحة لتأويل النفس لشخص أو لإنسان ثم غلب فيه التذكير على التأنيث.

والغفلة :الذهول عما شأنه أن يعلم وأطلقت هنا على الإنكار والجحد على سبيل التهكم،واختيرت كلمة(فِي غَفْلَةٍ) على أن يقال غافلا للدلالة على تمكن الغفلة منه ولذلك استتبع تمثيلها لغطاء.

١: تفسير القرطبي: (١٧ / ١٧).

٢: تفسير أبي السعود (٦ / ١٦٩).

وكشف الغطاء تمثيل لحصول اليقين لشيء بعد إنكار وقوعه، أي كشفنا عنك الغطاء الذي كان يحجب عنك وقوع هذا اليوم بما فيه، وأسند الكشف إلى تعالى لأنه الذي أظهر لهم أسباب حصول اليقين بشواهد عين اليقين.

وأضيف" غطاء "إلى ضمير الإنسان المخاطب للدلالة على اختصاصه به وأنه مما يعرف به.

وحدة البصر :قوة نفاذه في المرئي، وحدة كل شيء قوة مفعوله، ومنه حدة الذهن، والكلام يتضمن تشبيه حصول اليقين برؤية المرئي ببصر قوي، وتقييده بقوله (اليوم) تعريض لتوبيخ، أي ليس حالك اليوم كحالك قبل اليوم إذ كنت في الدنيا منكرا للبعث.

والمعنى :فقد شاهدت البعث والحشر والجزاء، فإنهم كانوا ينكرون ذلك كله، كما في قوله تعالى حكاية عنهم (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) وقالوا (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) فقد رأى العذاب ببصره" [١] .

وقرين -كما يقول صاحب التحرير والتنوير- فعيل بمعنى مفعول، أي مقرون إلى غيره .وكأن فعل قرن مشتق من القرن لتحريك وهو الحبل وكانوا يقرنون البعير بمثله لوضع الهودج، فاستعير القرين للملازم.

وعلى الاختلاف السالف لمراد لقرين يختلف تفسير قوله (هذا ما لدي عتيد):

فإن كان القرين الملك كانت الإشارة بقوله (هذا) إلى العذاب الموكل به ذلك الملك؛ وإن كان القرين شيطا أو إنسا كانت الإشارة محتملة لأن تعود إلى العذاب كما في الوجه الأول، أو أن تعود إلى معاد ضمير الغيبة في قوله (قرينه) وهو في نفس

١: التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٥٧) .

الكافر، أي هذا الذي معي، فيكون (لدي) بمعنى :معي، إذ لا يخلو أحد من صاحب نس بمحادثته والمراد به قرين الشرك المماثل.

وقد ذكر من كان قرينا للمؤمن من المشركين واختلاف حاليهما يوم الجزاء بقوله:

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ)

(هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) مستعمل في التلهف والتحسر والإشفاق، لأنه لما رأى ما به من العذاب علم أنه قد هيئ له، أولما رأى ما قدم إليه قرينه علم أنه لاحق على أثره كقصة الثورين الأبيض والأحمر اللذين استعان الأسد لأحمر منهما على أكل الثور الأبيض ثم جاء الأسد بعد يوم ليأكل الثور الأحمر فعلا الأحمر ربوة وصاح ألا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض"[١] .

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ) .

يقول ابن عاشور "إن هذا انتقال من خطاب النفس إلى خطاب الملكين الموكلين السائق والشهيد. والكلام مقول قول محذوف .والجملة استئناف ابتدائي انتقال من خطاب فريق إلى خطاب فريق آخر، وصيغة المثنى في قوله (ألقيا)يحتمل أن تكون مستعملة في أصلها فيكون الخطاب للسائق والشهيد .ويحتمل أن تكون مستعملة في خطاب الواحد وهو الملك الموكل بجهنم وخوطب بصيغة المثنى جر على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم لأنهم يكثر فيهم أن يرافق السائر رفيقان، وهي طريقة مشهورة،والمبرد يرى أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل :ألق ألق للتأكيد .وهذا أمر ن يعم الإلقاء في جهنم كل كفار عنيد، فيعلم منه كل حاضر في الحشر من هؤلاء أنه مدفوع به إلى جهنم.

١: التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٥٩).

والكفَّار: القوي الكفر، أي الشرك، وتقدم الكلام على العنيد والمناع بما يكفي .

والمعتدي: الظالم الذي يعتدي على المسلمين لأذى وعلى الرسول صلى عليه وسلم لتكذيب والقول الباطل.

والمريب الذي أراب غيره، أي جعله مر ، أي شاكا، أي بما يلقونه إلى الناس من صنوف المغالطة ليشككوهم في صدق الرسول صلى عليه وسلم وصحة الإيمان والتوحيد.

حكاية قول القرين لأسلوب المتبع في حكاية المقاولات والمحاورات في القرآن وهو أسلوب الفصل دون عطف فعل القول على شيء، وكأنك تلاحظ أن في المقام كلاما مطو هو كلام صاحب القرين طوي للإيجاز، ودليله ما تضمنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه إذ قال (رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) وقد حكي ذلك كما يقول ابن عاشور في سورة ص صريحا بقوله (هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَا ً ضِعْفاً فِي النَّارِ).

وتقدير المطوي هنا –عند ابن عاشور-: أن الكافر العنيد لما قدم إلى النار أراد التنصل من كفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزين له الكفر فقال :هذا القرين أطغاني، فقال قرينه (رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ).

والطغيان :تجاوز الحد في التعاظم والظلم والكفر،فمعنى (مَا أَطْغَيْتُهُ) ما جعلته طاغيا، أي ما أمرته لطغيان ولا زينته له .والاستدراك شئ عن شدة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا كان المراد لقرين شيطانه المقيض له فإنه قرن به من وقت إدراكه، فالاستدراك لدفع توهم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه، ولذلك أتبع الاستدراك بجملة (كَانَ فِي ضَلالٍ

بَعِيدٍ).فأخبر القرين ن صاحبه ضال من قبل فلم يكن اقتزانه معه في التقييض أو في الصحبة بزائد إ ه إضلالا، وهذا نظير ما حكاه عن الفريقين في قوله (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) -كما تقدم في النموذج الأول- .

وفعل (كان) لإفادة أن الضلال بت له لأصالة ملازم لتكوينه"[1] .

ثم يقول: "والبعيد :مستعار للبالغ في قوة النوع حدا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة كما لا يبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقة أو بعيد الزمان، أي قديم أصيل فيكون كيدا لمفاد فعل (كان)، والمعنى : أنَّ تمكُّنَ الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه لأن شأن التابع في شيء أن لا يكون مكينا فيه مثل علم المقلد وعلم النظار"[2] .

(قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ ِ لْوَعِيد) قال ابن عاشور: هذا حكاية كلام يصدر يومئذ من جانب تعالى للفريقين الذين اتبعوا والذين اتبعوا، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدل عليه قوله (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ) .

وعدم عطف فعل (قال) على ما قبله لوقوعه في معرض المقاولة، والتعبير بصيغة الماضي لتحقق وقوعه فقد صارت المقاولة بين ثلاث جوانب .

والاختصام :المخاصمة وهو مصدر بصيغة الافتعال التي الأصل فيها أنها لمطاوعة بعض الأفعال فاستعملت للتفاعل مثل :اجتوروا واعتوروا واختصموا .

والنهي عن المخاصمة بينهم يقتضي أن النفوس الكافرة ادعت أن قر ءها أطغوها، وأن القر ء تنصلوا من ذلك وأن النفوس أعادت رمي قر ئها بذلك فصار خصاما فلذلك قال تعالى (لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) وطوي ذكره لدلالة (لا تَخْتَصِمُوا) عليه إيثارا

١: التحرير والتنوير (٢٦ / ١٦١) .

٢: التحرير والتنوير (٢٦ / ١٦١) .

لحق الإيجاز في الكلام. والنهي عن الاختصام بعد وقوعه بتأويل النهي عن الدوام عليه، أي كفوا عن الخصام .

ومعنى النهي أن الخصام في ذلك لا جدوى له، لأن استواء الفريقين في الكفر كاف في مؤاخذة كليهما على السواء كما قال تعالى (قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ) وذلك كناية عن أن حكم عليهم قد تقرر فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين.

ووجه استوائهما في العذاب أن الداعي إلى إضلاله قائم بما اشتهته نفسه من ترويج الباطل دون نظر في الدلائل الوزاعة عنه وأن متلقي الباطل ممن دعاه إليه قائم بما اشتهته نفسه من الطاعة لأئمة الضلال فاستو في الداعي وترتب أثره" [1] .

والواو في (وَقَدْ قَدَّمْتُ) واو الحال .والجملة حال من ضمير (تختصموا) وهي حال معللة للنهي عن الاختصام.

والمعنى :لا تطمعوا في أن تدافعكم في إلقاء التبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم لوعيد من وقت حياتكم فما اكنزثتم لوعيد فلا تلوموا إلا أنفسكم لأن من أنذرفقد أعذر.

فقوله (وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ) كناية عن عدم الانتفاع لخصام كون العقاب عدلا من .

والمبالغة التي في وصف (ظلام) راجعة إلى كيد النفي. والمراد :لا أظلم شيئا من الظلم.

والتعبير لعبيد دون التعبير لناس ونحوه لز دة تقرير معنى الظلم في نفوس الأمة، أي لا أظلم ولو كان المظلوم عبدي فإذا كان الذي خلق العباد قد جعل مؤاخذة من

١: التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٦٢) .

لم يسبق له تشريع ظلما فما لك بمؤاخذة الناس بعضهم بعضا لتبعات دون تقدم إليهم لنهي من قبل، ولذلك يقال: لا عقوبة إلا على عمل فيه قانون سابق قبل فعله[1].

وقال صاحب الظلال: قوله جلّ ذكره: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) يقول الملكُ من الحَفظَةِ الموَكَّلُ له: ما أَعْجَلْتُه على الزَّلَّة.

وإنما كَتَبْتُها بعدما فَعَلَها –وذلك حين يقول الكافر: لم أفعلْ هذا، وإنما أعجلني لكتابة عليّ، فيقول الملكُ: ربَّنا ما أعجلته.

ويقال: هو الشيطانُ المقرونُ به، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ: ما أكرهته على كفره، ولكنه فعل – ختياره – ما وسوسْتُ به إليه.

وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب .وقد قال رسول ا" – صلى ا" عليه وسلم :– (كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له) قالوا: رسول ا" ، كيف نقول؟ قال – صلى ا" عليه وسلم :– (قولوا: حسبنا ا" ونعم الوكيل) فقال القوم: حسبنا ا" ونعم الوكيل"[2]

وقال تعالى: (وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ) جاءت كل نفس. فالنفس هنا هي التي تحاسب، وهي التي تتلقى الجزاء .ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها. قد يكو ن هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا. وقد يكو ن غيرهما. والأول أرجح. وهو مشهد أشبه شيء لسوق للمحاكمة. ولكن بين يدي الجبار.

وفي هذا الموقف العصيب يقال له: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا .فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) قوي لا يحجبه حجاب، وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه،

١: التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٢٤).

٢: جامع الترمذي برقم (٢٤٣١) .

وهذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه، وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها .فالآن فانظر .فبصرك اليوم حديد !هنا يتقدم قرينه .والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته: (وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ)

حاضر مهيأ معد. لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد !ولا يذكر السياق شيئا عن مراجعة هذا السجل تعجيلا بتوقيع الحكم وتنفيذه. إنما يذكر مباشرة الأمر العلوي الكريم، للملكين الحافظين: السائق والشهيد: (أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ .مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ .الَّذِي جَعَلَ مَعَ ا ّ ِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ) وذكر هذه النعوت يزيد في حرج الموقف وشدته. فهو دلالة غضب الجبار القهار في الموقف العصيب الرهيب وهي نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة: كفار عنيد .مناع للخير .معتد .مريب . الذي جعل مع ا ّ إلها آخر .وتنتهي بتوكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد:)فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ(بيا لمكانه من جهنم التي بدأ الأمر لقائه فيها.

عندئذ يفزع قرينه ويرتجف، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه، بما أنه كان مصاحبا له وقرينا: (قالَ قَرِينُهُ: رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذي قدم السجلات. ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه. وهو يتبرأ من إطغائه ويقرر أنه وجده ضالا من عند نفسه، فاستمع لغوايته !وفي القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطاني من القرين الإنساني على هذا النحو . على أن الفرض الأول غير مستبعد .فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل .ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ – وهو بري ء – ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقي – فإنه لم تكن له يد في أي مما كان منه.

وتبرؤ البريء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف.

هنا يجيء القول الفصل، فينهي كل قول: (قالَ: لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ ِ لْوَعِيدِ – ملـيُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَ َ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ). فالمقام ليس مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محددا جزاء كل عمل.

وكل شيء مسجل لا يبدل. ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل. ولا يظلم أحد، فالمجازي هو الحكم العدل.

بهذا ينتهي مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته"[١]

١: في ظلال القرآن (٦/٣٣٦٥.).

النموذج الثالث عشر:

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} الحديد١٣–١٤

التفسير الإجمالي:

ويوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا، وهم على الصراط :انتظرونا نستضئْ من نوركم، فتقول لهم الملائكة :ارجعوا وراءكم فاطلبوا نورًاسخرية منهم، فَفُصِل بينهم بسور له باب، باطنه مما يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره مما يلي المنافقين من جهته العذاب.

ينادي المنافقون المؤمنين قائلين :ألم نكن معكم في الدنيا، نؤدي شعائر الدين مثلكم؟ قال المؤمنون لهم :بلى قد كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق والمعاصي، وتربصتم بالنبي الموت وبالمؤمنين الدوائر، وشككتم في البعث بعد الموت، وخَدَعَتْكُم أمانيكم الباطلة، وبقيتم على ذلك حتى جاءكم الموت وخدعكم بالله الشيطان.

فاليوم لا يُقبل من أحد منكم أيها المنافقون عوض؛ ليفتدي به من عذاب الله، ولا من الذين كفروا بالله ورسوله، مصيركم جميعًا النار، هي أولى بكم من كل منزل، وبئس المصير هي.

التفسير التفصيلي:

(يوم) بدل من (يوم ترى المؤمنين) في الآية السابقة، أو منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر كما يقول ابن عاشور، و(الذين آمنوا) تغليب للذكور لأن المخاطبين هم أصحاب النور وهو للمؤمنين والمؤمنات، وكلمة (انظرو) بهمزة وصل مضمومة من نَظَرَه إذا انتظره، مثل: نظر إذا أبصر، إلا أن نظر بمعنى الانتظار يتعدى إلى المفعول مباشرة ونظر بمعنى أبصر يتعدى بحرف (إلى)، كقوله تعالى (وانظر إلى العظام كيف ننشزها).

والانتظار: التزيث بفعل مَا.

أي: تريثوا في سيركم حتى نلحق بكم فنستضيء لنور الذي بين أيديكم وبجانبكم، وذلك يقتضي أن سبحانه وتعالى ذن للمؤمنين الأولين لسير إلى الجنة فوجا ويجعل المنافقين الذين بينهم سائرين وراءهم ولهذا يقول صلى عليه وسلم:وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها[1])والمعنى أنهم يسيرون في ظلماتٍ، فيسأل المنافقون المؤمنين أن ينتظروهم، وقرأ الجمهور: (انظرو) بهمزة الوصل وضم الظاء، وقرأ حمزة وحده بهمزة القطع وكسر الظاء من أنظره إذا أمهله، أي أنظِرُو حتى نلحق بكم ولا تعجلوا السير فينأى نوركم عنا، وهم يحسبون أن بعدهم عنهم من جراء السرعة. [2]

والاقتباس: حقيقته أخذ القَبَسِ (بفتحتين) وهو الجذوة من الجمر.

ويحتمل أن يكون إطلاق (نقتبس) هنا حقيقة، ن يكونوا ظنوا ن النور الذي كان مع المؤمنين شعلةٌ، وحسبوا أنهم يستطيعون أن خذوا قبسا منه، يلقى ذلك في ظنهم لتكون خيبتهم أشد حسرة عليهم، ويحتمل أن يستعار الاقتباس لانتفاع أحد بضوءٍ آخر، لأنه يشبه الاقتباس في الانتفاع لضوء بدون علاج.

١: صحيح البخاري (٨٠٦) .

٢: التحرير والتنوير ج٢٧ ص٣٨٢.

فمعنى نقتبس من نوركم: أي نصب منه ونلتحق به ونسر به .

ويرجح ابن عاشور أن صيغة قيل ببناء فعلها للمجهول يدل على أن قائله غير المؤمنين المخاطبين، وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين، وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكما إذ لا نور وراءكم.

وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع أشد حسرة.

وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم لمؤمنين واستسخارهم بهم، فهو في معنى فيسخرون منهم سخر منهم .

ويقول ابن عاشور: قوله: (وراءكم) كيد لمعنى ارجعوا، إذ الرجوع يستلزم الوراء كما يقال: رجع القهقهرى[1].

ويحتمل أن يكون ظرفا لفعل التمسوا، أي في المكان الذي خلفكم، وتقديمه على عامله للاهتمام، فيكون فيه معنى الإغراء لتماس النور هناك، وهو أشد في الإطماع، لأنه يوهم أن النور يتناول من ذاك المكان الذي صدر منه المؤمنون، وذلك الإيهام يكون من ب المعاريض[2].

(قيل ارجعوا) قال ابن الجوزي: "في القائل قولان: أحدهما: أنهم المؤمنون، قاله ابن عباس.

والثاني: الملائكة، قاله مقاتل"[3]

وضمير: (بينهم) عائد إلى المؤمنين والمنافقين.

١: التحرير والتنوير ج٢٧، ص٣٨٣.

:٢ التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٨٣).

٣: زاد المسير لابن الجوزي (٥ / ٤٨٦).

وضرب السور: وضعه، يقال ضرب خيمة إذا وضعها.

وضُمِّنَ (ضُرب) في الآية معنى الحجز فعدي لباء، أي ضرب: بينهم سور للحجز به بين المؤمنين والمنافقين، سور خلقه ساعتئذٍ قطعا لأطماعهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فحق بذلك التمثيل الذي مثل به نورهم في الدنيا (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ َرًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ا ّ ُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) لأن الحيرة وعدم رؤية المصير عذاب أليم.[١]

ثم يقول ابن عاشور: "ولعل ضرب السور بينهم وجعل العذاب بظاهره والنعيم بباطنه قصد به التمثيل لهم، لأن الفاصل بين النعيم والعذاب هو الأعمال في الدنيا، وأن الأعمال التي يعملها الناس منها ما يفضي بعامله إلى النعيم ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب.

فأحد طرفي السور مثال لأحد العملين، وطرفه الآخر مثال لضده، والباب واحد وهو الموت، وهو الذي يسلك لناس إلى أحد الجانبين.

ولعل جعل الباب في سور واحد فيه مع ذلك ليمر منه أفواج المؤمنين الخالصين من وجود المنافقين بينهم، بمرأى من المنافقين المحبوسين وراء ذلك السور، تنكيلا بهم وحسرة حيث يشاهدون أفواج المؤمنين يفتح لهم الباب الذي في السور ليجتازوا منه إلى النعيم الذي بباطن السور .

وضمائر (له ب) و (طنه) و (ظاهره) عائدة إلى السور، والجملتان صفتان لكلمة سور.

والباطن:هو داخل الشيء، والظاهر خارجه، فالباطن هو داخل السور الحاجز بين المؤمنين والمنافقين، وهو مكان المؤمنين، والبطون والظهور هنا نسبيان، أي عتبار مكان

١: التحرير والتنوير ج٢٧، ص٣٨٣.

المؤمنين ومكان المنافقين، فالظاهر هو الجهة التي نحو المنافقين: أي ضرب بينهم بسور يشاهد المنافقون العذاب من ظاهره الذي يواجهه، وأن الرحمة وراء ما يليهم. و(قِبَل) بكسر القاف وفتح الباء الجهة المقابلة، وقوله (من قبله) خبر مقدم و(العذاب) مبتدأ مؤخر، والجملة خبر عن ظاهره، و(من) بمعنى (في). والعذاب هو حرق جهنم، فإن جهنم دار عذاب، قال تعالى (إن عذابها كان غراما)

وجملة (يناديهم) حال من قوله (يقول المنافقون والمنافقات) كما يقول ابن عاشور .

ثم يقول صاحب التحرير والتنوير: (ألم نكن معكم): الهمزة استفهام تقريري، استعمل طلبا للِّحاق بهم والانضمام كما كانوا معهم في الدنيا يعملون أعمال الإسلام مع المسلمين، والمعية أطلقت للمشاركة في أعمال الإسلام من نطق بكلمة الإسلام وإقامة أعمال الإسلام وتوهموا أن المعاملة في الآخرة كما تكون في الدنيا على حسب صور العمال، ثم يقول :وما دروا أن الصور مكملات وأن قوامها إخلاص الإيمان، وهذا الجواب إقرار ن المنافقين كانوا يعملون أعمالهم معهم ولما كان هذا الإقرار يوهم أنه قول بموجب الاستفهام التقريري، أعقبوا جوابهم لاستدراك الدافع لما توهمه المنافقون من أن الموافقة للمؤمنين في أعمال الإسلام تكفي في التحاقهم بهم في الجنة فبينوا لهم أسباب التباعد بينهم، ن طنهم كان مخالفا لظاهرهم، وذكروا لهم أربعة أصول هي أسباب الخسران وهي فتنة أنفسهم، والتربص لمؤمنين، والارتياب في صدق الرسول صلى عليه وسلم، والاغتزار بما تموه إليهم أنفسهم، وذكر ابن عاشور أن هذه الأربعة هي أصول الخصال المتفرعة على النفاق"[1].

١: التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٨٥).

(تربصتم) قال ابن الجوزي: "فيه قولان: أحدهما: تربَّصتم لتوبة، والثاني: تربَّصتم بمحمدٍ (صلى عليه وسلم) الموتَ، وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح"[١].

قال ابن عاشور: "والمقصود من الغاية بكلمة (حتى) التنديد عليهم نهم لم يرعووا عن غيهم مع طول مدة أعمارهم وتعاقب السنين عليهم، وهم لم يتدبروا في العواقب، كما قال تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر).

ثم إن إسناد التغرير إلى الأماني مجاز عقلي، لأن الأماني والطمع في حصولها سبب الغرور وملابسه، ومجيء أمر هو الموت، أي حتى يتم على تلك الحالة السيئة، ولم تقلعوا عنها لإيمان الحق"[٢]

وقال القرطبي: "قيل أمر نصرة نبيه صلى عليه وسلم، وقال قتادة إلقاؤهم في النار"[٣]

وقال في التحرير: "وجملة (وغركم لله الغرور) عطف على جملة (وغرتكم الأماني) تحقيرا لغرورهم وأمانيهم لأنها من كيد الشيطان، ليزدادوا حسرة حينئذٍ، والغرور بفتح الغين مبالغة في المتصف لتغرير، والمقصود به الشيطان أي لقائه خواطر النفاق في نفوسهم بتلوينه في لون الحق، وإرضاء دين الكفر الذي يزعمون أنه رضا وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبد هم، ويحتمل أن يراد جنس الغارين، أي وغركم لله أئمة الكفر وقادة النفاق .

والتغرير إظهار الضار في صورة فع، تمويها قال تعالى عن الشيطان، (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا).

١: زاد المسير (٥ / ٤٨٦).

٢: التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٨٧).

٣: تفسير القرطبي (١٧ / ٢٤٧).

والباء في قوله (لله) سببية، أي جعل الشيطان شأن   سببا لغروركم، ن خيل إليكم أن الحفاظ على الكفر مرضٍ لله تعالى وأن النفاق حافظتم به على دينكم وحفظتم به نفوسكم وكرامة قومكم، واطلعتم به على أحوال عدوكم، وهذا كله معلوم عندهم قد شاهدوا دلائله فمن أجل ذلك فرعوا لهم عليه قولهم: (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) قطعا لطمعكم أن يكونوا مع المؤمنين يومئذ كما كانوا معهم في الحياةِ[1] .

قوله :(فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) يقول ابن عاشور: يحتمل أن يكون هذا الكلام من تتمة خطاب المؤمنين للمنافقين، استمرارا في التوبيخ والتنديم، وهذا ما جرى عليه المفسرون .

والفاء للتفريع، والعلم للمؤمنين لا تؤخذ فدية من المنافقين والذين كفروا حاصل مما يسمعون في ذلك من الأقضية الإلهية بين الخلق، بحيث صار معلوما لأهل الحشر أو هو علم متقرر في نفوسهم مما علموه في الدنيا من أخبار القرآن، وكلام النبي صلى عليه وسلم، وذلك موجب عطف (ولا من الذين كفروا) تعبيرا عما علموه سره وهو عطف معترض جرته المناسبة.

ثم يقول ابن عاشور: ويحتمل أن يكون صادرا من جانب   تعالى للمنافقين ييسا لهم من الطمع في نوال حظ من نور المؤمنين، فيكون الفاء على هذا الوجه من عطف التلقين عاطفة كلام أحد على كلام غيره لأجل اتحاد مكان المخاطبة، ويكون عطف (ولا من الذين كفروا) جمعا للفريقين في توبيخ وتنديم واحد لاتحادهما في الكفر"[2].

١: التحرير والتنوير، ج٢٧، ص٣٨٧..

٢: التحرير والتنوير ج٢٧، ص٣٨٨. .

ثم يقول صاحب التحرير والتنوير: "وإقحام كلمة (فاليوم) لتذكيرهم بما كانوا يضمرونه في الدنيا حيث ينفقون مع المؤمنين ر ء وتقية، وهو ما حكاه عنهم بقوله (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر).

وقرأ الجمهور (لا يؤخذ) بياء الغائب المذكر، لأن نيث (فدية) غير حقيقي وقد فصل الظرف بين الفعل وفاعله فحصل مسوغانِ لنزك اقتزان الفعل بعلامة المؤنث، وقرأها ابن عامر بتاء جر على نيث الفاعل في اللفظ .

وكنى بنفي أخذ الفدية عن تحقق جزائهم على الكفر، وإلا فإنهم لم يبذلوا فدية، ولا كان النفاق من أنواع الفدية، ولكن الكلام جرى على الكناية لما هو مشهور من أن الأسير والجاني قد يخلصان من المؤاخذة بفدية تؤخذ عنهما. [1]

ثم إن عطف (ولا من الذين كفروا) قصد منه تعليل ألَّا محيص لهم من عذاب الكفر مثل الذين كفروا أي: الذين أعلنوا الكفر حتى كان حالة يعرفون بها، ويقتضي ذلك كما يقول ابن عاشور أن المنافقين كانوا هم والكافرون في صعيد واحد عند أبواب جهنم ففيه احتراس من أن يتوهم الكافرون الصرحاء من ضمير (لا يؤخذ منكم فدية) أن هذا الحكم خاص لمنافقين تعلقا قل طمع، فليس قوله (ولا من الذين كفروا) مجرد استطراد .

والمأوى: المكان الذيـيُؤْوَى إليه أي يصار إليه ويرجع .

وكني به عن الاستمرار والخلود، وأكد ذلك لصريح بجملة (هي مولاكم) أي ترجعون إليها كما يرجع المستنصر إلى مولاه لينصره ويفادي عنه، فاستعير المولى للمقر على طريقة التهكم.

ويحتمل مع ذلك أن يجعل المولى مكان الولي وهو القرب والدنو، أي: مقركم.

١: التحرير والتنوير ج٢٧، ص٣٨٩.

(وبئس المصير) تذييل يشمل جميع ما يصيرون إليه من العذاب، وقد يحصل العلم للمؤمنين بما أجابوا به أهل النفاق، لأنهم صاروا إلى دار الحقائق"[١]

وقال السعدي: "إذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين :(انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) أي :أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ (قِيلَ) لهم :(ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) أي :إن كان ذلك ممكنا، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، (فَضُرِبَ) بين المؤمنين والمنافقين (بِسُورٍ) أي :حائط منيع، وحصن حصين، (لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) وهو الذي يلي المؤمنين (وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعا وترحما :(أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) في الدنيا نقول :لا إله إلا الله ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟ (قَالُوا بَلَى) كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة، بل (فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ) أي :شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكا، (وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ) الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ) أي :حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة.

(وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره.

(فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فلو افتديتم بمثل الأرض ذهبا ومثله معه، لما تقبل منكم، (مَأْوَاكُمُ النَّارُ) أي :مستقركم، (هِيَ مَوْلاكُمْ) التي تتولاكم وتضمكم إليها، (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) النار"[٢]

١: التحرير والتنوير: ج٢٧، ص٣٨٩.

٢: تفسير السعدي ١ / ٨٣٩.

قال في الظلال: "إن هناك المنافقين والمنافقات، في حيرة وضلال، وفي مهانة وإهمال. وهم يتعلقون ذ ل المؤمنين والمؤمنات: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: انْظُرُو نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ). فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف. ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام؟ إن صو مجهلا يناديهم: (قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً) ويبدو أنه صوت للتهكم، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا. إلى ما كنتم تعملون .ارجعوا فالنور يلتمس من هناك .من العمل في الدنيا .ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور .

وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات .فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة: (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بٌ طِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ). ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت. فها هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين: (أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)؟ فما لنا نفترق عنكم؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد؟ وقد بعثنا معكم هنا في صعيد واحد؟ (قالُوا: بَلى) كان الأمر كذلك .(وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ). فصرفتموها عن الهدى .(وَتَرَبَّصْتُمْ).. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة .(وَارْتَبْتُمْ). فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزمة الأخيرة. (وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ) الباطلة في أن تنجوا وتربحوا لذبذبة وإمساك العصا من طرفيها !(حَتَّى جاءَ أَمْرُ ا ّ ِ). وانتهى الأمر. (وَغَرَّكُمْ ِ ّ ِ الْغَرُورُ). وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم.

ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتقرير، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه:

(فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أم لعلها كلمة الملأ الأعلى، أو كلام ا ّ الكريم..

ونظر من   حية التناسق الفني في عرض المشهد، فنجد لاختيار مشهد النور في هذا الموضع لذات حكمة خاصة. إن الحديث هنا عن المنافقين والمنافقات. والمنافقون والمنافقات يخفون   طنهم ويتظاهرون بغير ما في الضمير المكنون، ويعيشون في ظلام من النفاق والدس والوقيعة .والنور يكشف المخبوء ويفضح المستور .كما أنه الصفحة المقابلة الوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة .فهو أليق شيء   ن تطلق أشعته على المشهد الكبير.

و ن ينير بين أيدي المؤمنين والمؤمنات و يمانهم، بينما المنافقون في الظلام الذي يناسب ظلمات الضمير وظلمات الخفاء المستور !وبعد فأي قلب لا يهفو لذلك النور في ذلك اليوم؟ وأي قلب لا يستجيب لهتاف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير؟

إنه القرآن يعالج القلوب في ثبات واطراد، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومداخلها ومساربها وما تستجيب له وما يؤثر فيها"[١] .

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٤٨٦).

النموذج الرابع عشر:

(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ا ـَّـ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) الحشر: الآية ١٦-١٧..

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ومثل هؤلاء المنافقين في إغراء اليهود على القتال ووعدهم لنصر على رسول صلى عليه وسلم كمثل الشيطان حين زين للإنسان الكفر ودعاه إليه فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف رب الخلق أجمعين، فكان عاقبة أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه فكفر أهما في النار ماكثين فيها أبدا وذلك جزاء المعتدين المتجاوزين حدود اهـ

التفسير التفصيلي:

قال القرطبي: "قوله تعالى :(كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ) هذا ضرب مثل للمنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نصرهم .وحذف حرف العطف، ولم يقل : (وكمثل الشيطان)، لأن حذف حرف العطف كثير كما تقول :أنت عاقل أنت كريم أنت عالم.

وقيل: المثل الأوّل خاص ليهود، والثاني خاص لمنافقين، وقيل: المثل الثاني بيان للمثل الأوّل، ثم بيّن سبحانه وجه الشبه فقال: (إِذْ قَالَ للإنسان اكفر) أي: أغراه لكفر، وزينه له، وحمله عليه، والمراد لإنسان هنا: جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وقيل: هو عابد كان في بني إسرائيل حمله الشيطان على الكفر، فأطاعه (فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنّى بَرِىء مّنكَ) أي: فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبولاً لتزيينه قال الشيطان: إني برىء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة، وجملة: (إِنّى أَخَافُ رَبَّ

العالمين) تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره، وقيل: المراد لإنسان هنا: أبو جهل، والأوّل أولى. قال مجاهد: المراد لإنسان هنا: جميع الناس في غرور الشيطان إ هم، قيل: وليس قول الشيطان: (إِنّ أَخَافُ   ) على حقيقته، إنما هو على وجه التبرّي من الإنسان، فهو كيد لقوله: (إِنّي بَرِيء مّنكَ)

(إني): قرأ فع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بتسكينها، (فَكَانَ عاقبتهما أَنَّهُمَا فِي النار) والمعنى: فكان عاقبة الشيطان، وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار، (وَذَلِكَ جَزَاء الظالمين) أي: الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أوّلياً"[1].

ويقول صاحب التحرير والتنوير " هذا المثل متصل بقوله :(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) - المتقدم في السورة-، كما يفصح عنه قوله في آخره (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ) الآية، أي مثلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان ن يكفر ثم ينزكه ويتبرأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار.

فجملة (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ) حال من ضمير (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي في الآخرة.

والتعريف في (الشيطان) تعريف الجنس وكذلك تعريف الإنسان. والمراد به الإنسان الكافر .

ولم ترد في الآخرة حادثة معينة من وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا، وكيف يكون ذلك و تعالى يقول: (فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ا رَبَّ الْعَالَمِينَ) وهل يتكلم الشيطان مع الناس في الدنيا فإن ظاهر قوله :(قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ) أنه يقوله للإنسان، وأما احتمال أن يقوله في نفسه فهو احتمال بعيد .فالحق :أن قول الشيطان هذا هو ما في آية (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ ا وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

١: تفسير القرطبي (١٨ / ٤٢).

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ) في سورة إبراهيم.

فالمعنى: إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر فلما كفر ووافى القيامة على الكفر قال الشيطان يوم القيامة :(إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ) أي قال كل شيطان لقرينه من الإنس إني بريء منك طمعا في أن يكون ذلك منجيه من العذاب.

ثم يقول صاحب التحرير: "ففي الآية إيجاز حذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط (لمَّا)، وهي داخلة في الشرط إذ التقدير :فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر ن الشيطان أضله قال الشيطان: (إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ).. الخ.

وقول :(فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا) من تمام المثل .أي كان عاقبة المثل بهما خسرانهما معا .وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثلين أنهما خائبان فيما دبرا وكادا للمسلمين .

وجملة (وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) تذييل، والإشارة إلى ما يدل عليه (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ) من معنى، فكانت عاقبتهما سوأى والعاقبة السوأى جزاء جميع الظالمين المعتدين على والمسلمين، فكما كانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سوء كذلك لكون عاقبة الممثلين بهما وقد اشنزكا في ظلم أهل الخير والهدى"[١].

وقال صاحب الظلال: "وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بني الإنسان، تتفقان مع طبيعته ومهمته .فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان .وحاله هو هذا الحال !وهي حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآني إليها من تلك الواقعة العارضة . فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية في مجال حي من الواقع ولا ينعزل لحقائق

١: التحرير والتنوير (٢٨ / ٩٨).

المجردة في الذهن .فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في المشاعر، ولا تستجيش القلوب للاستجابة .وهذا فرق ما بين منهج القرآن في خطاب القلوب، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين"[١]

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٥٣٠).

نماذج الاعتراف

النموذج الأول:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) سورة الأنعام: الآية ٢٧-٢٨..

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الإجمالي:: ولو ترى – أيها الرسول – هؤلاء المشركين يوم القيامة لرأيت أمرا عظيما وذلك حين يحبسون على النار، ويشاهدون ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا عينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالوا ليتنا نعاد إلى الحياة الدنيا فنصدق ت ونعمل بها ونكون من المؤمنين . ليس الأمر كذلك بل ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، ولو فرض أن أعيدوا إلى الدنيا فأمهلوا لرجعوا إلى العناد لكفر والتكذيب وإنهم لكاذبون في قولهم لو رُدد إلى الدنيا لم نكذب ت ربنا وكنا من المؤمنين. اهـ

التفسير التفصيلي:

(ولو ترى إذ وقفوا) قال القرطبي: "إذ وقفوا غدا لأن (إذ) قد تستعمل في موضع إذا، وإذا قد تستعمل في موضع إذ، وما سيكون فكأنه كان، لأن خبر تعالى حق وصدق، فلهذا عبر لماضي ومعنى)وقفوا(حبسوا، يقال وقفته وقفا فوقف وقوفا.

(على النار (قال القرطبي أي هم فوقها على الصراط وهي تحتهم وقيل)على(بمعنى الباء أي)وقفوا) بقربها وهم يعاينوها وفسر الضحاك(وقفوا)ب جمعوا أي على أبوابها، ويقال (وقفوا (على متن جهنم والنار تحتهم.

ثم يقول القرطبي:" وفي الخبر أن الناس كلهم يوقفون على متن جهنم كأنها متن إهالة ينادي مناد خذي أصحابك ودعي أصحابي، وقيل)على (بمعنى)في (أي دخلوا في النار أعاذ منها"[1]

قال جمال الدين القاسمي: "جواب)لو (محذوف تفخيماً للأمر، وتعظيماً للشأن، وجاز حذفه لعلم المخاطب به . وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر . ولو قدرت الجواب . كان التقدير: لرأيت سوء منقلبهم . وحذف الجواب في ذلك أبلغ في المعنى من إظهاره . ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: و ! لئن قمت إليك . وسكتّ عن الجواب، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وعَظُمَ الخوفُ، ولم يدر أي: الأقسام تبغي . ولو قلت: لأضربنك، فأتيت لجواب لأمن غير الضرب، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواه . فثبت أن حذف الجواب أقوى ثيراً في حصول الخوف، وخلاصته كما يقول الرازي أن حذف الجواب ثقة بظهوره، وإيذانٌ بقصور العبارة عن تفصيله"

ثم يقول القاسمي في قوله)بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) "إضراب عما يدل عليه تمنيهم الباطل من الوعد، لتصديق والإيمان، أي: ليس ذلك عن عزم صحيح، وخلوص اعتقاد، بل هو بسبب آخر، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون في أنفسهم من الكفر والشرك، بقولهم: (وَا ّ ِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) ، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فتمنوا لذلك . أو بشهادة جوارحهم عليهم، أو ما كانوا يكتمون في أنفسهم في الدنيا من صدق ما جاء به الرسول صلى عليه وسلم، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون:)قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ (الآية.

١: تفسير القرطبي (٦ / ٤٠٨) .

وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً).أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه، ومال أبو السعود بعد أن قش الأقوال إلى أن المراد بما كانوا يخفون في الدنيا النار التي وقفوا عليها إذ هي التي سبق الكلام لتهويل أمرها والتعجبِ من فظاعة حالِ الموقوفين عليها و خفائها تكذيبُهم بها"[1] .

(وقفوا على النار) قال ابن عاشُور :"أبلغوا إليها بعد سير إليها،)فقالوا) لفاء المفيدة للتعقيب،لأن ما شاهدوه من الهول قد علموا أنه جزاء تكذيبهم لهام أوقعه في قلوبهم أو خبار ملائكة العذاب،فعجلوا فتمنوا أن يرجعوا". [2]

ثم يقول: "(ليتنا نرد(حرف النداء مستعمل في التحسر،لأن النداء يقتضي بعد المنادى،فاستعمل في التحسر لأن المتمنى صار بعيدا عنهم، أي غير مفيد لهم، كقوله تعالى:)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ َ حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ا َّ) .

ومعنى)نرد(نرجع إلى الدنيا،وعطف عليه)وَلا نُكَذِّبُ ِ َتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)ويكون لرفع قراءة الجمهور عطفا على)نرد)، فيكون من جملة ما تمنوه، ولذلك لم ينصب في جواب التمني إذ ليس المقصود الجزاء،ولأن اعتبار الجزاء مع الواو غير مشهور، بخلافه مع الفاء لأن الفاء متأصلة في السببية .والرد غير مقصود لذاته وإنما تمنوه لما يقع معه من الإيمان وترك التكذيب.وإنما قدم في الآية ترك التكذيب على الإيمان لأنه الأصل في تحصيل المتمنى على اعتبار الواو للمعية واقعة موقع فاء السببية في جواب التمني .[3]

١: تفسير القاسمي (٤ / ٤٩٦)، دار الفكر – بيروت، عام ١٩٧٨م، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي .

٢: التحرير والتنوير (٦ / ٦١) .

٣: التحرير والتنوير (٦ / ٦١) .

وقرأه حمزة والكسائي (وَلا نُكَذِّبَ وَنَكُونَ) بنصب الفعلين، على أنهما منصو ن في جواب التمني.وقرأ ابن عامر(وَلا نُكَذِّبُ(لرفع كالجمهور،على معنى أن انتفاء التكذيب حاصل في حين كلامهم،فليس بمستقبل حتى يكون بتقدير"أن"المفيدة للاستقبال. وقرأ)وَنَكُونَ(لنصب على جواب التمني، أي نكون من القوم الذين يعرفون لمؤمنين"[1].

وفي تفسير المنار: "ولعل حكمة اختلاف القراءات بيان اختلاف أحوال أولئك المشركين في تمنيهم: ن يكون منهم من يتمنى أن يرد إلى الدنيا وأن يكون فيها غير مكذب ت الكونية والمنزلة وأن يكون من المؤمنين، ومنهم من يتمنى الرد مصاحبا لما حدث له في الآخرة من الندم على التكذيب ومن الإيمان بما جاء به الرسول، إذ لا تلازم بين الرد وبقاء ذلك الأمر الحادث، ومنهم من يتمناه ليكون سببا للإيمان وعدم التكذيب، ومنهم من يعد بذلك وعدا، وهذا الاختلاف في كيفيات ذلك التمني أقرب إلى الحصول من اتفاق أولئك الكفار الكثيرين على كيفية واحدة مما يدل عليه اختلاف القراءات، لأنه هو المعهود من البشر . ولعلهم يتمنون ذلك جاهلين أنه محال، على أن الناس يتمنون المحال ولو على سبيل التحسر"[2] .

وقد أثنى ابن القيم في كتابه(عدة الصابرين) على ما فهمه المبرد من هذه الآية حيث قال:" كأن كفرهم لم يكن د لهم إذ خفيت عليهم مضرته ثم يقول: ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته وو له فكأنه كان خفيا عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشدته، وهذا كما تقول لمن حدثته في أمرٍ قبلُ: قد ظهر لك الآن ما كنت حدثتك من قبل وقد كان ظاهرا له قبل هذا، ولا يسهل أن يعبر

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦١) .

٢: تفسير المنار (٧ / ٢٩٤) .

عن كفرهم وشركهم الذي كانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد، ويدعون إليه كل حاضر و د، لأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته لهم.

ولا يقال لمن أظهروا الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض لفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية و أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يُرَدُّونَ إلى الدنيا فيؤمنون لله وآ ته ولا يكذبون رسله فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس فى طبائعهم وسجا هم الايمان بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله"(١)

قال القرطبي: "وقد عاين إبليس ما عاين من آ ت ثم عاند"(٢)

(بل بدا لهم) قال صاحب التحرير والتنوير: "إضراب عن قولهم(:وَلا نُكَذِّبَ ِ َتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .)والمعنى بل لأنهم لم يبق لهم مطمع في الخلاص، وبدا الشيء ظهر.ويقال بدا له الشيء إذا ظهر له عيا .

ثم إن قوله تعالى(بدا لهم(في مقابل)ما كانوا يخفون(يفهم منه أن البداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا أي خطر لهم حينئذ ذلك المخاطر الذي كانوا يخفونه،أي الذي كان يبدو لهم، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرحوا معترفين به.

ففي الكلام -كما يقول ابن عاشُور- احتباك، تقديره :بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه، وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من

١: عدة الصابرين (٦ – ٧) طبعة دار النزاث لمدينة المنورة .

٢: تفسير القرطبي (٦ / ٤١٠) .

الاعتزاف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم،وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم، وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحير فيها المفسرون وهي لا تلائم نظم الآية فبعضها يساعده صدرها وبعضها يساعده عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها" (١) .

قوله)ولو ردوا لعادوا لما نهوا(ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في المناظرة،أي لو أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه،وهو التكذيب وإنكار البعث،وذلك لأن نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآ ت البينات،هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير،وإنما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.

ثم يقول ابن عاشُور: وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزجر والسوط ونحوهما.ويزول بزواله حتى يعاوده مثله"(٢).

قوله تعالى:)وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ)، قال القرطبي: "إخبار عنهم، وحكاية عن الحال التي كانوا عليها في الدنيا من تكذيبهم الرسل، وإنكارهم البعث، كما قال ":وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ"، فجعله حكاية عن الحال الآتية .وقيل :المعنى وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون ويكونون من المؤمنين"(٣)

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٢) .

٢: التحرير والتنوير (٦ / ٦٢) .

٣: تفسير القرطبي (٦ / ٤١٠) .

ويقول ابن عاشُور: "(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) تذييل لما قبله.جيء لجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات،أي أن الكذب سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإن الكذب سجيتهم.وقد تضمن تمنيهم وعدا، فلذلك صح إدخاله في حكم كذبهم دخول الخاص في العام،لأن التذييل يؤذن بشمول ما ذيل به وز دة.فليس وصفهم لكذب بعائد إلى التمني بل إلى ما تضمنه من الوعد لإيمان وعدم التكذيب ت "[1].

ويقول صاحب الظلال: "إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا .. مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة .في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض(!وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ..)

لو ترى ذلك المشهد !لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي ! ولا يملكون الجدل والمغالطة !لو ترى لرأيت ما يهول !ولرأيتهم يقولون: فهم يعلمون الآن أنها كانت) آ ت ربنا) !وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا .وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآ ت، وعندئذ سيكونون من المؤمنين !ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون !على أنهم إنما يجهلون جبلتهم .فهي جبلة لا تؤمن .وقولهم هذا عن أنفسهم: إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل !وإنهم ما يقولون قولتهم هذه، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون، وأنهم جون، وأنهم مفلحون.

(بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ .وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ .وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ(..إن ا " يعلم طبيعتهم ويعلم إصرارهم على طلهم ويعلم أن رجفة الموقف

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٣) .

الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود .. (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ)..

ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس، وهذا الرد يصفع وجوههم لمهانة والتكذيب"[١]

١: في ظلال القرآن (٢ / ١٠٦٨) .

النموذج الثاني:

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) الأنعام:٢٧.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ولو ترى – أيها الرسول – منكري البعث إذ حبسوا بين يدي تعالى لقضائه فيهم يوم القيامة لرأيت أسوأ حال إذ يقول عز وجل أليس هذا لحق أي أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا ؟ قالوا بلى وربنا إنه لحق قال تعالى:" فذوقوا العذاب كما تكفرون "أي العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا بسبب جحودكم لله تعالى ورسوله محمد صلى عليه وسلم . اهـ

التفسير التفصيلي:

تقدم في النموذج السابق: الحديث عن قوله ولو ترى والمقصد البلاغي من حذف جواب لو بما يكفي.

وقال القشيري: " حسرة عليهم من موقف الخجل، محل مقاساة الوَجَل، وتذكر تقصير العمل!

فهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أسنان النجز حين لا ندم ينفعهم، ولا شكوى تُسْمَعُ منهم، ولا رحمة تنزل عليهم.

وحين يقول لهم: أليس هذا لحق؟ يُقِرُّونَ كارهين، ويصرخون لتبري عن كل غَيْر"[١] .

وقال البغوي: "(وقفوا) أي على حكمه وقضائه ومسألته، وقيل :عرضوا على ربهم، (قَالَ) لهم وقيل :تقول لهم الخزنة مر ، (أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ) ؟ يعني :أليس هذا البعث

١: تفسير القشيري (٢ / ٢٢٣) .

والعذاب لحق؟) قَالُولــبَلَى وَرَبِّنَا (إنه حق، قال ابن عباس :هذا في موقف، وقولهم : "و ربنا ما كنا مشركين "في موقف آخر، وفي القيامة مواقف، ففي موقف يقرون، وفي موقف ينكرون"[١]

ويقول ابن عاشُور: (وقفوا(تمثيل لحضورهم المحشر عند البعث ..شبهت حالهم في الحضور للحساب بحال عبد جنى فقبض عليه فوقف بين يدي ربه.وبذلك تظهر مزية التعبير بلفظ(رهِم) دون اسم الجلالة.

وجملة(قَالَ أَلَيْسَ هَذَا ِ لْحَقِّ(استئناف بياني،لأن قوله)وَلَوْــتَرَى إِذْ وُقِفُوا(قد آذن بمشهد عظيم مهول فكان من حق السامع أن يسأل:ماذا لقوا من رهِم، فيجاب(قَالَ أَلَيْسَ هَذَا ِ لْحَقِّ(الآية.

والإشارة إلى البعث الذي عاينوه وشاهدوه.والاستفهام تقريري دخل على نفي الأمر المقرر به لاختبار مقدار إقرار المسؤول،فلذلك يسأل عن نفي ما هو واقع لأنه إن كان له مطمع في الإنكار تذرع إليه لنفي الواقع في سؤال المقرر.والمقصود:أهذا حق،فإهم كانوا يزعمونه طلا.ولذلك أجابوا لحرف الموضوع لإبطال ما قبله وهو"بلى"فهو يبطل النفي فهو إقرار بوقوع المنفي،أي بلى هو حق، وأكدوا ذلك لقسم تحقيقا لاعترافهم للمعترف به لأنه معلوم لله تعالى، أي نقر ولا نشك فيه فلذلك نقسم عليه.وهذا من استعمال القسم لتأكيد لازم فائدة الخبر.

(قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ(على طريقة فصل المحاورات.والفاء للتفريع عن كلامهم،أوفاء فصيحة، أي إذ كان هذا الحق فذوقوا العذاب على كفركم، أي لبعث.

١: تفسير البغوي (٣ / ١٣٨) .

(بما كنتم تكفرون(الباء سببية، و"ما"مصدرية، أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم،وذوق العذاب استعارة لإحساسه، لأن الذوق أقوى الحواس المباشرة للجسم، فشبه به إحساس الجلد"[١].

ويقول السعدي: "أي (:وَلَوْ تَرَى (الكافرين) إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ (لرأيت أمرا عظيما، وهَوْلا جسيما، (قَالَ) لهم موبخا ومقرعا: (أَلَيْسَ هَذَا) الذي ترون من العذاب (بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا) فأقروا، واعترفوا حيث لا ينفعهم ذلك، (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)"[٢]

وقال صاحب الظلال: "يدعهم السياق في هذا المشهد البائس، وهذا الرد يصفع وجوههم لمهانة والتكذيب !يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك ويرسم لهما مشهدين متقابلين: أحدهما في الدنيا وهم يجزمون ن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء .و نيهما في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه: (أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ؟(..السؤال الذي يزلزل ويذيب .. فيجيبون إجابة المهين الذليل:)بَلى !وَرَبِّنا(..فيجبهون عندئذ لجزاء الأليم بما كانوا يكفرون"[٣]

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٤) .

٢: تفسير السعدي (١ / ٢٥٤) .

٣: في ظلال القرآن (٢ / ٢٠٦٨) .

النموذج الثالث:

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ا َّ ِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا َ حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) الأنعام: ٣١ .

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: قد خسر الكفار الذين أنكروا البعث بعد الموت حتى إذا قامت القيامة وفوجئوا بسوء المصير دوا على أنفسهم لحسرة على ما ضيعوه في حياتهم الدنيا وهم يحملون آ مهم على ظهورهم فما أسوأ الأحمال الثقيلة السيئة التي يحملونها !! اهـ

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشُور: "إنه استئناف للتعجيب من حالهم حين يقعون يوم القيامة في العذاب على ما استداموه من الكفر الذي جرأهم على استدامته اعتقادهم نفي البعث فذاقوا العذاب لذلك، فتلك حالة يستحقون بها أن يقال فيهم:قد خسروا وخابوا"[١]

قلت: وقد جاء توضيح لمعنى الخسران في آ ت أخرى منها قوله تعالى: (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين).

وتحدث المؤمنون عنهم بعد أن عرف كل فريق مصيره، (إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم)، كما سيأتي في نموذجه الخاص به في سورة الشورى .

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء) قال البغوي: "خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى لبعث بعد الموت"[٢].

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٤) .

٢: تفسير البغوي (٣ / ١٣٨) .

(ولقاء)-كما يقول صاحب التحرير والتنوير- "ظهور آ ر رضاه وغضبه دون خير ولا إمهال ولا وقاية سباب عادية من نظام الحياة الدنيا،فلما كان العالم الأخروي وهو ما بعد البعث عالم ظهور الحقائق رها دون موانع، وتلك الحقائق هي مراد الأعلى الذي جعله عالم كمال الحقائق، جعل المصير إليه مماثلا للقاء صاحب الحق بعد الغيبة والاستقلال عنه زما طويلا، فلذلك سمي البعث ملاقاة ،ولقاء ومصيرا إلى ،ومجيئا إليه،في كثير من الآ ت والألفاظ النبوية،وإلا فإن الناس في الدنيا هم في قبضة تصرف لو شاء لقبضهم إليه ولعجل إليهم جزاءهم قال تعالى)وَلَوْ يُعَجِّلُ ا ّ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ ِ لْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ(.

ولكنه لما أمهلهم واستدرجهم في هذا العالم الدنيوي ورغب ورهب ووعد وتوعد كان حال الناس فيه كحال العبيد تيهم الأمر من مولاهم الغائب عنهم ويرغبهم ويحذرهم،فمنهم من يمتثل ومنهم من يعصي، وهم لا يلقون حينئذ جزاء عن طاعة ولا عقا عن معصية لأنه يملى لهم ويؤخرهم،فإذا طوي هذا العالم وجاءت الحياة الثانية صار الناس في نظام آخر،وهو نظام ظهور الآ ر دون ريث، قال تعالى(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً)، فكانوا كعبيد لقوا ربهم بعد أن غابوا وأمهلوا.فاللقاء استعارة تمثيلية:شبهت حالة الخلق عند المصير إلى تنفيذ وعد ووعيده بحالة العبيد عند حضور سيدهم بعد غيبة ليجزيهم على ما فعلوه في مدة المغيب.وشاع هذا التمثيل في القرآن وكلام الرسول صلى عليه وسلم، كما قال: (من أحب لقاء أحب لقاءه) [1]، وفي القرآن (لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ)

(حتى إذا جاءتهم الساعة): الساعة القيامة، وهي علم لغلبة على ساعة البعث والحشر، وسميت ساعة لسرعة الحساب.

١: صحيح البخاري (٦٥٠٧) .

ثم إن(حتى) غاية للتكذيب لا للخسران فإنه لا غاية له، و(بغتة)" فعلة "من البغت وهو مصدر بغته الأمر، إذا نزل به فجأة من غير ترقب ولاإعلام ولا ظهور شبح أو نحوه، ونصبت بغتة على الحال.

(قالو :)جواب إذا المتقدمة، و(حسرتنا(نداء مقصود به التعجب والتندم،وهو في أصل الوضع نداء للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يسمع وينادي ليحضر كأنه يقول: حسرة احضري فهذا أوان حضورك، وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم ليكون تحسرهم لأجل أنفسهم، فهم المتحسرون والمتحسر عليهم، بخلاف قول القائل: حسرة،فإنه في الغالب تحسر لأجل غيره، ولذلك تجيء معه"على"التي تدخل على الشيء المتحسر من أجله داخلة على ما يدل على غير التحسر،كقوله تعالى :(َ حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ)،فأما مع" حسرتي، أو حسر "فإنما تجيء"على"داخلة على الأمر الذي كان سببا في التحسر كما هنا (عَلَى مَلـفَرَّطْنَا فِيهَا)" (١) .

والحسرة:الندم الشديد،وهو التلهف،وهي فعلة من حسر يحسر حسرا، من ب فرح،و (فرطنا) أضعنا.يقال:فرط في الأمر إذا تهاون بشيء ولم يحفظه، أو في اكتسابه حتى فاته وأفلت منه.وهو يتعدى إلى المفعول بنفسه،ومفعول(فرطنا)محذوف يعود إلى)ما(الموصولية، تقديره:ما فرطناه، أي ندمنا على إضاعة كل ما من شأنه أن ينفعنا ففرطناه،وضمير(فيها(عائد إلى الساعة، وفي تعليلية أي: ما فوَّتْناه من الأعمال النافعة لأجل نفع هذه الساعة،. أو تكون(في(للتعدية بتقدير مضاف إلى الضمير،أي في خيراتها.والمعنى على ما فرطنا في الساعة،يعنون ما شاهدوه من نجاة ونعيم أهل الفلاح.ويحتمل أن يعود ضمير)فيها(على الحياة الدنيا،فيكون"في"للظرفية الحقيقية.

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٦) .

وجملة)وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ(في موضع الحال من ضمير)قالوا)،أي قالوا ذلك في حال أنهم يحملون أوزارهم فهم بين تلهف على التفريط في الأعمال الصالحة والإيمان وبين مقاساة العذاب على الأوزار التي اقترفوها،أي لم يكونوا محرومين من خير ذلك اليوم فحسب بل كانوا مع ذلك متعبين مثقلين لعذاب.

والأوزار جمع وزر بكسر الواو،وهو الحمل الثقيل، وفعله وزر يزر إذا حمل.ومنه قوله هنا(أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)وقوله(وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى).

وأطلق الوزر على الذنب والجناية لثقل عاقبتها على جانيها"[١] .

(وهو يحملون أوزارهم)

قال البغوي: "أثقالهم وآ مهم، قال السدي وغيره إن المؤمن إذ أخرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحا فيقول له :هل تعرفني؟ فيقول :لا فيقول :أ عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا، فذلك قوله عز وجل)يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا(أي :ركبا ، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحا، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول :لا .فيقول :أ عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا فأ اليوم أركبك، فهذا معنى قوله (:وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (يحملون قال ابن عباس :بئس الحمل حملوا"[٢] .

(ألا ساء ما يزرون)

قال ابن عاشُور: "هذا تذييل، و"ألا"حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية لخبر.و(سَاءَ مَا يَزِرُونَ) إنشاء ذم.

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٥) .

٢: تفسير البغوي (٣ / ١٣٩) .

و(يزرون) بمعنى يحملون،أي ساء ما يمثل من حالهم لحمل.و(مَا يَزِرُونَ) فاعل(ساء) .والمخصوص لذم محذوف،تقديره:حملهم"[١] . أو المعنى "ما أسوأ الشيء الذي يحملونه" كما يقول القرطبي[٢] .

(حسرتنا على ما فرطنا فيها .)

قال الطبري: "وذلك أنه لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الآخرة لدنيا قالوا : حسرتنا على ما فرطنا فيها، أي :في الصفقة فترك ذكر الصفقة اكتفاء بذكر قوله) قَدْ خَسِرَ (لأن الخسران إنما يكون في صفقة بيع"[٣]

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ ا ّ ِ) .

قال صاحب الظلال:"فهي الخسارة المحققة المطلقة .. خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوي الأدنى .. وخسارة الآخرة على النحو الذي رأينا .. والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حسا :

»حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا: حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها!)..

ثم مشهدهم كالدواب الموقرة لأحمال: (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ)..

بل الدواب أحسن حالا .فهي تحمل أوزارا من الأثقال .ولكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآ م !والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتسنزيح .وهؤلاء يذهبون وزارهم إلى الجحيم !مشيعين لتأثيم: (أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ)"[٤]

١: التحرير والتنوير (٦ / ٦٧) .

٢: تفسير القرطبي (٦ / ٤١٣) .

٣: تفسير الطبري (٩ / ٢١٥) .

٤: في ظلال القرآن (٢ / ١٠٧٢) .

النموذج الرابع:

(َ مَعْشَرَ الجِْنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ َ ْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آ َ تِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْ َ عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) الأنعام: ١٣٠.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: أيها المشركون من الجن والإنس ألم تكم رسل من جملتكم– وظاهر النصوص يدل على أن الرسل من الإنس فقط –يخبرونكم تي الواضحة المشتملة على الأمر والنهي وبيان الخير والشر ويحذرونكم لقاء عذابي في يوم القيامة قال هؤلاء المشركون من الإنس والجن شهد على أنفسنا ن رسلك قد بلغو آ تك وأنذرو لقاء يومنا هذا فكذبناهم وخدعت هؤلاء المشركين زينة الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا جاحدين وحدانية تعالى ومكذبين لرسله عليهم السلام.

التفسير التفصيلي:

يقول الشوكاني: "وظاهره أن يبعث في الدنيا إلى الجنّ رسلاً منهم، كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم . وقيل معنى منكم: أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف، والقصد لمخاطبة، فإن الجنّ والإنس متحدون في ذلك، وإن كان الرسل من الإنس خاصة فهم من جنس الجنّ من تلك الحيثية.

وقال الكلبي: كانت الرسل من قبل أن يبعث محمد صلى عليه وسلم يبعثون من الجن والإنس جميعا، ومحمد الرسول يبعث إلى الجن والإنس كافة.

وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنذر من الجن، ثم قرأ (ولو إلى قومهم منذرين)، وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا، وليس للجن رسل، فعلى هذا قوله

"رسل منكم "ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس، كما قال تعالى)يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)وإنما يخرج من الملح دون العذب، قال تعالى)وجعل القمر فيهن نورا(وإنما هو في سماء واحدة"[١].

قالوا شهد على أنفسنا أي أنهم قد بلغوا قال مقاتل وذلك حين تشهد عليهم جوارحهم لشرك والكفر، قال تعالى: وغرتهم الحياة الدنيا أي حتى لم يؤمنوا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وقال الشوكاني: "هذه شهادة أخرى منهم على أنفسهم نهم كانوا كافرين في الدنيا لرسل المرسلين إليهم، والآ ت التي جاءوا بها ثم يقول الشوكاني: إن مثل هذه الآية المصرّحة قرارهم لكفر على أنفسهم محمول على أنهم يقرّون في بعض مواطن يوم القيامة، وينكرون في بعض آخر لطول ذلك اليوم، واضطراب القلوب فيه وطيشان العقول، وانغلاق الأفهام وتبلد الأذهان، والإشارة بقوله) ذلك (إلى شهادتهم على أنفسهم أو إلى إرسال الرسل إليهم"[٢].

ويقول ابن جزي: "لم كرر شهادتهم على أنفسهم؟ الجواب: أن قولهم شهد على أنفسنا قول قالوه هم، وقوله: شهدوا على أنفسهم ذل لهم وتوبيخ لحالهم"[٣].

ويقول ابن عاشُور: "أي يوم نحشرهم نقول لهم ألم تكم رسل منكم...، أو هو شروع في حكاية ما سيكون في الحشر .

قوله :(معشر الجن والإنبس) "هذا من جملة المقاولة التي تجري يوم الحشر، وفصلت الجملة لأنها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقوا بها الخلود، إبطالا لمعذرتهم،

١: تفسير الشوكاني (٢ / ٤٨٧) .

٢: فتح القدير للشوكاني (٢ / ٤٧٨) .

٣: التسهيل لابن جزي (١ / ٤٦٧) .

وإعلا   نهم محقوقون بما جزوا به، فأعاد نداءهم بعد النداء السابق كما ينادي المندد عليه الموبخ فيزداد روعا، والهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي .

ثم يقول: وإنما جعل السؤال عن نفي إتيان الرسل إليهم لأن المقرر إذا كان حاله في ملابسة المقرر عليه حال من يظن به أن يجيب   لنفي .يؤتى بتقريره داخلا على نفي الأمر الذي المراد إقراره   ثباته .حتى إذا أقر   ثباته كان إقراره أقطع لعذره في المؤاخذة به . كما يقال للجاني :ألست الفاعل كذا وكذا، وألست القائل كذا .وقد يسلك ذلك في مقام اختبار مقدار تمكن المسؤول المقرر من اليقين في المقرر عليه .فيؤتى   لاستفهام داخلا على نفي الشيء المقرر عليه، حتى إذا كانت له شبهة فيه ارتبك وتلعثم،ولما كان حال هؤلاء الجن والإنس في التمرد على   ، ونبذ العمل الصالح ظهر ، والإعراض عن الإيمان، حال من لم يطرق سمعه أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، جيء في تقريرهم على بعثة الرسل بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرسل إليهم، حتى إذا لم يجدوا لإنكار مجيء الرسل مساغا، واعترفوا بمجيئهم، كان ذلك أحرى لأخذهم   لعقاب.

ووصف الرسل بقوله(مِنْكُمْ) لز دة إقامة الحجة، أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم"[١] .

قوله منكم : يعني الإنس بناء على أن رسل   لا يكونون إلا من الإنس، لأن مقام الرسالة عن   لا يليق أن يجعل إلا في أشرف الأجناس من الملائكة والبشر، وجنس الجن أحط من البشر لأنهم خلقوا من   ر –كما يقول صاحب التحرير – .

وقد يكون المراد بضمير(مِنْكُمْ(خصوص الإنس على طريقة التغليب، كقوله تعالى: ورفع أبويه على العرش، أو يكون الضمير عائدا على بعض المذكور كقوله تعالى: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان كما سبق .

١: التحرير والتنوير (٧ / ٥٧) .

ثم يقول ابن عاشور: فأما مؤاخذة الجن بمخالفة الرسل فقد يخلق   في الجن إلهاما بوجوب الاستماع إلى دعوة الرسل والعمل بها، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الجن)قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِ سَمِعْنَا قُرْآ عَجَباً) الآية، وقوله تعالى حكاية عنهم(قَالُوا قَوْمَنَا إِ سَمِعْنَا كِتَا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ا وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)، ذلك أن الظواهر تقتضي أن الجن لهم اتصال بهذا العالم .واطلاع على أحوال أهله(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ) ويحتمل أن يكون رسل الجن طوائف منهم يستمعون إلى الأنبياء ويفهمون ما يدعون إليه ويبلغون ذلك إلى أقوامهم، كما تقتضيه الآية في سورة الأحقاف.

ثم يقول: والمقصود من الآية التي نتكلم عليها إعلام المشركين هم مأمورون لتوحيدوالإسلام وأن أولياءهم من شياطين الإنس والجن غير مفلتين من المؤاخذة على نبذ الإسلام، بله أتباعهم ودهمائهم .فذكر الجن مع الإنس في قوله) مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ(يوم القيامة لتبكيت المشركين وتحسيرهم على ما فرط منهم في الدنيا من عبادة الجن أو الالتجاء إليهم، على حد قوله تعالى:)وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ا فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ)وقوله(وَإِذْ قَالَ ا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ ا (.

والقص كالقصص :الإخبار، ومنه القصة للخبر، والمعنى :يخبرونكم الأخبار الدالة على وحدانية   وأمره ونهيه ووعده ووعيده، فسمى ذلك قصا لأن أكثرها أخبار عن صفات   تعالى وعن الرسل وأممهم وما حلَّ بِهم وعن الجزاء لنعيم أو العذاب .فالمراد

من الآ ت آ ت القرآن والأقوال التي تتلى فيفهمها الجن لهام، كما تقدم آنفا، ويفهمها الإنس ممن يعرف العربية مباشرة ومن لا يعرف العربية لترجمة"[١] .

ثم يقول: والإنذار :الإخبار بما يخيف ويكره، وهو ضد البشارة، وفعله يتعدى إلى المفعول بنفسه ويتعدى إلى الشيء المخبر عنه : لباء، وبنفسه، يقال :أنذرته بكذا وأنذرته كذا، قال تعالى:)فَأَنْذَرْتُكُمْ َ رلًـتَلَظَّى) ولما كان اللقاء يوم الحشر يتضمن خيرا لأهل الخير وشرا لأهل الشر، وكان هؤلاء المخاطبون قد تمحضوا للشر، جعل إخبار الرسل إ هم بلقاء ذلك اليوم إنذارا لأنه الطرف الذي تحقق فيهم من جملة إخبار الرسل إ هم ما في ذلك اليوم وشره .ووصف اليوم سم الإشارة في قوله:)يَوْمِكُمْ هَذَا(لتهويل أمر ذلك بما يشاهد فيه، بحيث لا تحيط العبارة بوصفه، فيعدل عنها إلى الإشارة كقوله:)هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

ومعنى قولهم)شَهِدْ َ عَلَىـأَنْفُسِنَا(الإقرار بما تضمنه الاستفهام من إتيان الرسل إليهم، وذلك دليل على أن دخول حرف النفي في جملة الاستفهام ليس المقصود منه إلا قطع المعذرة وأنه أمر لا يسع المسؤول نفيه، فلذلك أجملوا الجواب:)قَالُوا شَهِدْ َ عَلَىـأَنْفُسِنَا)، أي أقرر تيان الرسل إلينا.

واستعملت الشهادة في معنى الإقرار لأن أصل الشهادة الإخبار عن أمر تحققه المخبِر وبينه، وشهد عليه .أخبر عنه خبر المتثبت المتحقق، فلذلك قالوا(شَهِدْ َ عَلَى ـأَنْفُسِنَا(أي أقرر تيان الرسل إلينا، وفصلت جملة(قَالُوا(لأنها جارية في طريقة المحاورة، وجملة(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا(معطوفة على جملة :(قَالُوا شَهِدْ َ(عتبار كون الأولى خبرا عن تبين الحقيقة لهم .وعلمهم حينئذ أنهم عصوا الرسل ومن أرسلهم .وأعرضوا عن لقاء

١: التحرير والتنوير (٧ / ٥٩) .

يومهم ذلك .فعلموا وعلم السامع لخبرهم أنهم ما وقعوا في هذه الربقة إلا لأنهم غرتهم الحياة الدنيا .ولولا ذلك الغرور لما كان عملهم مما يرضاه العاقل لنفسه.

والمراد لحياة أحوالها الحاصلة لهم :من اللهو .والتفاخر، والكِبر، والعناد، والاستخفاف لحقائق .والاغترار بما لا ينفع في العاجل والآجل"[١] .

ثم يقول ابن عاشُور: والمقصود من هذا الخبر عنهم كشف حالهم، وتحذير السامعين من دوام التورط في مثله، فإن حالهم سواء.

وجملة:)وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ(معطوفة على جملة(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)س وهو خبر مستعمل في التعجيب من حالهم، وتخطئة رأيهم في الدنيا، وسوء نظرهم في الآ ت، وإعراضهم عن التدبر في العواقب، وقد رتب هذا الخبر على الخبر الذي قبله، وهو اغترارهم لحياة الدنيا، لأن ذلك الاغترار كان السبب في وقوعهم في هذه الحال حتى استسلموا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين لله، فأما الإنس فلأنهم أشركوا به وعبدوا الجن، وأما الجن فلأنهم أغروا الإنس بعبادتهم ووضعوا أنفسهم شركاء لله تعالى، فكلا الفريقين من هؤلاء كافر، وهذا مثل ما أخبر   عنهم أو عن أمثالهم بمثل هذا الخبر التعجيبي في قوله:)وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ(ثم يقول ابن عاشُور: فانظر كيف فرع على قولهم أنهم اعترفوا بذنبهم، مع أن قولهم هو عين الاعتراف، فلا يفرع الشيء عن نفسه، ولكن أريد من الخبر التعجيب من حالهم، والتسميع بهم، حين ألجئوا إلى الاعتراف في عاقبة الأمر.

وشهادتهم على أنفسهم لكفر كانت بعد التمحيص والإلجاء، فلا تنافي أنهم أنكروا الكفر في أول أمر الحساب، إذ قالوا(وَا ّ ِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)

١: التحرير والتنوير (٧ / ٦٠) .

قال سعيد بن جبير :قال رجل لابن عباس :إني أجد أشياء تختلف علي قال :)وَلا يَكْتُمُونَ ا ّ َ حَدِيثاً)، وقال:)إِلَّا أَنْ قَالُوا وَا ّ ِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، فقد كتموا .
فقال ابن عباس :إن يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون :تعالوا نقل :ما كنا مشركين، فختم على أفواههم فتنطق أيديهم"[١].

قال ابن الجوزي: "واختلفوا في الرسالة إلى الجن على أربعة اقوال .

أحدها: أن الرسل كانت تبعث إلى الإنس خاصة، وأن تعالى بعث محمداً صلى عليه وسلم إلى الإنس والجن، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني: أن رسل الجن، هم الذين سمعوا القرآن، فولَّوا إلى قومهم منذرين، روي عن ابن عباس أيضاً . وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنذر من الجن، وهم قوم يسمعون كلام الرسل، فيبلِّغون الجن ما سمعوا .

والثالث: أن تعالى بعث إليهم رسلاً منهم، كما بعث إلى الإنس رسلاً منهم، قاله الضحاك، ومقاتل، وأبو سليمان، وهو ظاهر الكلام .

والرابع: أن تعالى لم يبعث إليهم رسلاً منهم، وإنما جاءهم رسل الإنس، قاله ابن جريج، والفراء، والزجاج . قالوا: ولا يكون الجمع في قوله (ألم تكم رسل منكم) مانعاً أن تكون الرسل من أحد الفريقين"[٢] .

(مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ ـ ْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) .

قال صاحب الظلال: وهو سؤال للتقرير والتسجيل .فا ّ - سبحانه - يعلم ما كان من أمرهم في الحياة الدنيا .والجواب عليه إقرار منهم ستحقاقهم هذا الجزاء في الآخرة .

١: التحرير والتنوير (٧ / ٦٠) .

٢: زاد المسير (٢ / ٤١٤) .

والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس .. فهل أرسل ا" إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس؟ ا" وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر . ولكن النص يمكن ويله ن الجن كانوا يسمعون، ما أنزل على الرسل، وينطلقون إلى قومهم منذرين به .كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف: (وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ)

فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة .. والأمر كله مما اختص ا" سبحانه بعلمه والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه ! وعلى أية حال فقد أدرك المسئولون من الجن والإنس، أن السؤال ليس على وجهه .إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل كما أنه للتأنيب والتوبيخ فأخذوا في الاعنزاف الكامل وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه: قالُوا: (شَهِدْ عَلى أَنْفُسِنا) .

وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول: (وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ)

وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا .فقد غرتهم هذه الحياة وقادهم الغرور إلى الكفر .ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم به حيث لا تجدي المكابرة والإنكار .. فأي مصير أ س من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق، الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه، ولا بكلمة الإنكار !ولا بكلمة الدفاع !ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآني العجيب في رسم المشاهد حاضرة ورد المستقبل المنظور واقعا مشهودا وجعل الحاضر القائم ماضيا بعيدا !إن هذا القرآن يتلى على الناس في هذه الدنيا الحاضرة وفي هذه الأرض المعهودة .ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر قريب ومشهد الدنيا كأنها ماض بعيد !فننسى أن ذلك مشهد سيكون يوم القيامة ونستشعر أنه أمامنا اللحظة

ماثل !وأنه يتحدث عن الدنيا التي كانت كما يتحدث عن التاريخ البعيد! غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا، وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ - كانُوا — كافِرِينَ)، وذلك من عجائب التخييل"[1]

١: في ظلال القرآن (٣ / ١٢٠٩) .

النموذج الخامس:

(كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر)كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة لعنت نظيرتها التي ضلت لاقتداء بها حتى إذا تلاحق في النار الأولون من أهل الملل الكافرة والآخرون منهم جميعا قال الآخِرون المتَّبِعون في الدنيا لقادتهم: ربنا هؤلاء الذين أضلو عن الحق فآتهم عذا مضاعفا من النار، قال تعالى: لكل ضعف، أي: لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار ولكن لا تدركون أيها الأتباع ما لكل فريق منكم من العذاب والآلام!

وقال المتبوعون من الرؤساء وغيرهم لأتباعهم نحن وأنتم متساوون في الغي والضلال وفي فعل أسباب العذاب فلا فضل لكم علينا، قال تعالى لهم جميعا: فذوقوا العذاب أي عذاب جهنم بسبب ما كسبتم من المعاصي) اهـ.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: "(كلما) مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لوصف أحوالهم في النار، وتفظيعها للسامع، ليتعظ أمثالهم ويستبشر المؤمنون لسلامة مما أصابهم فتكون جملة(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً) داخلة في حيز الاستئناف.

ويجوز أن تكون جملة :(كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ) معترضة بين جملة :(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ فِي النَّارِ) وبين جملة(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا) الخ .

على أن تكون جملة (حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا)مرتبطة بجملة (ادخلوا في أمم) بتقدير محذوف تقديره :فيدخلون حتى إذا اداركوا.

و"ما "في قوله :(كُلَّمَا) ظرفية مصدرية، أي كل وقت دخول أمة لعنت أختها . والتقدير :لعنت كل أمة منهم أختها في كل أوقات دخول الأمة منهم، فتفيد عموم الأزمنة.

و (أُمَّةٌ) نكرة وقعت في حيز عموم الأزمنة، فتفيد العموم، أي كل أمة دخلت، وكذلك :(أُخْتَهَا(نكرة لأنه مضاف إلى ضمير نكرة فلا يتعرف فتفيد العموم، أيضا، أي كل أمة تدخل تلعن كل أخت لها، والمراد ختها المماثلة لها في الدين الذي أوجب لها الدخول في النار، كما يقال :هذه الأمة أخت تلك الأمة إذا اشتزكتا في النسب، فيقال : بكر وأختها تغلب .

وسبب اللعن أن كل أمة إنما تدخل النار بعد مناقشة الحساب، والأمر دخالهم النار، وإنما يقع ذلك بعد أن يتبين لهم أن ما كانوا عليه من الدين هو ضلال و طل، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية ما كانوا عليه، لأن النفوس تكره الضلال والباطل بعد تبينه، ولأنهم رأوا أن عاقبة ذلك كانت مجلبة العقاب لهم، فيزدادون بذلك كراهية لدينهم، فإذا دخلوا النار فرأوا الأمم التي أُدْخِلَت النار قبلهم علموا، بوجه من وجوه العلم، أنهم أُدْخِلُوا النار بذلك السبب فلعنوهم لكراهية دينهم ومن اتبعوه .

وقيل :المراد ختها أسلافها الذين أضلوها .[1]

وأفادت)كُلَّمَا(لما فيها من معنى التوقيت :أن ذلك اللعن يقع عند دخول الأمة النار، فيتعين إذن أن يكون التقدير :لعنت أختها السابقة إ ها في الدخول في النار، فالأمة التي تدخل النار أول مرة قبل غيرها من الأمم لا تلعن أختها، ويعلم أنها تلعن من

١: التحرير والتنوير (٨ / ٩٣) .

يدخل بعدها الثانية، ومن بعدها بطريق الأولى، أو ترد اللعن على كل أخت لاعنة . والمعنى :كلما كلما دخلت أمة منهم بقرينة قوله: {لَعَنَتْ أُخْتَهَا} .

و"حتى "في قوله(حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا(ابتدائية، فهي جملة مستأنفة وقد تقدم في الآية قبل هذه أن" حتى "الابتدائية تفيد معنى التسبب، أي تسبب مضمون ما قبلها في مضمون ما بعدها، فيجوز أن تكون منزتبة في المعنى على مضمون قوله:)قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ(الخ، ويجوز أن تكون منزتبة على مضمون قوله (:كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا.)

و)ادَّارَكُوا(أصله تداركوا فقلبت التاء دالا ليتأتى إدغامها في الدال للتخفيف، وسكنت ليتحقق معنى إدغام المتحركين، لثقل واجتلبت همزة الوصل لأجل الابتداء لساكن، وهذا قلب ليس بمتعين، وإنما هو مستحسن، وليس هو مثل قلب التاء في ادان وازداد وادكر .ومعناه :أدرك بعضهم بعضا، فصيغ من الإدراك وزن التفاعل، والمعنى : تلاحقوا واجتمعوا في النار .وقوله)جَمِيعاً(حال من ضمير)ادَّارَكُوا(لتحقيق استيعاب الاجتماع، أي حتى إذا اجتمعت أمم الضلال كلها. [١]

ثم يقول ابن عاشور: والمراد بـ)أُخْرَاهُمْ :)الآخرة في الرتبة، وهم الأتباع والرعية من كل أمة من تلك الأمم، لأن كل أمة في عصر لا تخلو من قادة ورعاع، والمراد لأولى : الأولى في المرتبة والاعتبار، وهم القادة والمتبوعون من كل أمة أيضا، فالأخرى والأولى هنا صفتان جر على موصوفين محذوفين، أي أخرى الطوائف لأولاهم، وقيل :أريد لأخرى المتأخرة في الزمان، و لأولى أسلافهم، لأنهم يقولون(إِنَّ وَجَدْ َ آ َ ءَ َ عَلَى أُمَّةٍ) .

وهذا لا يلائم ما تي بعده.

واللام في :(لِأُولاهُمْ) لام العلة، وليست اللام التي يتعدى بها فعل القول، لأن قول الطائفة الأخيرة موجه إلى تعالى، بصريح قولهم:)رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّو َ (إلخ، لا إلى الطائفة

١: التحرير والتنوير (٨ / ٩٣) .

الأولى، فهي كاللام في قوله تعالى:)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُوَ إِلَيْهِ(.

والضعف بكسر الضاد المثل لمقدار الشيء، وهو من الألفاظ الدالة على معنى نسبي يقتضي وجود معنى آخر، كالزوج والنصف، ويختص لمقدار والعدد، هذا قول أبي عبيدة والزجاج وأئمة اللغة، وقد يستعمل فعله في مطلق التكثير وذلك إذا أسند إلى ما لا يدخل تحت المقدار، مثل العذاب في قوله تعالى:)يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وقوله :(يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) {الأحزاب ٣٠} أراد الكثرة القوية فقولهم هنا)فَآتِهِمْ عَذَا ً ضِعْفاً(أي أعطهم عذا هو ضعف عذاب آخر، فعلم أنه آ هم عذا ، وهم سألوا ز دة قوة فيه تبلغ ما يعادل قوته، ولذلك لما وصف بضعف علم أنه مثل لعذاب حصل قبله إذ لا تقول :أكرمت فلا ضعفا، إلا إذا كان إكرامك في مقابلة إكرام آخر، فأنت تزيده، فهم سألوا لهم مضاعفة العذاب لأنهم علموا أن الضلال سبب العذاب، فعلموا أن الذين شرعوا الضلال هم أولى بعقوبة أشد من عقوبة الذين تقلدوه واتبعوهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) [سبأ: ٣١] .

وفعل)قَالَ(حكاية لجواب إ هم عن سؤالهم مضاعفة العذاب لقادتهم، فلذلك فصل ولم يعطف جر على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات .والتنوين في قوله (لِكُلٍّ) عوض عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير: لكل أمة، أو لكل طائفة ضعف، أي ز دة عذاب مثل العذاب الذي هي معذبة أول الأمر .

فأما مضاعفة العذاب للقادة فلأنهم سنوا الضلال أو أيدوه ونصروه وذبوا عنه لتمويه والمغالطات فأضلوا، وأما مضاعفته للأتباع فلأنهم ضلوا ضلال قادتهم، ولأنهم

بطاعتهم العمياء لقادتهم، وشكرهم إ هم على ما يرسمون لهم، وإعطائهم إ هم الأموال والرشى، يزيدوهم طغيا وجراءة على الإضلال ويغروهم لازد د منه"(١) .

"والاستدراك في قوله (وَلَكِنْ لاتَعْلَمُونَ) لرفع ما توهمه التسوية بين القادة والأتباع في مضاعفة العذاب :أن التغليظ على الأتباع بلا موجب، لأهم لولا القادة لما ضلوا، والمعنى :أنكم لا تعلمون الحقائق ولا تشعرون بخفا المعاني، فلذلك ظننتم أن موجب مضاعفة العذاب لهم دونكم هو أهم علموكم الضلال، ولو علمتم حق العلم لاطلعتم على ما كان لطاعتكم إ هم من الأثر في إغرائهم لازد د من الإضلال .ومفعول (تَعْلَمُونَ) محذوف دل عليه قوله (لِكُلٍّ ضِعْفٌ)، والتقدير :لا تعلمون سبب تضعيف العذاب لكل من الطائفتين، يعني لا تعلمون سبب تضعيفه لكم لظهور أهم علموا سبب تضعيفه للذين أضلوهم"(٢) .

"وقرأ الجمهور :(لاتَعْلَمُونَ) بتاء الخطاب على أنه من تمام ما خاطب به الأمة الأخرى، وقرأه أبو بكر عن عاصم بياء الغيبة فيكون بمنزلة التذييل خطا لسامعي القرآن، أي قال لهم ذلك وهم لا يعلمون أن لكل ضعفا فلذلك سألوا التغليظ على القادة فأجيبوا ن التغليظ قد سلط على الفريقين.

وعطفت جملة(وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ(على جملة(قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ(لأهم لم يدخلوا في المحاورة ابتداء فلذلك لم تفصل الجملة.

والفاء في قولهم:)فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ(فاء فصيحة، مرتبة على قول تعالى(لِكُلٍّ ضِعْفٌ)حيث سوى بين الطائفتين في مضاعفة العذاب .و"ما " فية .و"من " زائدة لتأكيد نفي الفضل، لأن إخبار تعالى بقوله :(لِكُلٍّ ضِعْفٌ) سبب للعلم ن لا

١: التحرير والتنوير (٨ / ٩٥) .

٢: التحرير والتنوير (٨ / ٩٥) .

مزية لأخراهم عليهم في تعذيبهم عذا أقل من عذابهم، فالتقدير :فإذا كان لكل ضعف فما كان لكم من فضل، والمراد لفضل الز دة من العذاب .وقوله :(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) يجوز أن يكون من كلام أولاهم :عطفوا قولهم(ذُوقُوا الْعَذَابَ) على قولهم (فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) بفاء العطف الدالة على الترتب .فالتشفي منهم فيما لهم من عذاب الضعف ترتب على تحقق انتفاء الفضل بينهم في تضعيف العذاب الذي أفصح عنه إخبار ن لهم عذا ضعفا.

وصيغة الأمر في قولهم :(فَذُوقُوا) مستعملة في الإهانة والتشفي.

والذوق استعمل مجازا مرسلا في الإحساس بحاسة اللمس، وقد تقدم نظائره غير مرة.

والباء سببية، أي بسبب ما كنتم تكسبون مما أوجب لكم مضاعفة العذاب، وعبر لكسب دون الكفر لأنه أشمل لأحوالهم، لأن إضلالهم لأعقابهم كان لكفر وبحب الفخر والإغراب بما علموهم وما سنوا لهم، فشمل ذلك كله أنه كسب" (١)

ثم يقول صاحب التحرير والتنوير: "يجوز أن يكون قوله :(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ(من كلام تعالى، مخاطبا به كلا الفريقين، فيكون عطفا على قوله:)لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ)ويكون قوله (:وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ :)جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين، وعلى اعتباره يكون الأمر في قوله(فَذُوقُوا(للتكوين والإهانة .

وفيما قص من محاورة قادة الأمم وأتباعهم موعظة وتحذير لقادة المسلمين من الإيقاع تباعهم فيما يزج بهم في الضلالة، ويحسن لهم هواهم، وموعظة لعامتهم من

١: التحرير والتنوير (٨ / ٩٦) .

الاسترسال في بيد من يشايع هواهم، ولا يبلغهم النصيحة، وفي الحديث :كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[١]

وقال صاحب الظلال: (كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها) !فما أ سها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أ ه ويتنكر فيها الولي لمولاه! (حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً)

وتلاحق آخرهم وأولهم، واجتمع قاصيهم بدانيهم، بدأ الخصام والجدال:

(قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّو ، فَآتِهِمْ عَذا ً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ)..

وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم !ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء، وهم متناكرون أعداء يتهم بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا، ويطلب له من (ربَّنَا) شر الجزاء .. من (ربَّنَا) الذي كانوا يفنزون عليه ويكذبون   ته وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه لدعاء !فيكون الجواب استجابة للدعاء .

ولكن أية استجابة؟ (قالَ: لِكُلٍّ ضِعْفٌ، وَلكِنْ لاـتَعْلَمُونَ(.

لكم ولهم جميعا ما طلبتم من مضاعفة العذاب !وكأنما شمت المدعو عليهم لداعين، حينما سمعوا جواب الدعاء، فإذا هم يتوجهون إليهم لشماتة..

كلنا سواء .. في هذا الجزاء:

(وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ: فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ .فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) !وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم"[٢] .

١: التحرير والتنوير (٨ / ٩٦) .

٢: في ظلال القرآن (٣ / ١٢٩٠) .

النموذج السادس:

(وَ َدَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْ َ مَا وَعَدَ َ رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ا َّ ِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ا َّ ِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ ِ لْآخِرَةِ كَافِرُونَ) الأعراف: ٤٤-٤٥.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: و دى أصحاب الجنة بعد دخولهم فيها أهل النار قائلين لهم: إ قد وجد ما وعد ربنا على ألسنة رسله حقا من إ بة أهل طاعته فهل وجدتم ما وعدكم ربكم على ألسنة رسله حقا من عقاب أهل معصيته ؟ فأجابهم أهل النار قائلين: نعم قد وجد ما وعد ربنا حقا فأذن مؤذن بين أهل الجنة والنار أنْ لعنة على الظالمين الذين تجاوزوا حدود وكفروا لله ورسله . اهـ

التفسير التفصيلي:

يقول صاحب التحرير والتنوير: "إما أن تكون الجملة معطوفة على جملة (وَقَالُوا الْحَمْدُ ِ َّ ِ الَّذِي هَدَا َ لِهَذَا) إلخ، عطف القول على القول، إذ حكي قولهم المنبئ عن بهجتهم بما هم فيه من النعيم، ثم حكي ما يقولونه لأهل النار حينما يشاهدونهم، وإما أن تكون معطوفة على جملة (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ) عطف القصة على القصة بمناسبة الانتقال من ذكر نداء من قبل إلى ذكر مناداة أهل الآخرة بعضهم بعضا، فعلى الوجهين يكون التعبير عنهم صحاب الجنة دون ضميرهم توطئة لذكر نداء أصحاب الأعراف ونداء أصحاب النار، ليعبر عن كل فريق بعنوانه وليكون منه محسن الطباق في مقابلته بقوله :(أَصْحَابُ النَّارِ)[١]

١: وأعتذر عن تفسير الآ ت المتعلقة صحاب الاعراف لأن الحديث خاص بجانب الاعتزاف من قول أهل النار (نعم) .

وهذا النداء خطاب من أصحاب الجنة، عبر عنه لنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النار من مسافة سحيقة البعد، فإن سعة الجنة وسعة النار تقتضيان ذلك لا سيما مع قوله﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنة إلى أصحاب النار وسيلة عجيبة غير متعارفة .وعلم وقدرته لا حد لمتعلقاتهما" [1] .

قوله قد وجد : أن تفسيرية للنداء .والخبر الذي هو(مَا وَعَدَ رَبُّنَا حَقّاً)مستعمل في لازم معناه وهو الاعتبار بحالهم، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهية حالهم، والتورك على الأعداء إذ كانوا يحسبوهم قد ضلوا حين فارقوا دين آ ئهم، وأهم حرموا أنفسهم طيبات الدنيا لانكفاف عن المعاصي، وهذه معان متعددة كلها من لوازم الإخبار، والمعاني الكنائية لا يمتنع تعددها كما يقول ابن عاشُور: لأنها تبع للوازم العقلية،وهذه الكنايةجمع فيها بين المعنى الصريح والمعاني الكنائية، ولكن المعاني الكنائية هي المقصودة إذ ليس القصد أن يعلم أهل النار بما حصل لأهل الجنة ولكن القصد ما يلزم عن ذلك .وأما المعاني الصريحة فمدلوله لأصالة عند عدم القرينة المانعة"[2].

ويعبر الشوكاني سلوب أوضح عن هذه الجزئية إذ يقول: "مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما دوهم به، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم"[3].

والاستفهام في جملة﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً﴾مستعمل كما يقول صاحب التحرير: "مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم في توقيف المخاطبين على غلطهم، وإ رة ندامتهم وغمهم على ما فرط منهم، والشماتة بهم في عواقب عنادهم، وأنت تعلم أن المعاني

١: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٤) .

٢: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٥) .

٣: فتح القدير للشوكاني (٣ / ٣٩) .

المجازية التي علاقتها اللزوم يحتمل تعددها مثل الكناية، وقرينة المجاز هي :ظهور أن أصحاب الجنة يعلمون أن أصحاب النار وجدوا وعده حقا.

قوله:(وَجَدْ َ مَا وَعَدَ َ ـرَبُّنَا حَقّاً) معناه ألفيناه حال كونه حقا لا تخلف في شيء منه، فلا يدل قوله)وَجَدْ َ(على سبق بحث أو تطلب للمطابقة كما قد يتوهم.[1]

(مَا وَعَدَ َ ـرَبُّنَا)ما موصولة وكذلك ما في قوله(مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ)وهذا يدل على أن الصلة)أي صلة الموصول)معلومة عند المخاطبين .على تفاوت في الإجمال والتفصيل، فقد كانوا يعلمون أن الرسول صلى عليه وسلم وعد المؤمنين بنعيم عظيم، وتوعد الكافرين بعذاب أليم، سمع بعضهم تفاصيل ذلك كلها أو بعضها، وسمع بعضهم إجمالها :مباشرة أو لتناقل عن إخوانهم، فكان للموصولية في قوله)أَنْ قَدْ وَجَدْ َ مَا وَعَدَ َ ـرَبُّنَا حَقّاًفَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً(إيجاز بديع، والجواب بنعم تحقيق للمسؤول عنه بهل :لأن السؤال بهل يتضمن ترجيح السائل وقوع المسؤول عنه .فهو جواب المقر المتحسر المعترف، وقد جاء الجواب صالحا لظاهر السؤال وخفيه، فالمقصود من الجواب بها تحقيق ما أريد لسؤال من المعاني حقيقة أو مجازا، إذ ليست نعم خاصة بتحقيق المعاني الحقيقية"[2].

وقال الشوكاني: "وحذف مفعول وعد الثاني لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب . وقيل حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف لخطاب عند الوعد"[3].

١: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٥) .

٢: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٥) .

٣: فتح القدير (٣ / ٣٩) .

وحذف مفعول)وَعَدَ(الثاني في قوله(مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ(لمجرد الإيجاز لدلالة مقابله عليه في قوله(مَا وَعَدَ َ ـرَبُّنَا) لأن المقصود من السؤال سؤالهم عما يخصهم .فالتقدير :فهل وجدتم ما وعدكم ربكم، أي من العذاب لأن الوعد يستعمل في الخير والشر.

ودلت الفاء في قوله :(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) على أن التأذين مسبب على المحاورة تحقيقا لمقصد أهل الجنة من سؤال أهل النار من إظهار غلطهم وفساد معتقدهم.

وفي القرطبي: دخل طاووس على هشام بن عبد الملك فقال له :اتق واحذر يوم الأذان .فقال :وما يوم الأذان؟ قال :قوله تعالى ":فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ا ّ ِ عَلَى الظَّالِمِينَ "فصعق هشام، فقال طاوس :هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة.

والتأذين :رفع الصوت لكلام رفعا يسمع البعيد بقدر الإمكان وهو مشتق من الأُذُن بضم الهمزة جارحة السمع المعروفة، وهذا التأذين إخبار للعن وهو الإبعاد عن الخير، أي إعلام ن أهل النار مبعدون عن رحمة ، ز دة في التأييس لهم، أو دعاء عليهم بز دة البعد عن الرحمة بتضعيف العذاب أو تحقيق الخلود، ووقوع هذا التأذين عقب المحاورة يعلم منه أن المراد لظالمين، وما تبعه من الصفات والأفعال، هم أصحاب النار، والمقصود من تلك الصفات تفظيع حالهم، والنداء على خبث نفوسهم، وفساد معتقدهم.

قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والبزي، بتشديد " أنَّ "وهو الأصل، وقرأ الباقون لتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة، أو المفسرة، فعلى قراءة التشديد فـ"لعنة "منصوبة لأنها اسم إن الناسخة، وعلى قراءة التخفيف فـ"لعنة "مرفوعة على الابتداء. (١)

ويقول ابن عاشُور: والتعبير عنهم لظالمين تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب تعرف به جماعتهم، كما يقال :المؤمنون، لأهل الإسلام، فلا ينافي أنهم حين وصفوا به لم

١: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٦) .

يكونوا ظالمين، لأنهم قد علموا بطلان الشرك حق العلم ومعلوم أن اسم الفاعل يكون حقيقة في الحال مجازا في الاستقبال، ولا يكون للماضي.

ثم يقول: "وأما إجراء الصلة عليهم لفعلين المضارعين في قوله)يَصُدُّونَ(وقوله:)وَيَبْغُونَهَا(وشأن المضارع الدلالة على حدث حاصل في زمن الحال، وهم في زمن التأذين لم يكونوا متصفين لصد عن سبيل ، ولا ببغي عوج السبيل، فذلك لقصد ما يفيده المضارع من تكرر حصول الفعل تبعا لمعنى التجدد، والمعنى وصفهم بتكرر ذلك منهم في الزمن الماضي، وهو عند علماء المعاني استحضار الحالة،كقوله تعالى في الحكاية عن نوح:)وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ(مع أن زمن صنع الفلك مضى، وإنما قصد استحضار حالة التجدد، وكذلك وصفهم سم الفاعل في قوله(:وَهُمْ ِ لآخِرَةِ كَافِرُونَ(فإن حقه الدلالة على زمن الحال .وقد استعمل هنا في الماضي :أي كافرون لآخرة فيما مضى من حياتهم الدنيا، وكل ذلك اعتماد على قرينة حال السامعين المانعة من إرادة المعنى الحقيقي من صيغة المضارع وصيغة اسم الفاعل، إذ قد علم كل سامع أن المقصودين صاروا غير متلبسين بتلك الأحداث في وقت التأذين، بل تلبسوا بنقائضها، فإنهم حينئذ قد علموا الحق وشاهدوه كما دل عليه قولهم" نعم ."وإنما عرفوا بتلك الأحوال الماضية لأن النفوس البشرية تعرف لأحوال التي كانت متلبسةبها في مدة الحياة الأولى، فبالموت تنتهي أحوال الإنسان فيستقر اتصاف نفسه بما عاشت عليه، ويشهد لهذا قوله صلى عليه وسلم:)يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ[1])، ويحتمل أن تكون هذه اللعنة كانت الملائكة يلعنونهم بها في الدنيا، فجهروا بها في الآخرة، لأنها صارت كالشعار للكفرة ينادَوْن بها، وفي حكاية ذلك هنا إعلام لأصحاب هذه الصفات في الدنيا نهم محقوقون بلعنة تعالى.

١: صحيح مسلم برقم (٧٤١٣) .

والمراد لظالمين :المشركون، و لصد عن سبيل   :إما تعرض المشركين للراغبين في الإسلام لأذى والصرف عن الدخول في الدين بوجوه مختلفة، وسبيل   ما به الوصول إلى مرضاته وهو الإسلام، فيكون الصد مرادا به المتعدي إلى المفعول، وإما إعراضهم عن سماع دعوة الإسلام وسماع القرآن، فيكون الصد مرادا به القاصر، الذي قيل :إن مضارعه بكسر الصاد، أو إن حق مضارعة كسر الصاد .فإن قيل لم يسمع مكسور الصاد، فالجواب أن القياس كسر الصاد في اللازم وضمها في المتعدي كما يقول صاحب التحرير"[١] .

ثم يقول: "إن الضمير المؤنث في قوله: (وَيَبْغُونَهَا) عائد إلى)سَبِيلِ ا ـّ ِ)، لأن السبيل يذكر ويؤنث قال تعالى:)قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي) وقال (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) .

والعوج :ضد الاستقامة، وهو بفتح العين في الأجسام، وبكسر العين في المعاني، وأصله أن يحتمل فيه الفتح والكسر، وذلك من محاسن الاستعمال، فالإخبار عن السبيل ب"عوج "إخبار لمصدر للمبالغة، أي ويرومون ويحاولون إظهار هذه السبيل عوجاء، أي يختلقون لها نقائص يموهونها على الناس تنفيرا عن الإسلام كقولهم(هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى ا ـّ ِ كَذِ ً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ)

وورد وصفهم لكفر بطريق الجملة الاسمية في قوله:)وَهُمْ ِ لآخِرَةِ كَافِرُونَ)للدلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكنه منهم، لأن الكفر من الاعتقادات العقلية التي لا يناسبها التكرر، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم لصد عن سبيل   وبغي إظهار العوج، فيها،

١: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٧) .

لأن ذينك من الأفعال القابلة للتكرير، بخلاف الكفر فإنه ليس من الأفعال، ولكنه من الانفعالات"[1].

وقال القشيري معلقا على هذه الآ ت: "اعترف أهل النار بحقيقة الدِّين، وأقروا بسوء ما عملوا ولكن حين لم ينفعهم إقرارٌ بحالٍ من الأحوال"[2].

وقال صاحب الظلال: "يستمر العرض، فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق .. لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم واستيقن أصحاب النار من مصيرهم . وإذا الأولون ينادون الآخرين، يسألونهم عما وجدوه من وعد ا " القديم:

(وَ دى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ...)

وفي هذا السؤال من السخرية المرة ما فيه .. إن المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد ا " كثقتهم من تحقق وعده..، ولكنهم يسألون !ويجيء الجواب في كلمة واحدة .. نعم!..

وعندئذ ينتهي الجواب، ويقطع الحوار..

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ: أَنْ لَعْنَةُ ا َّ عَلَى الظَّالِمِينَ .الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ا َّ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً، وَهُمْ ِ لْآخِرَةِ كافِرُونَ)..

فيتحدد معنى (الظالمين) المقصود .وهو مرادف لمعنى (الكافرين) فهم الذين يصدون عن سبيل ا " ، ويريدون الطريق عوجا لا استقامة فيه، وهم لآخرة كافرون.

وفي هذا الوصف: (ويبغونها عوجا)، إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدون عن سبيل ا " .إنهم يريدون الطريق العوجاء ولا يريدون الطريق المستقيم .يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة .فالاستقامة لها صورة واحدة: صورة المضي على طريق ا " ونهجه وشرعه .وكل ما عداه فهو أعوج وهو إرادة للعوج .وهذه الإرادة تلتقي مع الكفر لآخرة .فما يؤمن

١: التحرير والتنوير (٨ / ١٠٨) .

٢: تفسير القشيري (٤٤).

لآخرة أحد، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ثم يصد عن سبيل ا ّ ، ويحيد عن نهجه وشرعه ..وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعا غير شرع ا ّ .التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح"[1].

١: في ظلال القرآن (٣ / ١٢٩٢) .

النموذج السابع :

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) الأعراف: ٥٣.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر:هل ينتظر الكفار إلا ما وعدوا به في القرآن من العقاب الذي يؤول إليه أمرهم ؟ يوم يأتي ما يؤول إليه الأمر من الحساب والثواب والعقاب يوم القيامة يقول الكفار الذين تركوا القرآن وكفروا به في الحياة الدنيا قد تبين لنا الآن أن رسل ربنا قد جاءوا بالحق ونصحوا لنا فهل لنا من أصدقاء وشفعاء فيشفعوا لنا عند ربنا أو نعاد إلى الدنيا مرة أخرى فنعمل فيها بما يرضي الله عنا ؟ قد خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه من دون الله ويفترونه في الدنيا مما يعدهم به الشيطان . اهـ

التفسير التفصيلي:

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) قال ابن عاشور "الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، والاستفهام إنكاري لأنه جاء بعد نفي، ومعنى (هَلْ يَنْظُرُونَ(ينتظرون من النظرة بمعنى الانتظار، والاستثناء من عموم الأشياء المنتظرات، والمراد المنتظرات من هذا النوع وهو الآيات، أي ما ينتظرون آية أعظم إلا تأويل الكتاب، أي إلا ظهور ما توعدهم به، وإطلاق الانتظار هنا استعارة تهكمية :شبه حال تمهلهم إلى الوقت الذي سيحل عليهم فيه ما أوعدهم به القرآن بحال المنتظرين، وهم ليسوا بمنتظرين ذلك إذ هم جاحدون وقوعه، وهذا مثل قوله تعالى (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً)ثم إن الاستثناء على حقيقته وليس من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

والقصر إضافي، أي لنسبة إلى غير ذلك من أغراض نسياهم وجحودهم لآ ت، والتأويل توضيح وتفسير ما خفي، من مقصد كلام أو فعل، وتحقيقه، والضمير في قوله) ۡوِيلَهُ(عائد إلى" الكتاب "في الآية السالفة)ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم)، و ويله وضوح معنى ما عدوه محالا وكذ ، من البعث والجزاء ورسالة رسول من تعالى ووحدانية الإله والعقاب، فذلك ويل ما جاء به الكتاب أي تحقيقه ووضوحه لمشاهدة، وما بعد العيان بيان"[1].

وفي القرطبي :"قال مجاهد أي جزاء تكذيبهم لكتاب .وقال قتادة ": ۡوِيلَهُ "عاقبته . والمعنى متقارب"[2].

قال ابن عاشُور: "وقد بينت هذا التأويل جملة)يَوْمَ ۡتِي ۡوِيلُهُ يَقُولُ)إلخ،فلذلك فصلت، لأنها تتنزل من التي قبلها منزلة البيان للمراد من ويله، وهو التأويل الذي سيظهر يوم القيامة، فالمراد ليوم يوم القيامة، بدليل تعلقه بقوله)يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ(الآية فإنهم لا يعلمون ذلك ولا يقولونه إلا يوم القيامة .وإتيان ويله مجاز في ظهوره وتبينه بعلاقة لزوم ذلك للإتيان .والتأويل مراد به ما به ظهور الأشياء الدالة على صدق القرآن، فيما أخبرهم وما توعدهم.

و (الَّذِينَ نَسُوهُ)هم المشركون، والضمير يعود إليهم، كان مقتضى الظاهر أن يقال : يقولون، إلا أنه أظهر لموصولية لقصد التسجيل عليهم لهم نسوه وأعرضوا عنه وأنكروه، تسجيلا مرادا به التنبيه على خطئهم والنعي عليهم لهم يجرون عراضهم سوء العاقبة لأنفسهم.

والنسيان مستعمل في الإعراض والصد.

١: التحرير والتنوير (٨ / ١١٩) .

٢: تفسير القرطبي (٧ / ٢١٨) .

والمضاف إليه المقدر بعد كلمة" قبل"، تقديره التأويل أو اليوم، أي من قبل ويله أو من قبل ذلك اليوم، أي في الدنيا، والقول هنا كناية عن العلم والاعتقاد، لأن الأصل في الأخبار مطابقتها لاعتقاد المخبر، أي يتبين لهم الحق ويصرحون به. (١)

ثم يقول ابن عاشُور: وهذا القول يقوله بعضهم لبعض اعترافا بخطئهم في تكذيبهم الرسول صلى عليه وسلم وما أخبر به عن الرسل من قبله، ولذلك جمع الرسل هنا، مع أن الحديث عن المكذبين بمحمد صلى عليه وسلم، وذلك لأن رسول صلى عليه وسلم ضرب لهم الأمثال لرسل السابقين، وهم لما كذبوه جرأهم تكذيبه على إنكار بعثة الرسل إذ قالوا(مَا أَنْزَلَ ا ّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)، أو لأنهم مشاهدون يومئذ ما هو عقاب الأمم السابقة على تكذيب رسلهم، فيصدر عنهم ذلك القول عن ثر بجميع ما شاهدوه من التهديد الشامل لهم ولمن عداهم من الأمم.

وقولهم)قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا ِ لْحَقِّ(خبر مستعمل في الإقرار بخطئهم في تكذيب وإنشاء للحسرة على ذلك، وإبداء الحيرة فيما ذا يصنعون، ولذلك رتبوا عليه وفرعوا لفاء قولهم:)فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ(إلى آخره.

والاستفهام يحتمل أن يكون حقيقيا يقوله بعضهم لبعض، لعل أحدهم يرشدهم إلى مخلص لهم من تلك الورطة، وهذا القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهددهم قبل أن يوقنوا نتفاء الشفعاء المحكي عنهم في الآية(فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)ويحتمل أن يكون الاستفهام مستعملا في التمني .ويحتمل أن يكون مستعملا في النفي، على معنى التحسر والتندم. (٢)

١: التحرير والتنوير (٨ / ١١٩) .

٢: التحرير والتنوير (٨ / ١٢٠) .

و" من "صلة للتوكيد على جميع التقادير، فتفيد توكيد العموم في المستفهم عنه، ليفيد أنهم لا يسألون عمن توهموهم شفعاء من أصنامهم، إذ قد يئسوا منهم، كما في آية أخرى(وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ)بل هم يتساءلون عن أي شفيع يشفع لهم، ولو يكون الرسول صلى عليه وسلم الذي صبوه العداء في الحياة الدنيا!

وفعل(فَيَشْفَعُوا)منصوب بفاء جواب الاستفهام، أو التمني، أو النفي، والحقيقة أنه منصوب ن مضمرة.[1]

"والشفعاء "جمع شفيع وهو الذي يسعى لشفاعة، وهم يسمون أصنامهم شفعاء قال تعالى:)وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ا ِ.)

وعطف فعل (نُرَدُّ) بـ(أو) على مدخول الاستفهام، فيكون الاستفهام عن أحد الأمرين، لأن أحدهما لا يجتمع مع الآخر، فإذا حصلت الشفاعة فلا حاجة إلى الرد، وإذا حصل الرد استغني عن الشفاعة.

والمراد لعمل في قولهم (فَنَعْمَلَ) ما يشمل الاعتقاد، وهو الأهم، مثل اعتقاد الوحدانية والبعث وتصديق الرسول صلى عليه وسلم، لأن الاعتقاد عمل القلب، ولأنه تنزتب عليه آ ر عملية، من أقوال وأفعال وامتثال .والمراد لذي في قوله (الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) ما كانوا يعملونه من أمور الدين بقرينة قولهم(قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا ِ لْحَقِّ)أي فنعمل ما يغاير ما صممنا عليه بعد مجيء الرسول صلى عليه وسلم"[2].

١: التحرير والتنوير (٨ / ١٢٠) .

٢: التحرير والتنوير (٨ / ١٢١) .

(قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ(يقول الشوكاني :"أي لم ينتفعوا بها فكانت أنفسهم عليهم محنة لهم فإنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله، وقيل: خسروا النعيم وحظ النفس"(١).

ويقول ابن عاشور: "إن جملة)قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)مستأنفة استئنافا ابتدائيا تذييلا وخلاصة لقصتهم، أي فكان حاصل أمرهم أنهم خسروا أنفسهم من الآن.

والخسارة مستعارة لعدم الانتفاع بما يرجى منه النفع، والمعنى :أن ما أقحموا فيه نفوسهم من الشرك والتكذيب قد تبين أنه مفض بهم إلى تحقق الوعيد فيهم، يوم تي ويل ما توعدهم به القرآن، فبذلك تحقق أنهم خسروا أنفسهم من الآن، وإن كانوا لا يشعرون.

وأما قوله:)وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(فالضلال مستعار للعدم طريقة التهكم شبه عدم شفعائهم المزعومين بضلال الإبل عن أر بها تهكما عليهم، وهذا التهكم منظور فيه إلى محاكاة ظنهم يوم القيامة المحكي عنهم في قوله قبل:)قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا)

وضل عنهم ما كانوا يفتزون "ما "موصولة، وحذف عائد الصلة المنصوب، أي ضل عنهم ما كانوا يفتزونه، أي يكذبونه، إذ يقولون)هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُ َ)، وهم جماد لا حظ لهم في شؤون العقلاء حتى يشفعوا، فهم قد ضلوا عنهم من الآن ولذلك عبر لمضي لأن الضلال المستعار للعدم متحقق من ماضي الأزمنة"(٢).

(يوم تي ويله:)...

ويقول صاحب الظلال: "هكذا تتوالى صفحات المشهد جيئة وذهو ..لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا .لمحة مع المعذبين في النار، المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا ت ا ّ، وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين .فصله ا ّ - سبحانه - على

١: فتح القدير (٣ / ٤٣) .

٢: التحرير والتنوير (٨ / ١٢١) .

علم – فنزكوه واتبعوا الأهواء والأوهام والظنون .. ولمحة معهم – وهم بعد في الدنيا – ينتظرون مآل هذا الكتاب وعاقبة ما جاءهم فيه من النذير وهم يحذّرون أن يجيئهم هذا المآل .فالمآل هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال !إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض لا يجليها هكذا إلا هذا الكتاب العجيب !وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير ويجيء التعقيب عليه متناسقا مع الابتداء .تذكيرا بهذا اليوم ومشاهده، وتحذيرا من التكذيب ت ا " ورسله، ومن انتظار ويل هذا الكتاب فهذا هو ويله، حيث لا فسحة لتوبة، ولا شفاعة في الشدة، ولا رجعة للعمل مرة أخرى.

نعم .. هكذا ينتهي الاستعراض العجيب .فنفيق منه كما نفيق من مشهد أخاذ كنا نراه.

ونعود منه إلى هذه الدنيا التي فيها نحن !وقد قطعنا رحلة طويلة في الذهاب والمجيء ! إنها رحلة الحياة كلها، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها .. ومن قبل كنا مع البشرية في نشأتها الأولى، وفي هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها !وهكذا ير د القرآن الكريم بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان .يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون .. كله في لمحات لعلها تتذكر، ولعلها تسمع للنذير"[1]

ويقول الشيخ السعدي رحمه ﴿يَوْمَ ۡتِي ۡوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ "متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم .مقرين بما أخبرت به الرسل :(قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا ِلْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ (إلى الدنيا) فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا (.فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

١: في ظلال القرآن (٣ / ١٢٩٤) .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به، دفع ما حل بهم، قال تعالى (:وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

(قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)، حين فوتوها الأر ح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأ ث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه،) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (في الدنيا مما تمنيهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم طلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل"[١] .

١: تفسير السعدي (١ / ٢٩١) .

النموذج الثامن:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُون) الأعراف: ١٨-١٩.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذبا، أولئك سيعرضون على ربهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم، ويقول الأشهاد من الملائكة والنبيين وغيرهم: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم في الدنيا فسخط الله عليهم، ولعنهم لعنة لا تنقطع لأن الظلم الذي اقترفوه صار وصفا ملازما لهم.

هؤلاء الظالمون الذين يمنعون الناس عن سبيل الله الموصلة إلى عبادته ويريدون أن تكون هذه السبيل عوجاء بموافقتها لأهوائهم وهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء.

أولئك الكافرون لم يكونوا ليفوتوا الله في الدنيا هربا، وما كان لهم من أنصار يمنعونهم من عقابه، يضاعف لهم العذاب في جهنم، لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا القرآن سماع منتفع، أو يبصروا آيات الله في هذا الكون إبصار مهتدٍ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين.

أولئك الذين خسروا أنفسهم بافترائهم على الله وذهب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة التي يدَّعون أنها تشفع لهم.

حقا أنهم في الآخرة أخسر الناس صفقة، لأنهم استبدلوا الدركات بالدرجات، فكانوا في جهنم، وذلك هو الخسران المبين.

التفسير التفصيلي:

(ومن أظلم ممن افترى على كذ) قال ابن عاشُور رحمه "هذه الجملة معطوفة على جملة:) ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده(المتقدمة لبيان استحقاقهم النار على كفرهم لقرآن، لأنهم كفروا به افتراء على إذ نسبوا القرآن إلى غير من أنزله، وزعموا أن الرسول صلى عليه وسلم افتراه، فكانوا لغين غاية الظلم حتى لقد يسأل عن وجود فريق أظلم منهم سؤال إنكار يؤول إلى معنى النفي، أي لا أحد أظلم.

وافتراؤهم على هو ما وضعوه من دين الشرك، كقولهم :إن الأصنام شفعاؤهم عند ، وقولهم في كثير من أمور دينهم(وَا ّّ ُ أَمَرَ َ بِهَا(.

وجملة:)أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ(استئناف .وتصديرها سم الإشارة للتنبيه على أنهم أحر ء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الوصف، وهذا أشد الظلم .

ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده علم أن عرضهم على ربهم عرض زجر وانتقام.

والعرض إذا عدي بحرف" على "أفاد معنى الإحضار رادة .

واختيار وصف السبب للإيماء إلى القدرة عليهم.

وعطف فعل" يقول "على فعل" يعرضون "الذي هو خبر، فهو عطف على جزء الجملة السابقة وهو هنا ابتداء عطف جملة على جملة فكلا الفعلين مقصود لإخبار عن اسم الإشارة. "

والمعنى كما يقول ابن عاشُور" أولئك يعرضون على للعقاب ويعلن الأشهاد نهم كذبوا على ربهم فضحا لهم. "

"والأشهاد :جمع شاهد بمعنى حاضر،أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحق . وهؤلاء الأشهاد من الملائكة.

واستحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للناس كلهم حتى يشتهر ما سيخبر به عن حالهم، والمقصود من ذلك شهرتهم لسوء وافتضاحهم.

والإتيان لموصول في الخبر عنهم إيماء إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصلة فيما يرد عليهم من الحكم وهو(أَلا لَعْنَةُ ا ـَّ ـِ عَلَى الظَّالِمِينَ)، على أن المقصود تشهيرهم دون الشهادة .والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم في قوله :(أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ).

وجملة :(أَلا لَعْنَةُ ا ـَّ ـِ عَلَى الظَّالِمِينَ)من بقية قول الأشهاد .وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير .والخبر مستعمل في الدعاء خز وتحقيرا لهم، ومما يؤيد أنه من قول الأشهاد وقوع نظيره "في النموذج السادس من نماذج الاعتزاف في سورة الأعراف)فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ا ـَّ ـِ عَلَى الظَّالِمِينَ ...)الآية. كما أشار إليه ابن عاشور .

"وضمير المؤنث في قوله(يَبْغُونَهَا(عائد إلى سبيل لأن سبيل يجوز اعتباره مؤنثا.

والمعنى :أنهم يبغون أن تصير سبيل عوجاء، فعلم أن سبيل مستقيمة وأنهم يحاولون أن يصيروها عوجاء لأنهم يريدون أن يتبع النبي صلى عليه وسلم دينهم ويغضبون من مخالفته إ ه .وهنا انتهى كلام الأشهاد لأن نظيره الذي في نموذج سورة الأعراف في قوله(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ا ـَّ ـِ عَلَى الظَّالِمِينَ)الآية انتهى بما يماثل آخر هذه الآية.

واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بز دة (هم) في قوله :(هُمْ كَافِرُونَ) وهو توكيد يفيد تقوية الحكم لأن المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره إشعارا بما ينزقبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا .

ومن الأسرار البديعة أن نموذج سورة الأعراف يتحدث عن قوم دخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه كيد لكلام الأشهاد، أما هنا فإن العرض وقول الأشهاد قبل دخول جهنم . [1]

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

ثم يقول: هذه الآية استئناف بياني شئ عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخرة فإن ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل :هل هم سالمون من عذاب الدنيا .فأجيب هم لم يكونوا معجزين في الدنيا، أي لا يخرجون عن مقدرة على تعذيبهم في الدنيا إذا اقتضت حكمته تعجيل عذابهم.

وإعادة الإشارة إليهم بقوله" :أولئك " بعد أن أشير إليهم بقوله:)أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ(لتقرير فائدة اسم الإشارة السابق .والمعنى :أنهم يصيرون إلى حكم ربهم في الآخرة ولم يكونوا معجزيه أن يعذبهم في الدنيا متى شاء تعذيبهم ولكنه أراد إمهالهم.

والمعجز هنا الذي أفلت ممن يروم إضراره.

والأرض :الدنيا .وفائدة ذكره أنهم لا ملجأ لهم من لو أراد الانتقام منهم فلا يجدون موضعا من الأرض يستعصمون به .فهذا نفي للملاجئ والمعاقل التي يستعصم فيها الهارب[2] .

١: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٠) .

٢: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٠) .

ثم يقول ابن عاشُور: "وعندي أن مقارنة (في الأرض)بـ(معجزين) جرى مجرى المثل في القرآن كما في قوله تعالى:)وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ ا َّـِفَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ(، ولعله مما جرى كذلك في كلام العرب كما يؤذن به قول إ س ابن قبيصة الطائي من شعراء الجاهلية:

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة ... فهل تعجزني بقعة من بقاعها

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ا َّـِ مِنْ أَوْلِيَاءَ)

يجوز أن يكون المراد لأول الأنصار، أي ما لهم صر ينصرهم من دون .فجمع لهم نفي سيي النجاة من عذاب القادر وهما المكان الذي لا يصل إليه القادر أو معارضة قادر آخر إ ه يمنعه من تسليط عقابه .و)مِنْ دُونِ ا َّـِ(متعلق ب"أولياء "لما في الولي هنا من معاني الحائل والمباعد.

ويحتمل أن يراد لأولياء الأصنام التي تولوها، أي أخلصوا لها المحبة والعبادة.

ومعنى نفي الأولياء عنهم بهذا المعنى نفي أثر هذا الوصف، أي لم تنفعهم أصنامهم وآلهتهم.

و)مِنْ دُونِ ا َّـِ(على هذا الوجه بمعنى من غير ، فكلمة" دون "اسم غير ظرف، و"من "الجارة ل"أولياء "زائدة لاستغراق الجنس المنفي، أي ما كان لهم فرد من أفراد جنس الأولياء.

والعذاب المضاعف هو عذاب الآخرة بقرينة قوله:)لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ(المشعر بتأخير العذاب عنهم في الدنيا لا عن عجز. (١)

(يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ)

خبر عن اسم الإشارة .أوخبر ن .

١: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣١) .

(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)

يجوز أن يكون هذا خبرا عن اسم الإشارة أو حالا منه فتكون استطاعة السمع المنفية عنهم مستعارة لكراهيتهم سماع القرآن وأقوال النبي صلى عليه وسلم كما نفيت الإطاقة في قول الأعشى :وهل تطيق وداعا أيها الرجل

أراد بنفي إطاقة الوداع عن نفسه أنه يحزن لذلك الحزن من الوداع فأشبه الشيء غير المطاق وعبر هنا لاستطاعة لأن النبي صلى عليه وسلم كان يدعوهم إلى استماع القرآن فيعرضون لأنهم يكرهون أن يسمعوه .قال تعالى:)وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا لأن الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف في حصول الاهتداء. [1]

والإبصار المنفى هو النظر في المصنوعات الدالة على الوحدانية، أي ما كانوا يوجهون أنظارهم إلى المصنوعات توجيه مل واعتبار بل ينظرون إليها نظر الغافل عما فيها من الدقائق، ولذلك لم يقل هنا :وما كانوا يستطيعون أن يبصروا، لأنهم كانوا يبصرونها ولكن مجرد الإبصار غير كاف في حصول الاستدلال حتى يضم إليه عمل الفكر بخلاف السمع في قوله(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ)

ويجوز أن تكون الجملة حالا ل"أولياء"، وسوغ كونها حالا من النكرة أن النكرة وقعت في سياق النفي .والمعنى :أنهم جعلوها آلهة لهم في حال أنها لا تستطيع السمع ولا الإبصار.

وإعادة ضمير جمع العقلاء على الأصنام على هذا الوجه منظور فيه إلى أن المشركين اعتقدوها تعقل، ففي هذا الإضمار مع نفي السمع والبصر عنها ضرب من التهكم بهم.

١: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٢) .

والإتيان فعال الكون في هذه الجمل أربع مرات لإفادة ما يدل عليه فعل الكون من تمكن الحدث المخبر به.

والاختلاف بين صيغ أفعال الكون إذ جاء أولها بصيغة المضارع والثلاثة بعده بصيغة الماضي لأن المضارع المجزوم بحرف" لم "له معنى المضي فليس المخالفة منها إلا تفننا. [1]

(أولئك الذين خسروا أنفسهم :)اسم الإشارة هنا كيد ن لاسم الإشارة في قوله:)أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ(.

والموصول في (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) مراد به الجنس المعروف بهذه الصلة، أي أن بلغكم أن قوما خسروا أنفسهم فهم المفترون على كذ ، وخسارة أنفسهم عدم الانتفاع بها في الاهتداء، فلما ضلوا فقد خسروها.

وتقدم الكلام على الخسران في نموذج سورة الأنعام.

والضلال :خطأ الطريق المقصود.

و)مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(ما كانوا يزعمونه من أن الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الضر عند الشدائد، قال تعالى: (فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ا قُرْ ً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ). الأحقاف:٢٨.

وفي إسناد الضلال إلى الأصنام تهكم على أصحابها .شبهت أصنامهم بمن سلك طريقا ليلحق بمن استنجد به فضل في طريقه.

وجملة:)لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ(نتيجة للجمل المتقدمة من قوله:)أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ(لأن ما جمع لهم من الزج للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النذر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين هم الأخسرون في الآخرة.

١: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٢) .

و"لا جرم "كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل. [١]

وقال ابن عاشُور: وأحسب أن" جرم "مشتق مما تنوسي، وقد اختلف أئمة العربية في تركيبها، وأظهر أقوالهم أن تكون" لا "من أول الجملة و"جرم "اسم بمعنى محالة أي لا محالة أو بمعنى بد أي لا بد .ثم يجيء بعدها أن واسمها وخبرها فتكون" أنّ "معمولة لحرف جر محذوف .والتقدير :لا جرم من أن الأمر كذا.ولما فيها من معنى التحقيق والتوثيق وتعامل معاملة القسم فيجيء بعدها في ما يصلح لجواب قسم نحو :لا جرم لأفعلن.

وعبر عما لحقهم من الضر لخسارة استعارة لأنه ضر أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة فهم مثل التجار الذين أصابتهم الخسارة من حيث أرادوا الربح.

وإنما كانوا أخسرين، أي شديدي الخسارة لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة .ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

وضمير (هُمُ الْأَخْسَرُونَ) ضمير فصل يفيد القصر، وهو قصر ادعائي، لأنهم بلغوا الحد الأقصى في الخسارة، فكأنهم انفردوا لأخسرية"[٢].

وذكر صاحب زاد المسير في معنى قوله تعالى { ما كانوا يستطيعون السمع...} أن فيه قولين:

"أحدهما: أنهم الكفار . ثم في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم لم يقدروا على استماع الخير، وإِبصار الحق، وفعل الطاعة، لأن تعالى حال بينهم وبين ذلك، هذا معنى قول ابن عباس، ومقاتل .

١: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٣) .

٢: التحرير والتنوير (١١ / ٢٣٤) .

والثاني: أن المعنى: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يسمعونه، وبما كانوا يبصرون حُجج ولا يعتبرون بها، فحذف الباء، كما تقول العرب: لأجزينَّك ما عملت، وبما عملت، ذكره الفراء، وأنشد ابن الأنباري في الاحتجاج له:

نُغالي اللحمَ للأضياف نيئا ونبذُله إذا نضِجَ القُدورُ

أراد: نغالي للحم .

والثالث: أنهم من شدة كفرهم وعداوتهم للنبي صلى عليه وسلم ما كانوا يستطيعون أن يتفهموا ما يقول، قاله الزجاج .

والقول الثاني: أنهم الأصنام، فالمعنى: ما كان للآلهة سمع ولا بصر، فلم تستطع لذلك السمع، ولم تكن تبصر . فعلى هذا، يرجع قوله: «ما كانوا» إلى أوليائهم، وهي الأصنام، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس أيضاً"[1] .

وبين صاحب أضواء البيان أن أظهر الأقوال عنده، "أَنَّ عَدَمَ الِاسْتِطَاعَةِ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ لِلْخَتْمِ الَّذِي خَتَمَ ا ّ ُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ، وَالْغِشَاوَةِ الَّتِي جَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ" قال: "وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: خَتَمَ ا ّ ُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَقَوْلُهُ: إِ ّ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآ َ تِ .

وَذَلِكَ الْخَتْمُ وَالْأَكِنَّةُ عَلَى الْقُلُوبِ جَزَاءٌ مِنَ ا ّ ِ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى مُبَادَرَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ ِ خْتِيَارِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آ َ تٌ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ: بَلْ طَبَعَ ا ّ ُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ، وَقَوْلِهِ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ا ّ ُ قُلُوبَهُمْ، وَقَوْلِهِ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ا ّ ُ مَرَضًا الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ (الْآيَةَ)، وَقَوْلِهِ

١: زاد المسير (٣ / ٣٣٢) .

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الْآيَةَ)، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآ َ تِ"[1]
.

قال صاحب الظلال:

(ومن أظلم ممن افترى على كذ ...الخ).

"إن افتراء الكذب في ذاته جريمة نكراء، وظلم للحقيقة ولمن يفتري عليه الكذب .

فما لكَ حين يكون هذا الافتراء على ا ّ ؟

(أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الْأَشْهادُ: هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ).

إنه التشهير والتشنيع . لإشارة:)هؤلاء) .. (هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا(..وعلى من؟)عَلى رَبِّهِمْ(لا على أحد آخر !إن جو الفضيحة هو الذي يرتسم في هذا المشهد، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة:

(أَلا لَعْنَةُ ا ِّ عَلَى الظَّالِمِينَ(..

يقولها الأشهاد كذلك .والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون، أو هم الناس أجمعون .فهو الخزي والتشهير – إذن – في ساحة العرض الحاشدة !أو هو قرار ا ّ سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رؤوس الأشهاد:

(أَلا لَعْنَةُ ا ِّ عَلَى الظَّالِمِينَ)..

والظالمون هم المشركون .وهم الذين يفترون الكذب على ربهم ليصدوا عن سبيل ا ّ .

(وَيَبْغُونَها عِوَجاً)..

١: أضواء البيان (٣ / ١٦) .

فلا يريدون الاستقامة ولا الخطة المستقيمة، إنما يريدونها عوجا والتواء وانحرافا . يريدون الطريق أو يريدون الحياة أو يريدون الأمور .. كلها بمعنى..)وَهُمْ ِ لْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ(ويكرر)هم)مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها في مقام التشهير.

والذين يشركون ّ - سبحانه - وهم الظالمون - إنما يريدون الحياة كلها عوجا حين يعدلون عن استقامة الإسلام .وما تنتج الدينونة لغير اّ - سبحانه - إلا العوج في كل جانب من جوانب النفس، وفي كل جانب من جوانب الحياة.

إن عبودية الناس لغير اّ سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد اّ أن يقيمها على الكرامة .وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد اّ أن يقيمها على القسط والعدل .وتحول جهود الناس إلى عبث في ليه الأر ب الأرضية والطبل حولها والزمر، والنفخ فيها دائما لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي .ولما كانت هذه الأر ب في ذاتها صغيرة هزيلة لا يمكن أن تملأ فراغ الرب الحقيقي، فإن عبادها المساكين يظلون في نصب دائب، وهمّ مقعد مقيم ينفخون فيها ليل نهار، ويسلطون عليها الأضواء والأنظار، ويضربون حولها لدفوف والمزامير والنزانيم والتسابيح، حتى يستحيل الجهد البشري كله من الإنتاج المثمر للحياة إلى هذا الكد البائس النكد وإلى هذا اهم المقعد المقيم .. فهل وراء ذلك عوج وهل وراء ذلك التواء؟» !أولئك البعداء المبعدون الملعونون.

(لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ..)

فلم يكن أمرهم معجزا ّ، ولو شاء لأخذهم لعذاب في الدنيا"[1]..

ويقول السعدي رحمه : "يخبر تعالى أنه لا أحد) أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اّ ِ كَذِ ً (ويدخل في هذا كل من كذب على ، بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه، بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على ،

١: في ظلال القرآن (٤ / ١٨٦٧) .

فهؤلاء أعظم الناس ظلما (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم لعقاب الشديد) يَقُولُ الأَشْهَادُ (أي :الذين شهدوا عليهم فنزائهم وكذبهم (: هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ ا ّ ِ عَلَى الظَّالِمِينَ (أي :لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما، لا يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال (:الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ا ّ ِ (فصدوا نفسهم عن سبيل ، وهي سبيل الرسل، التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

(وَيَبْغُونَهَا) أي :سبيل (عِوَجًا (أي :يجتهدون في ميلها، وتشيينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم) وَهُمْ ِ لآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

(أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ (أي :ليسوا فائتين ، لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ا ّ ِ مِنْ أَوْلِيَاءَ (فيدفعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب.

(يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) أي :يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا نفسهم وأضلوا غيرهم.

(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ) أي :من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آ ت سماعا ينتفعون به (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) (وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) أي ينظرون عبرة وتفكرا فيما ينفعهم وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون

(أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (أي اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون لما جاء أمر ربك

(لا جَرَمَ) أي حقا وصدقا (أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) حصر الخسار فيهم بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب نستجير الله من حالهم"[١].

١: تفسير السعدي (١ / ٣٧٩).

النموذج التاسع:

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) النحل: ٢٧-٢٨-٢٩..

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ثم يوم القيامة يفضحهم لعذاب ويذلهم به، ويقول أين شركائي من الآلهة التي عبدتموها من دوني ليدفعوا عنكم العذاب، وقد كنتم تحاربون الأنبياء والمؤمنين وتعادونهم لأجلهم؟ قال العلماء الر نيون: إن الذل في هذا اليوم والعذاب على الكافرين لله ورسله .

الذين تقبض الملائكة أرواحهم في حال ظلمهم لأنفسهم لكفر، فاستسلموا لأمر حين رأوا الموت وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون ، وقالوا: ما كنا نعمل شيئا من المعاصي، فيقال لهم كذبتم ! قد كنتم تعملونها، إن عليم عمالكم كلها، وسيجازيكم عليها.

فادخلوا أبواب جهنم لا تخرجون منها أبدا، فلبِئست مقرًا للذين تكبروا عن الإيمان لله وعن عبادته وحده وطاعته.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: "ثُمَّ للترتيب الرتبي، فإن خزي الآخرة أعظم من استئصال نعيم الدنيا.

والخزي :الإهانة.

وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة لأنه يوم الأحوال الأبدية فما فيه من العذاب مهول للسامعين.

و (أَيْنَ) للاستفهام عن المكان، وهو يقتضي العلم بوجود من يحل في المكان .ولما كان المقام هنا مقام تهكم كان الاستفهام عن المكان مستعملا في التهكم ليظهر لهم كالطماعية للبحث عن آلهتهم، وهم علموا أن لا وجود لهم ولا مكان لحلولهم.

وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة ز دة في التوبيخ، لأن مظهر عظمة تعالى يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك، فالمخاطبون عالمون حينئذ بتعذر المشاركة.

والموصول من قوله تعالى :(الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادعاء المشاركة .

والمشاقة :المشادة في الخصومة .كأنها خصومة لا سبيل معها إلى الوفاق، إذ قد صار كل خصم في شق غير شق الآخر. [١]

وقرأ فع (تُشَاقُّونِ) بكسر النون على حذف ء المتكلم، أي تعاندونني، وذلك نكارهم ما أمرهم على لسان رسوله صلى عليه وسلم .وقرأ البقية (تُشَاقُّونَ) بفتح النون وحذف المفعول للعلم، أي تعاندون من يدعوكم إلى التوحيد.

و" في "للظرفية المجازية مع حذف مضاف، إذ المشاقة لا تكون في الذوات بل في المعاني .والتقدير :في إلهيتهم أو في شأنهم.

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ)

جملة ابتدائية حكت قول أفاضل الخلائق حين يسمعون قول تعالى على لسان ملائكة العذاب (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)"[٢] .

١: التحرير والتنوير (١٣ / ١٠٩) .

٢: التحرير والتنوير (١٣ / ١١٠) .

وذكر صاحب زاد المسير رحمه   ثلاثة أقوال في معنى الذين أوتوا العلم:

الأول: الملائكة.

والثاني: الحفظة.

والثالث: المؤمنون[1].

ثم يقول ابن عاشُور: "وجيء بجملة)قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ(غير معطوفة لأنها واقعة موقع الجواب لقوله:)أَيْنَ شُرَكَائِيَ(للتنبيه على أن الذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لما وجم المشركون فلم يحيروا جوا ، فأجاب الذين أوتوا العلم جوا جامعا لنفي أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عن الذين أشركوا شيئا، وأن الخزي والسوء أحاطا لكافرين.

والتعبير لمضي لتحقيق وقوع القول.

ويجمل ابن عاشُور رحمه   الأقوال الثلاثة السابقة في هذه العبارات "والذين أوتوا العلم هم الذين آ هم   علم الحقائق من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون

كقوله تعالى:)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ا ّ ِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)، أي يقولون في ذلك الموقف من جراء ما يشاهدون من مهيأ العذاب للكافرين كلاما يدل على حصر الخزي والضر يوم القيامة في الكون على الكافرين .وقد قصر ادعائي المعرف بلام الجنس على حد النهاية في جنسه حتى كأن غيره من جنسه ليس من ذلك الجنس.

و كيد الجملة بحرف التوكيد وبصيغة القصر والإتيان بحرف الاستعلاء الدال على تمكن الخزي والسوء منهم يفيد معنى التعجب من هول ما أعد لهم "[2].

١: زاد المسير (٤ / ٨٩) .

٢: التحرير والتنوير ج١٤، ص١٣٧.

ويقول صاحب التحرير والتنوير: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) ليست من مقول الذين أوتوا العلم يوم القيامة، إذ لا مناسبة لأن يعرف الكافرون يوم القيامة هم الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، فإن صيغة المضارع في قوله تعالى)تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ(قرينة من الصريح في أن هذا التوفي محكي في حال حصوله وهم يوم القيامة مضت وفاتهم ولا فائدة أخرى في ذكر تلك يومئذ، فالأَوْجَهُ أن يكون هذا كلاما مستأنفا .

فالأوجه أن الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ(بدل من)الَّذِينَ(في قوله تعالى:)فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أو صفة لهم، كما يومئ إليه وصفهم في آخر الآية لمتكبرين في قوله تعالى:)فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(فهم الذين وصفوا فيما قبل بقوله تعالى:)وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (وما بينهما اعتراض .

ويخاطب ابن عاشُور القارئ قائلا: "وإن أبيت ذلك لبعد ما بين المتبوع والتابع فاجعل (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ) خبرا لمبتدأ محذوف .والتقدير :هم الذين تتوفاهم الملائكة والمقصود من هذه الصلة وصف حالة الذين يموتون على الشرك؛ فبعد أن ذكر حال حلول العذاب بمن حل بهم الاستئصال)في الآ ت السابقة(وما يحل بهم يوم القيامة ذكرت حالة وفاتهم التي هي بين حالي الدنيا والآخرة، وهي حال تعرض لجميعهم سواء منهم من أدركه الاستئصال ومن هلك قبل ذلك.

واقتران الفعل بتاء المضارعة التي للمؤنث في قراءة الجمهور عتبار إسناده إلى الجماعة .وقرأ حمزة وخلف (يَتَوَفَّاهُمُ) لياء على الأصل.

وظلم النفس :الشرك. [1]

١: التحرير والتنوير (١٣ / ١١٢) .

والإلقاء :مستعار إلى الإظهار المقترن بمذلة .شبه لقاء السلاح على الأرض، ذلك أنهم تركوا استكبارهم وإنكارهم وأسرعوا إلى الاعتراف والخضوع لما ذاقوا عذاب انتزاع أرواحهم.

والسلم – بفتح السين وفتح اللام – الاستسلام .

ووصفهم بـ(ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) يرمي إلى أن توفي الملائكة إ هم ملابس لغلظة وتعذيب، قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) الأنفال: ٥٠.

وجملة (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) مقول قول محذوف دل عليه (أَلْقَوُا السَّلَمَ)، لأن إلقاء السلم أول مظاهره القول الدال على الخضوع. يقولون ذلك للملائكة الذين ينتزعون أرواحهم ليكفوا عنهم تعذيب الانتزاع، وهم من اضطراب عقولهم يحسبون الملائكة إنما يجربونهم لعذاب ليطلعوا على دخيلة أمرهم، فيحسبون أنهم إن كذبوهم راج كذبهم على الملائكة فكفوا عنهم العذاب، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءا من قبل" [(١)] .

ثم يقول: "ولذلك فجملة (بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) جواب الملائكة لهم، ولذلك افتتحت لحرف الذي يبطل به النفي وهو (بَلَى) وقد جعلوا علم بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم:)مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ)، وكناية على أنهم ما عاملوهم لعذاب إلا مر من تعالى العالم بهم.

وأسندوا العلم إلى دون أن يقولوا :إ نعلم ما كنتم تعملون، أد مع وإشعارا نهم ما علموا ذلك إلا بتعليم من تعالى.

١: التحرير والتنوير (١٣ / ١١٢) .

وتفريع (فادْخُلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) على إبطال نفيهم عمل السوء ظاهر، لأن إثبات كونهم كانوا يعملون السوء يقتضي استحقاقهم العذاب، وذلك عندما كشف لهم عن مقرهم الأخير، كما جاء في الحديث" :القبر روضة من ر ض الجنة أو حفرة من حفر النار"[(١)] .

وجملة﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(تذييل.يحتمل أن يكون حكاية كلام الملائكة،والأظهر أنه من كلام ، ووصفهم لمتكبرين يرجح ذلك، فإنه لربط هذه الصفة لموصوف في قوله تعالى:﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .)

واللام الداخلة على" بئس "لام القسم.

والمثوى .المرجع .من ثوى إذا رجع، أو المقام من ثوى إذا أقام .

ولم يعبر عن جهنم لدار كما عبر عن الجنة فيما تي بقوله تعالى :(وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) تحقيرا لهم وأنهم ليسوا في جهنم بمنزلة أهل الدار بل هم منزاصون في النار وهم في مثوى، أي محل ثواء"[(٢)].

وقال السعدي رحمه : (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ) أي :يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على .

(وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) أي :تحاربون وتعادون وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون (ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (أي :العلماء الر نيون) إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ (أي :يوم القيامة (وَالسُّوءَ) أي :العذاب) عَلَى الْكَافِرِينَ (وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون لحق

١: الترمذي (٢٤٦٠) .

٢: التحرير والتنوير (١٣ / ١١٣)

في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) أي :تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

(فَأَلْقَوُا السَّلَمَ (أي :استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون وقالوا (:مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ (فيقال لهم (:بَلَى (كنتم تعملون السوء) إِنَّ ا ّ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (فلا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

(فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ) كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، (فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) ر جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتَّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم"[١]

وقال صاحب الظلال: "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ، وَيَقُولُ) :أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ)؟

ويرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزي وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر .وجاءوا إلى صاحب الخلق والأمر، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب:)أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ؟(أين شركائي الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرسول والمؤمنين، وتجادلون فيهم المقرين الموحدين؟.

١: تفسير السعدي (١ / ٤٣٨) .

ويسكت القوم من خزي، لتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين وقد أذن ا ّ لهم أن يكونوا في هذا اليوم متكلمين ظاهرين:)قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ) .. (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ(فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة .يعود بهم إلى ساعة الاحتضار، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين، وبما أوردوها موارد الهلاك، وبما قادوها في النهاية إلى النار والعذاب.

ويرسم مشهدهم في ساعة الاحتضار، وهم قريبو عهد لأرض، وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد:

(فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ!) ألقوا السلم .هؤلاء المستكبرون .فإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام !ثم يكذبون - ولعله طرف من مكرهم في الدنيا - فيقولون مستسلمين:)ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ !)وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين !ويجيئهم الجواب:)بَلى (من العليم بما كان منهم)إِنَّ ا َّ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه.

ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين: (فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ!"[1]

١: في ظلال القرآن (٤ / ٢١٦٨) .

النموذج العاشر:

(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) النحل: ٨٥-٨٧ .

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: وإذا شاهد الذين كفروا عذاب في الآخرة فلا يخفف عنهم منه شيء ولا يمهلون ولا يؤخر عذابهم وإذا أبصر المشركون يوم القيامة آلهتهم التي عبدوها مع قالوا ربنا هؤلاء شركاؤ الذين كنا نعبدهم من دونك فنطقت الآلهة بتكذيب من عبدوها وقالت إنكم- أيها المشركون -لكاذبون حين جعلتمو شركاء لله، وعبدتمو معه فلم مركم بذلك ولا زعمنا أننا مستحقون للألوهية فاللوم عليكم وأظهر المشركون الاستسلام والخضوع لله يوم القيامة وغاب عنهم ما كانوا يختلقونه من الأكاذيب وأن آلهتهم تشفع لهم . اهـ

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: " (إذا) شرطية ظرفية، وجملتها" فلا يخفف عنهم العذاب"، وقرن لفاء لتأكيد معنى الشرطية، والجوابية لدفع احتمال الاستئناف.

و(الَّذِينَ ظَلَمُوا(هم الذين كفروا، فالتعبير به من الإظهار في مقام الإضمار لقصد إجراء صفات المتلبسين بها عليهم .والمعنى :فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون، ثم يساقون إلى العذاب فإذا رأوه لا يخفف عنهم، أي يسألون تخفيفه أو خير الإقحام فيه فلا يستجاب لهم شيء من ذلك. وأطلق العذاب على آلاته ومكانه.

وجاء المسند إليه مخبرا عنه لجملة الفعلية، لأن الإخبار لجملة الفعلية عن الاسم يفيد تقوي الحكم، فأريد تقوي حكم النفي، أي أن عدم تخفيف العذاب عنهم محقق الوقوع لا طماعية في إخلافه، فحصل كيد هذه الجملة كما حصل كيد الجملة التي قبلها لفاء، أي فهم يلقون بسرعة في العذاب.

(الَّذِينَ أَشْرَكُوا) هم الذين ظلموا الذين يرون العذاب، وهم الذين كفروا والذين لا يؤذن لهم .وإجراء هذه الصلات الثلاث عليهم لز دة التسجيل عليهم نواع إجرامهم الراجعة إلى تكذيب ما دعاهم   إليه، وهو نكتة الإظهار في مقام الإضمار هنا، كما تقدم في قوله تعالى:)وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ.)

فالإشراك المقصود هنا هو إشراكهم الأصنام في صفة الإلهية مع   تعالى، فيتعين أن يكون المراد لشركاء الأصنام، أي الشركاء لله حسب اعتقادهم .وبهذا الاعتبار أضيف لفظ" شركاء "إلى ضمير)الَّذِينَ ظَلَمُوا(في قوله تعالى:)شُرَكَاءَهُمْ)، فالإضافة للتهكم . والمعنى :إذا رأى الذين أشركوا الشركاء عندهم، أي في ظنهم.

ويصح أن نجعل (شركاء) لقبا زال منه معنى الوصف لشركة وصار لقبا للأصنام، فتكون الإضافة على أصلها.

والمعنى :أنهم يرون الأصنام حين تقذف معهم في النار، قال تعالى:)وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)[1].

ويقول القرطبي: "شركاؤهم أي أصنامهم وأو نهم التي عبدوها، وذلك أن   يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار .وفى صحيح مسلم ":من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان

١: التحريرو التنوير (١٣ / ١٩٩) .

يعبد الطواغيت الطواغيت"[1]، وللترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه "فيمثل لصاحب الصليب صليبه ولصاحب التصاوير تصاويره ولصاحب النار ره فيتبعون ما كانوا يعبدون[2] وذكر الحديث"[3] .

وقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُ﴾ كما يقول ابن عاشور: "إما من قبيل الاعتراف عن غير إرادة فضحا لهم، كقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾، وإما من قبيل التنصل وإلقاء التبعة على المعبودات كأنهم يقولون هؤلاء أغرو بعبادتهم من قبيل قوله تعالى(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا)"[4].

وفي الشوكاني: "قال أبو مسلم الأصفهاني: مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللاً بذلك، واسترواحاً، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه"[5].

والفاء في (فَأَلْقَوْا) للتعقيب كما يقول ابن عاشور، "للدلالة على المبادرة بتكذيب ما تضمنه مقالهم، أنطق تلك الأصنام فكذبت ما تضمنه مقالهم من كون الأصنام شركاء لله، أو من كون عبادتهم غراء منها تفضيحا لهم وحسرة عليهم.

والجمع في اسم الإشارة" هؤلاء "واسم الموصول" الذين "جمع العقلاء جر على اعتقادهم إلهية الأصنام.

ولما كان نطق الأصنام غير جار على المتعارف عبر عنه لإلقاء المؤذن بكون القول أجراه على أفواه الأصنام من دون أن يكونوا طقين فكأنه سقط منها. [1]

١: صحيح مسلم (٤٦٩) .

٢: الترمذي (٢٥٥٧) .

٣: تفسير القرطبي (١٠ / ١٦٣) .

٤: التحرير والتنوير (١٣ / ١٩٩) .

٥: فتح القدير (٤ / ٢٥٣) .

وإسناد الإلقاء إلى ضمير الشركاءاستعارة.

وأجرى عليهم ضمير جمع العقلاء في فعل"ألقوا"مشاكلة لاسم الإشارة واسم الموصول للعقلاء.

وتكون جملة (إنكم لكاذبون)بدل من)القول .)وأعيد فعل)أَلْقَوْا(في قوله(وَأَلْقَوْا إِلَى ا ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ(لاختلاف فاعل الإلقاء، فضمير القول الثاني عائد إلى)الَّذِينَ أَشْرَكُوا.)

وقد يكون التعبير لإلقاء كما يقول صاحب التحرير، تمثيلا لحالهم بحال المحارب إذا غلب إذ يلقي سلاحه بين يدي غالبه، ففي قوله :(أَلْقَوْا) مكنية تمثيلية مع ما في لفظ (أَلْقَوْا) من المشاكلة.

والسلم – بفتح اللام :– الاستسلام، أي الطاعة وترك العناد.

(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي غاب عنهم وزايلهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الاختلاقات للأصنام من أنها تسمع لهم ونحو ذلك"[٢].

ويقول ابن الجوزي: "فإن قيل: فهذا معلوم عند تعالى، فما فائدة قولهم: (هؤلاء شركاؤ)؟ فعنه جوا ن:

أحدهما: أنهم لما كتموا الشرك في قولهم: و ِ ما كنا مشركين، عاقبهم تعالى صمات ألسنتهم، وإنطاق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: (ربنا هؤلاء شركاؤ) أي: قد أقرر بعد الجحد، وصدَّقنا بعد الكذب، التماساً للرحمة، وفراراً من الغضب، وكأنَّ هذا القول منهم على وجه الاعتراف لذنْب، لا على وجه إعلام من لا يعلم .

١: التحرير والتنوير (١٣ / ١١٩) .

٢: التحرير والتنوير (١٣ / ٢٠٠) .

والثاني: أنهم لما عاينوا عِظَم غضب تعالى قالوا: هؤلاء شركاؤ ، تقديرَ أن يعود عليهم من هذا القول روح، وأن تلزم الأصنام إجرامهم، أو بعض ذنوبهم إِذْ كانوا يدَّعون لها العقل والتمييز، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم"[1]

ويقول صاحب الظلال: (وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع ا أو من دون ا .فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون !(رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُ الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ) فاليوم يقرون: (رَبَّنا) واليوم لا يقولون عن هؤلاء إنهم شركاء .إنما يقولون: (هؤُلاءِ شُرَكاؤُ) .. ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل، فإذا هم يجبهون عبادهم لكذب في تقرير وتوكيد:)فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ(ويتجهون إلى ا مستسلمين خاضعين)وَأَلْقَوْا إِلَى ا يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ(..وإذا المشركون لا يجدون من مفنز لهم شيئا يعتمدون عليه في موقفهم العصيب:)وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ"[2] .

١: زاد المسير (٤ / ١٢٠) .

٢: في ظلال القرآن (٤ / ٢١٨٨) .

النموذج الحادي عشر:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ووضع كتاب أعمال كل واحد في يمينه أو في شماله فتبصر العصاة خائفين مما فيه بسبب ما قدموه من جرائمهم ويقولون حين يعاينونه هلاكنا مال هذا الكتاب لم يترك صغيرة من أفعالنا ولا كبيرة إلا أثبتها ؟ ووجدوا كل ما عملوه في الدنيا حاضرا مثبتا ولا يظلم ربك أحدا مثقال ذرة، فلا ينقص طائع من ثوابه ولا يزاد عاص في عقابه . اهـ

التفسير التفصيلي:

(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين)..

قال ابن عاشور: "جملة (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) معطوفة على جملة (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ)، فهي في موضع الحال، أي وقد وضع الكتاب.

والكتاب مراد به الجنس، أي وضعت كتب أعمال البشر، لأن لكل أحد كتا ، كما في قوله تعالى:)وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً(الآية .وإفراد الضمير في قوله (مما فيه) لمراعاة إفراد لفظ) الكتاب"[١] .

(ووضع الكتاب) قال ابن الجوزي "فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الكتاب الذي سُطِر فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم، قاله ابن عباس .

والثاني: أنه الحساب، قاله ابن السائب .

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨١) .

والثالث: كتاب الأعمال، قاله مقاتل"[١] .

قال القرطبي: "فعبر عن الحساب لكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر"[٢] .

وقال صاحب التحرير والتنوير: "وتفرع على وضع الكتاب بيان حال المجرمين عند وضعه.

ومن إبداعاته رحمه قوله: والخطاب في قوله(فترى) لغير معين، وليس للنبي صلى عليه وسلم لأن الرسول صلى عليه وسلم يومئذ في مقامات عالية عن ذلك الموضع.

والإشفاق :الخوف من أمر يحصل في المستقبل.

والتعبير لمضارع في (يقولون) لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرر قولهم ذلك وإعادته شأن الفزعين الخائفين.

ونداء الويل :ندبة للتوجع من الويل .وأصله نداء استعمل مجازا بتنزيل ما لا ينادى منزلة ما ينادى لقصد حضوره، كأنه يقول :هذا وقتك فاحضري، ثم شاع ذلك فصار لمجرد الغرض من النداء وهو التوجع ونحوه.

والويلة : نيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاك .كما أنثت الدار على دارة، للدلالة على سعة المكان .

والاستفهام في قولهم :(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ(مستعمل في التعجيب .فما المتقدمة اسم استفهام، ومعناها :أي شيء، و)هَذَا الْكِتَابِ(صفة ـل)ما(الاستفهامية لما فيها من التنكير، أي ما ثبت لهذا الكتاب.

١: زاد المسير (٤ / ٢٢٩) .

٢: تفسير القرطبي (١٠ / ٢١٨) .

واللام للاختصاص مثل قوله:)مَا لَكَ لا ۡ َمَنَّا عَلَى يُوسُف.)

وجملة (لا يغادر) في موضع الحال، وهي مثار التعجيب، وقد جرى الاستعمال بملازمة الحال لنحوما لك فيقولون :(ما لك) لا تفعل وما لك فاعلا. [1]

قال الشوكاني: المراد لكتاب: صحائف الأعمال، والوضع إما حسي ن توضع صحيفة كل واحد في يده: السعيد في يمينه، والشقيّ في شماله، أو في الميزان . وإما عقلي، أي: أظهر عمل كل واحد من خير وشرّ لحساب الكائن في ذلك اليوم. [2]

(فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) أي: خائفين وجلين مما في الكتاب الموضوع لما يتعقب ذلك من الافتضاح في ذلك الجمع، والمجازاة لعذاب الأليم.

والصغيرة والكبيرة— كما قال في التحرير والتنوير :-وصفان لموصوف محذوف لدلالة المقام

أي فعلة أو هنة .والمراد لصغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة . والعظم والحقارة يكو ن بحسب الوضوح والخفاء ويكو ن بحسب القوة والضعف.

وتقديم ذكر الصغيرة لأنها أهم من حيث يتعلق التعجب من إحصائها .وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم في الإحصاء لأن التعميم أيضا مما يثير التعجب .فقد عجبوا من إحاطة كاتب الكتاب بجميع الأعمال.

والاستثناء من عموم أحوال الصغيرة والكبيرة، أي لا يبقي صغيرة ولا كبيرة في جميع أحوالهما إلا في حال إحصائه إ ها، أي لا يغادره غير محصي .فالاستثناء هنا من كيد الشيء بما يشبه ضده لأنه إذا أحصاه فهو لم يغادره، فآل إلى معنى أنه لا يغادر شيئا، وانتفت حقيقة الاستثناء.

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨١) .

٢: الشوكاني (٤ / ٣٩٩) .

فجملة (أحصاها) في موضع الحال .والرابط بينها وبين صاحب الحال حرف الاستثناء.

والإحصاء :العد، أي كانت أفعالهم معدودة مفصلة. [1]

ثم يقول: وجملة)وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً) في موضع الحال من ضمير)يقولون(.أي إنما قالوا ذلك حين عرضت عليهم أعمالهم كلها عند وضع ذلك الكتاب عرضا سريعا حصل به علم كل بما في كتابه على وجه خارق للعادة.

وجملة (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) عطف على جملة)وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً(لما أفهمته الصلة من أنهم لم يجدوا غير ما عملوا، أي لم يحمل عليهم شيء لم يعملوه، لأن لا يظلم أحدا فيؤاخذه بما لم يقترفه، وقد حدد لهم من قبل ذلك ما ليس لهم أن يفعلوه وما أمروا بفعله، وتوعدهم ووعدهم، فلم يكن في مؤاخذتهم بما عملوه من المنهيات بعد ذلك ظلم لهم"[2].

قال صاحب الظلال: ومن الحشر الجامع الذي لا يخلف أحدا إلى العرض الشامل: (وعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا..)

هذه الخلائق التي لا يحصى لها عدد، منذ أن قامت البشرية على ظهر هذه الأرض إلى نهاية الحياة الدنيا .. هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة، لم يتخلف منها أحد، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفي أحدا.

وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب .فكأنما المشهد حاضر اللحظة، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه .ونرى الخزي على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك

١: التحرير والتنوير (١٥ / ٨٢) .

٢: التحرير (١٥ / ٨٢) .

الموقف وأنكروه: (ولَقَدْ جِئْتُمُو كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً).

هذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه .كأنما هو حاضر اللحظة، لا مستقبل في ضمير الغيب في يوم الحساب.

وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه، والذل في الملامح، ونداء الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين لتأنيب: (قَدْ جِئْتُمُو كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّة)، وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون!(بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً).

وبعد إحياء المشهد واستحضاره بهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يعود إلى وصف ما هناك:(وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيه) فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق .وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا ينزك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة:)وَيَقُولُونَ: وَيْلَتَنا .ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً، إِلَّا أَحْصاها؟(وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب، وقد ضبط مكشوفا لا يملك تفلتا ولا هر ، ولا مغالطة ولا مداورة:)وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً(ولا قوا جزاء عادلا:)وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدا)[1] .

١: في ظلال القرآن (٤ / ٢٢٧٤) .

النموذج الثاني عشر:

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ ◌ْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ◌َ وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ا ◌َّ ◌ِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) الأنبياء: ٩٦-١٠٠.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: فإذا فتح سد جوج ومأجوج وانطلقوا من مرتفعات الأرض وانتشروا في جنباتها مسرعين د يوم القيامة وبدت أهواله فإذا أبصار الكفار من شدة الفزع مفتوحة لا تكاد تطرف يدعون على أنفسهم لويل في حسرة ويلنا قد كنا لاهين غافلين عن هذا اليوم وعن الإعداد له وكنا بذلك ظالمين، إنكم- أيها الكفار - وما كنتم تعبدون من دون من الأصنام ومن رضي بعبادتكم إ ه من الجن والإنس وقود جهنم وحطبها أنتم وهم فيها خالدون، لو كان هؤلاء الذين عبدتموهم من دون تعالى آلهة تستحق العبادة ما دخلوا ر جهنم معكم أيها المشركون إن كلا من العابدين والمعبودين خالدون في ر جهنم . اهـ

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور: "هذه الجملة عطف على الجملة السابقة، فتحت جوج ومأجوج، والمراد ما بعد الفتح من الحساب، وقال الكسائي والفراء، المراد لوعد الحق: القيامة"[١].

(فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا)

١: فتح القدير (٥ / ٨١) .

يقول القرطبي: هِيَ "ضمير الأبصار، والأبصار المذكورة بعدها تفسير لها كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجيء الوعد"[1] .

وقال الشوكاني: "والضمير في (فَإِذَا هِيَ) للقصة، أو مبهم يفسره ما بعده، وإذا للمفاجأة . وقيل: إن الكلام تمّ عند قوله (هي)، والتقدير: فإذا هي، يعني: القيامة رزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتدأ فقال: (شاخصة أبصار الذين كفروا (على تقديم الخبر على المبتدإ، أي أبصار الذين كفروا شاخصة"[2] .

ويقول ابن عاشُور: "واقتزاب الوعد الحق للإشارة إلى سرعة حصول تلك الحالة لهم ثم بتصدير الجملة بحرف المفاجأة والمجازاة الذي يفيد الحصول دفعة بلا تدرج ولا مهلة، ثم لإتيان بضمير القصة ليحصل للسامع علم مجمل يفصله ما يفسر ضمير القصة فقال تعالى:)فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)إلى آخره.

والشخوص :إحداد البصر دون تحرك كما يقع للمبهوت.

وجملة:) َ وَيْلَنَا(مقول قول محذوف كما هو ظاهر، أي يقولون حينئذ : ويلنا.

وقد مر معك سابقا معنى كلمة ويل!!..

قوله في غفلة: قد دلت" في "على تمكن الغفلة منهم حتى كأنها محيطة بهم إحاطة الظرف لمظروف، أي كانت لنا غفلة عظيمة، وهي غفلة الإعراض عن أدلة الجزاء والبعث"[3].

ويقول القرطبي: "يقولون : ويلنا إ كنا ظالمين بمعصيتنا، ووضْعِنا العبادة في غير موضعها"[4]

١: تفسير القرطبي (١١ / ٣٤٢) .

٢: فتح القدير (٥ / ٨٢) .

٣: التحرير والتنوير (١٧ / ١١١) .

٤: تفسير القرطبي (٨ / ٣٨٨) .

ويقول ابن عاشُور: "وجملة: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ا ّ ِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) جواب عن قولهم :(َ وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) إلى آخره .فهي مقول قول محذوف على طريقة المحاورات، فالتقدير :يقال لهم :إنكم وما تعبدون من دون حصب جهنم.

وهو ارتقاء في ثبورهم فهم قالوا :(َ وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا) فأخبروا ن آلهتهم وهم أعز عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان، ولذلك أكد الخبر بحرف التأكيد لأنهم كانوا بحيث ينكرون ذلك.

ثم إن)ما(موصولة، وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل . وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجن والشياطين تغليبا، على أن)ما(تستعمل فيما هو أعم من العاقل وغيره استعمالا كثيرا في كلام العرب.

وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد كما دلت عليه الإشارة(لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا) (١).

وقال ابن الجوزي: " فيه ثلاثة أقوال .

أحدها: أنه إشارة إلى الأصنام، والمعنى: لو كانوا آلهةً ما دخلوا النار .

والثاني: أنه إشارة إلى عابديها، فالمعنى: لو كانت الأصنام آلهة، منعت عابديها دخول النار .

والثالث: أنه إشارة إلى الآلهة وعابديها، بدليل قوله تعالى: { وكلٌّ فيها خالدون } يعني: العابد والمعبود"(٢) .

١: التحرير والتنوير (١٧ / ١١٢) .

٢: زاد المسير (٤ / ٣٦٢) .

وقال ابن عاشُور "والحصب :اسم بمعنى المحصوب به .أي المرمي به .ومنه سميت الحصباء لأنها حجارة يرمى بها، أي يرمون في جهنم، كما قال تعالى)وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ(.أي الكفار وأصنامهم"(١).

وفي القرطبي :"قال مجاهد وعكرمة وقتادة :حصب جهنم حطبها .وقرأ علي ابن أبي طالب وعائشة رضوان عنهما (حطب جهنم) لطاء"(٢) .

قال ابن عاشُور: "وجملة أنتم لها واردون والمقصود منه :تقريب الحصب بهم في جهنم لما يدل عليه قوله :(وَارِدُونَ) من الاتصاف بورود النار في الحال كما هو شأن الخبر سم الفاعل"(٣) .

وقال القشيري في قوله: (وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ) "مِنْ نداءٍ يبشرهم نقضاءِ عقوبتهم"(٤) .

وقال ابن كثير: (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ)، كَمَا قَالَ :(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)والزفير :خروج أنفاسهم، والشهيق :ولوج أنفاسهم"(٥) .

يقول ابن عاشُور: "وقد زيد في نكايتهم ظهار خطئهم في عبادتهم تلك الأصنام ن أشهدوا إيرادها النار وقيل لهم :(لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا).

وذيل ذلك بقوله تعالى(كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) أي هم وأصنامهم.

والزفير :النفس يخرج من أقصى الرئتين لضغط الهواء من التأثر لغم .وهو هنا من أحوال المشركين دون الأصنام، وعطف جملة(وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ) اقتضاه قوله :(لَهُمْ

١: التحرير والتنوير (١٧ / ١١٢) .

٢: تفسير القرطبي (١١ / ٣٤٣) .

٣: التحرير والتنوير (١٧ / ١١٢) .

٤: تفسير القشيري (٥ / ١٥٥) .

٥: تفسير ابن كثير (٥ / ٣٧٧) .

فِيهَا زَفِيرٌ) لأن شأن الزفير أن يسمع فأخبر   هم من شدة العذاب يفقدون السمع بهذه المناسبة.

(ـوَيْلَنا !قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا .بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ)[١] .

وقال صاحب الظلال: "وهو تفجُّعُ المفْجُوءِ الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة، فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف ويدعو لويل والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان !وحين يصدر هذا الاعتراف في ذهول المفاجأة يصدر الحكم القاطع الذي لا مرد له: (إِنَّكُمْ وَمـاتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ا ّ ِ حَصَبُ جَهَنَّمَـأَنْتُمْ لَها وارِدُونَ)، وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة وكأنما هم يقذفون فيها قذفا بلا رفق ولا أ ة وكأنما تحصب بهم حصبا كما تحصب لنواة !وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة .يوجه إليهم البرهان من هذا الواقع المشهود (لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها) وهو برهان وجداني ينتزع من هذا المشهد المعروض عليهم في الدنيا، وكأنما هو واقع في الآخرة .. ثم يستمر السياق على أنهم قد وردوا جهنم فعلا، فيصف مقامهم فيها، ويصور حالهم هناك وهي حال المكروب المذهوب دراكه من هول ما هو فيه(وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ .لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ، وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ)."[٢] .

قال السعدي رحمه   : "ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد، وهو راض بعبادته.

وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيهاويدخلون في قوله (:إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى (أي :سبقت لهم سابقة

١: التحرير والتنوير (١٧ / ١١٢) .

٢: في ظلال القرآن (٤ / ٢٣٩٩) .

السعادة في علم ، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة"[1] .

١: تفسير السعدي (١ / ٣٥١) .

النموذج الثالث عشر:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آ َ تِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْ َ فَإِ ّ ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِ ًّ حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُون) سورة المؤمنون:١٠١-١١١.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: فإذا كان يوم القيامة ونفخ الملك المكلف في" القرن " وبعث الناس من قبورهم فلا تفاخر في الأنساب حينئذ كما كانوا يفتخرون بها في الدنيا ولا يسأل أحد أحدا، فمن كثرت حسناته وثقلت بها موازين أعماله عند الحساب فأولئك هم الفائزون لجنة ومن قلت حسناته في الميزان ورجحت سيئاته.. فأولئك هم الذين خابوا وخسروا أنفسهم في ر جهنم خالدون، تحرق في النار وجوههم وهم فيها عابسون تقلصت شفاههم وبرزت أسنانهم، يقال لهم ألم تكن آ ت القرآن تتلى عليكم في الدنيا فكنتم بها تكذبون ؟ لما بلّغتهم الرسل وأنذرتهم قالوا يوم القيامة ربنا غلبت علينا لذاتنا وأهواؤ المقدرة علينا في سابق علمك وكنا في فعلنا ضالين عن الهدى ربنا أخرجنا من النار وأعد إلى الدنيا فإن رجعنا إلى الضلال فإ ظالمون نستحق العقوبة، قال عز وجل لهم امكثوا في النار أذلاء ولا تخاطبوني فانقطع عند ذلك دعاؤهم ورجاؤهم، إنه كان فريق من عبادي— وهم المؤمنون –يدعون: ربنا آمنا فاستر عيوبنا وارحمنا وأنت خير

الراحمين، فاشتغلتم لاستهزاء بهم حتى نسيتم ذكر فبقيتم على تكذيبكم وقد كنتم تضحكون منهم سخرية واستهزاءا إني جزيت هذا الفريق من عبادي المؤمنين الفوز لجنة بسبب صبرهم على الأذى وطاعة . اهـ

التفسير التفصيلي:

قال القرطبي: "(فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ) المراد بهذا النفخ النفخة الثانية"[1] .

ويقول ابن عاشور: "إن جملة (فإذا نفخ في الصور) تفريع على قوله (إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) السابقة.

فإن زمن النفخ في الصور هو يوم البعث .فالتقدير :فإذا جاء يوم يبعثون، ولكن عدل عن ذلك إلى)فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ(تصويرا لحالة يوم البعث.

والصور :البوق الذي ينفخ فيه النافخ للتجمع والنفير،وضمير بينهم عائد إلى ما عادت عليه ضمائر جمع الغائبين قبله وهي عائدة إلى المشركين.

ومعنى نفي الأنساب نفي آ رها من النجدة والنصر والشفاعة لأن تلك في عرفهم من لوازم القرابة .فقوله(فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ(كناية عن عدم النصير.

والتساؤل :سؤال بعضهم بعضا .والمعنى به التساؤل المناسب لحلول يوم الهول، وهو أن يسأل بعضهم المعونة والنجدة، كقوله تعالى(وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً(.

وأما إثبات التساؤل يومئذ في قوله تعالى :(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ ـتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ فحقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِ لَذَائِقُونَ فأَغْوَيْنَاكُمْ إِ كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) فذلك بعد سهم من وجود نصير أو شفيع .

١: تفسير القرطبي (١٢ / ١٥١) .

وفي البخاري: "أن رجلا هو فع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس :إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال(فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ(وقال(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(فقال ابن عباس: أما قوله:)فلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ(فهو في النفخة الأولى فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون"[1] انتهى، يريد اختلاف الزمان وهو قريب مما قلناه .[2]

وذكر من (ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) في هذه الآية إدماج للتنويه لمؤمنين وتهديد المشركين – كما يقول صاحب التحرير والتنوير – لأن المشركين لا يجدون في موازين الأعمال الصالحة شيئا، والخسارة :نقصان مال التجارة. [وتقدم الكلام عنها في النموذج الثالث من نماذج الاعتزاف] .

وهي هنا تمثيل لحال خيبتهم فيما كانوا ملونه من شفاعة أصنامهم وأن لهم النجاة في الآخرة أو من أنهم غير صائرين إلى البعث، فكذبوا بما جاء به الإسلام وحسبوا أنهم قد أعدوا لأنفسهم الخير فوجدوا ضده فكانت نفوسهم مخسورة كأنها تلفت منهم، ولذلك نصب أنفسهم على المفعول بخسروا.

وجملة (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) في موضع الحال من (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) ومعنى (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ) تحرق .واللفح :شدة إصابة النار.

والكالح :الذي به الكلوح وهو تقلص الشفتين وظهور الأسنان من أثر تقطب أعصاب الوجه عند شدة الألم .

١: صحيح البخاري (٦ / ١٥٩) .

٢: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٣) .

وجملة (أَلَمْ تَكُنْ آ َ يَِ ـتُتْلَى عَلَيْكُمْ) مقول قول محذوف، أي يقال لهم يومئذ .وهذا تعرض لبعض ما يجري يومئذ .والآ ت :آ ت القرآن بقرينة قوله :(تُتْلَى عَلَيْكُمْ) والتلاوة :القراءة.

والغلب حقيقته :الاستيلاء والقهر .وأطلق هنا على التلبس لشقوة دون التلبس لسعادة . ومفعول (غَلَبَتْ) محذوف يدل عليه (شِقْوَتُنَا) لأن الشقوة تقابلها السعادة، أي غلبت شقوتنا السعادة .والمجرور بعلى بعد مادة الغلب هو الشيء المتغالب عليه كما في الحديث قال النساء :غلبنا عليك الرجال[1] ؛ مثلت حالة اختيارهم لأسباب الشقوة بدل أسباب السعادة بحالة غائرة بين السعادة والشقاوة على نفوسهم .وإضافة الشقوة إلى ضميرهم لاختصاصها بهم حين صارت غالبة عليهم.

والشقوة بكسر الشين وسكون القاف في قراءة الجمهور .وهي زنة الهيئة من الشقاء . وقرأ حمزة والكسائي وخلف شقاوتنا بفتح الشين و لف بعد القاف وهو مصدر على صيغة الفعالة مثل الجزالة والسذاجة"[2] .

وفي القرطبي "أحسن ما قيل في معناه، يعني الشقوة: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤ فسمى اللذات والأهواء شقوة"[3] .

ويقول في التحرير: "وز دة قوله (قَومَاً) ليدل على أن الضلالة من شيمتهم وبها قوام قوميتهم وهم ظنوا أنهم إن أخرجوا من النار رجعوا إلى الإيمان والعمل الصالح فالتزموا لله لهم لا يعودون إلى الكفر والتكذيب، لكن يقابله: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه).

١: صحيح البخاري حديث (١٠٢).

٢: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٤) .

٣: تفسير القرطبي (١٢ / ١٥٣) .

وحذف مفعول (عُدْ َ) لظهوره من المقام إذ كان إلقاؤهم في النار لأجل الإشراك والتكذيب كما دل عليه قولهم :(وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ)"[١]

وقال القرطبي: "أي كنا في فعلنا ضالين عن الهدى .وليس هذا اعتذارا منهم إنما هو إقرار، ويدل على ذلك قولهم(رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْ فَإِ ّ ظالِمُونَ) طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت ".فَإِنْ عُدْ "إلى الكفر "فَإِ ّ ظالِمُونَ "لأنفسنا لعود إليه فيجابون كما قال القرطبي: بعد ألف سنة(اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ)أي ابعدوا في جهنم"[٢] .

ويقول ابن عاشور (اخْسَأُوا) زجر شتم لهم خاسئون، ومعناه عدم استجابة طلبهم. وفعل خسأ من ب منع ومعناه ذل .ونهوا عن خطاب والمقصود ييسهم من النجاة مما هم فيه"[٣] .

قال البغوي: (وَلا تُكَلِّمُونِ) في رفع العذاب، فإني لا أرفعه عنكم، فعند ذلك أيس المساكين من الفرج، وقال الحسن :هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعدها إلا الشهيق والزفير"[٤] .

وقال في التحرير "وجملة (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي) إلى آخرها استئناف قصد منه إغاظتهم بمقابلة حالهم يوم العذاب بحال الذين أنعم عليهم، وتحسيرهم على ما كانوا يعاملون به المسلمين .

١: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٤) .

٢: تفسير القرطبي (١٢ / ١٥٣) .

٣: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٤) .

٤: تفسير البغوي (١٧ / ١٢٢) .

والإخبار في قوله :(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي) إلى قوله:)سِخْرِ ّ ً(مستعمل في كون المتكلم عالما بمضمون الخبر بقرينة أن المخاطب يعلم أحوال نفسه .و كيد الخبر(إِنَّ) وضمير الشأن للتعجيل رهابهم.

وجملة (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ) خبر)إنَّ(الأولى لز دة التأكيد .

والسخري: بضم السين في قراءة فع والكسائي وأبي جعفر وخلف، وبكسر السين في قراءة الباقين، قال القرطبي: هما لغتان بمعنى واحد، كما يقال :عصى وعصى، ولجي ولجي.

وقال ابن عاشُور: وهما وجهان ومعناهما واحد عند المحققين من أئمة اللغة لا فرق بينهما.

فلما قصد منه المبالغة في حصول المصدر أدخلت عليه ء النسبة كما يقال لك الخصوصية لمصدر الخصوص، وسلط الاتخاذ على المصدر للمبالغة كما يوصف لمصدر . والمعنى :اتخذتموهم مسخورا بهم"[١] .

(حتى أنسوكم ذكري)، قال القرطبي: "أي اشتغلتم لاستهزاء بهم عن ذكري"[٢] .

ويقول ابن عاشُور: "و(حَتَّى) ابتدائية ومعنى (حتى) الابتدائية معنى فاء السببية فهي استعارة تبعية .شبه التسبب القوي لغاية فاستعملت فيه)حَتَّى(.والمعنى :أنكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن من الذكر لأنهم سخروا منهم لأجل أنهم مسلمون فقد سخروا من الدين الذي كان اتباعهم إ ه سبب السخرية بهم فكيف يرجى من هؤلاء التذكر بذلك الذكر وهو من دواعي السخرية هله"[٣] .

١: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٥) .

٢: تفسير القرطبي (١٢ / ١٥٥) .

٣: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٥) .

(وكنتم منهم تضحكون(قال القرطبي :"أي استهزاء بهم"[١] .

ثم إن إسناد الإنساء إلى الفريق مجاز لحذف -كما يقول ابن عاشُور- "لأنهم سببه أو هو مجاز لحذف بتقدير :حتى أنساكم السخري بهم ذكري، والقرينة على الأول معنوية وعلى الثاني لفظية. [٢]

(أنهم هم الفائزون :)قرأه الجمهور بفتح همزة)أَنَّ(على معنى المصدرية والتأكيد أي جزيتهم نهم .وقرأه حمزة والكسائي بكسر همزة)أَنَّ(على التأكيد فقط فتكون استئنافا بيانيا للجزاء.

وضمير الفصل للاختصاص، أي هم الفائزون لا أنتم.

وقوله :(بِمَا صَبَرُوا(إدماج للتنويه لصبر، والتنبيه على أن سخريتهم بهم كانت سببا في صبرهم الذي أكسبهم الجزاء .وفي ذلك ز دة تلهيف للمخاطبين ن كانوا هم السبب في ضر أنفسهم ونفع من كانوا يعدونهم أعداءهم"[٣] .

(إني جزيتهم اليوم بما صبروا :)قال القرطبي: "ويستفاد من هذا :التحذير من السخرية والاستهزاء لضعفاء والمساكين والاحتقار لهم، والإزراء عليهم والاشتغال بهم فيما لا يغنى، وأن ذلك مبعد من عز وجل"[٤] .

وقال صاحب أضواء البيان: "قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . قَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ فِي مَسْلَكِ الْإِيمَاءِ وَالتَّنْبِيهِ، أَنَّ إِنَّ الْمَكْسُورَةَ الْمُشَدَّدَةَ مِنْ حُرُوفِ التَّعْلِيلِ، كَقَوْلِكَ: عَاقِبْهُ إِنَّهُ مُسِيءٌ، أَيْ: لِأَجْلِ إِسَاءَتِهِ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ:

١: تفسير القرطبي (١٢ / ١٥٥) .

٢: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٥) .

٣: التحرير والتنوير (١٨ / ١٠٦) .

٤: تفسير القرطبي (١٢ / ١٥٥) .

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي، يَدُلُّ فِيهِ لَفْظُ إِنَّ الْمَكْسُورَةِ الْمُشَدَّدَةِ، عَلَى أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي أَدْخَلَتْهُمُ النَّارَ هِيَ اسْتِهْزَاؤُهُمْ، وَسُخْرِيَتُهُمْ مِنَ الْفَرِيقِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقُولُ: رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، فَالْكُفَّارُ يَسْخَرُونَ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْسِيَهُمْ ذَلِكَ ذِكْرَ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِهِ فَيَدْخُلُونَ بِذَلِكَ النَّارَ .

وَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ أَشَارَ لَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا الْآيَةَ، وَكُلُّ ذَلِكَ احْتِقَارٌ مِنْهُمْ لَهُمْ، وَإِنْكَارُهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِخَيْرٍ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ احْتِقَارٌ مِنْهُمْ لَهُمْ" إلى أن يقول: "وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْكُفَّارَ يُسَخِّرُونَ ضُعَفَاءَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْتَعْبِدُونَهُمْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ بِبِلَالٍ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ الصَّوَابَ هُوَ مَا ذَكَرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَحَتَّى فِي قَوْلِهِ: حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي حَرْفُ غَايَةٍ ؛ لِاتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ سِخْرِيًّا، أَيْ: لَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ، حَتَّى أَنْسَاهُمْ ذَلِكَ ذِكْرَ اللَّهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ، فَكَانَ مَأْوَاهُمُ النَّارَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ"[1] .

وقال النسفي: "وقول أهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح، لأنه إنما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم أنه يختاره ولا يكتب غير الذي علم أنه يختاره فلا يكون مغلوباً ومضطراً في الفعل، وهذا لأنهم إنما يقولون ذلك القول اعتذاراً لما كان منهم من التفريط في أمره فلا يجمل أن يطلبوا لأنفسهم عذراً فيما كان منهم"[2] .

١: أضواء البيان (٥ / ٣٦٠) .

٢: تفسير النسفي (٢ / ٣٩٥) .

وقال القشيري: "الحقُّ – سبحانه – ينتقم من أعدائه بما يطيِّبُ به قلوبَ أوليائه، وتلك خصومةُ الحق، فيقول: قد كان قومٌ من أوليائي يُفْصِحون بمدحي وثنائي، ويتصفون بمدحي وإطرائي، فاتخذتموهم سخر ً . . . فأ اليوم أُجازيهم، وأنتقم ممن كان يناويهم"(١) .

(أَلَمْ تَكُنْ آ تِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ)!

قال صاحب الظلال: "كأنما يخيل إليهم – وقد سمعوا هذا السؤال – أنهم مأذونون في الكلام، مسموح لهم لرجاء .وأن الاعتراف لذنب قد يجدي في قبول الرجاء:

(قالُوا: رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْ فَإِ ّ ظالِمُونَ.)

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة ... ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم، فلم يكن مأذو لهم في غير الإجابة على قدر السؤال .بل لعله كان سؤالا للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب .فهم يزجرون زجرا عنيفا قاسيا:

(قالَ: اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ(..

اخسؤا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين:

(إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ: رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِ ًّ حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ).. وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب، واقتصرتم على أنفسكم لكفر وهو جرم عظيم إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا، وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر ا ّ ، ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر في دلائل

١: تفسير القشيري (٥ / ٢٩٤) .

الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود .. فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ)"[١] .

١: في ظلال القرآن (٤ / ٢٤٠٦) .

النموذج الرابع عشر:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٤ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ النور: ٢٤.

التفسير الإجمالي

قال مؤلفو التفسير الميسر: ذلك العذاب يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما نطقت وتتكلم أيديهم وأرجلهم بما عملت. اهـ

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: "يوم: ظرف متعلق بجملة (ولهم عذاب أليم) السابقة، وذكر شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم للتهويل عليهم لعلهم يتقون ذلك الموقف فيتوبون .

وتخصيص هذه الأعضاء لذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى :(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) لأن لهذه الأعضاء عملا في رمي المحصنات فهم ينطقون لقذف ويشيرون لأيدي إلى المقذوفات ويسعون رجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف"[١] .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف يشهد عليهم لياء وذلك وجه في الفعل المسند إلى ضمير جمع التكسير"[٢] . وعلل القرطبي ذلك ن "الجار والمجرور قد حالا بين الاسم والفعل" .

ثم قال القرطبي: والمعنى :يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان .وقيل :تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به.(وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ) أي وتتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا"[١] .

١: التحرير والتنوير (١٨ / ١٥٣) .

٢: التحرير والتنوير (١٨ / ١٥٨) .

(يومئذ يوفيهم   دينهم الحق) يقول ابن عاشُور: إن الآية "استئناف بياني لأن ذكر شهادة الأعضاء يثير سؤالا عن آ ر تلك الشهادة فيجاب   ن أثرها أن يجازيهم   على ما شهدت به أعضاؤهم عليهم، فدينهم جزاؤهم كما في قوله تعالى(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)"[٢] أو "حسابهم وجزاؤهم"كما قال القرطبي[٣] .

وذكر في التحرير أن "الحق نعت للدين أي الجزاء العادل الذي لا ظلم فيه فوصف لمصدر للمبالغة .

قوله(وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ا ـَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ(أي ينكشف للناس أن   الحق .ووصف نه(الْحَقَّ) وصف لمصدر لإفادة تحقق اتصافه لحق"[٤] .

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم دينهم الحق) .

قال في الظلال: "فإذا بعضهم يتهم بعضا لحق، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات لإفك !وهي مقابلة في المشهد مؤثرة، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني.

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ا ـُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) .. ويجزيهم جزاءهم العدل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق .ويومئذ يستيقنون مما كانوا يسترتيبون: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ا ـَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ).. "[٥]

.

١: تفسير القرطبي (١٢ / ٢١٠) .

٢: التحرير والتنوير (١٨ / ١٥٨) .

٣: تفسير القرطبي (١٢ / ٢١٠) .

٤ التحرير والتنوير (١٨ / ١٥٤)

٥: في ظلال القرآن (٤ / ٢٥٠٥) .

النموذج الخامس عشر:

(بَلْ كَذَّبُوا ِ لسَّاعَةِ وَأَعْتَدْ َ لِمَنْ كَذَّبَ ِ لسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَا ً ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) .

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: وما كذبوك لأنك كل الطعام وتمشي الأسواق بل كذبوا بيوم القيامة وما فيه من جزاء وأعتد لمن كذب لساعة را حارة تسعر به إذا رأت النار هؤلاء المكذبين يوم القيامة من مكان بعيد سمعوا صوت غليانها وزفيرها من شدة تغيظها منهم . وإذا ألقوا في مكان شديد الضيق من جهنم– وقد قرنت أيديهم لسلاسل إلى أعناقهم –دعوا على أنفسهم لهلاك للخلاص منها، فيقال لهم تيئيسا لا تدعوا اليوم لهلاك مرة واحدة بل مرات كثيرة فلن يزيدكم ذلك إلا غما فلا خلاص لكم . اهـ

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور: " (بَلْ) للإضراب، فيحتمل أن يكون إضراب انتقال من ذكر ضلالهم في صفةالرسول صلى عليه وسلم إلى ذكر ضلالهم في إنكار البعث .

ويحتمل أن يكون إضراب إبطال لما تضمنه قوله: (إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ) على التأويل من الوعد يتائه ذلك في الآخرة،أي بل هم لا يقنعون ن حظ الرسول عند ربه ليس في متاع الدنيا الفاني الحقير ولكنه في خيرات الآخرة الخالدة غير المتناهية،

أي أن هذا رد عليهم ومقنع لهم لو كانوا يصدقون لساعة ولكنهم كذبوا بها فهم متمادون على ضلالهم لا تقنعهم الحجج. [١]

والساعة :اسم غلب على عالم الخلود، تسمية سم مبدئه وهو ساعة البعث .وإنما قصر تكذيبهم على الساعة لأنهم كذبوا لبعث فهم بما وراءه أحرى تكذيبا.

والسعير :الالتهاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي مسعور، أي زيد فيها الوقود، وهو معامل معاملة المذكر لأنه من أحوال اللهب، عَلَمًا على جهنم وذلك على حذف مضاف، أي ذات سعير.

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً).

تخلص من اليأس من اقتناعهم إلى وصف السعير الذي أعد لهم، وأجري على السعير ضمير)رَأَتْهُمْ(لتأنيث لتأويل السعير بجهنم.

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً(قيل :المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم .

وقيل :المعنى إذا رأتهم خزنتها سمعوا لهم تغيظا وزفيرا حرصا على عذابهم .والأول أصح، لما روى مرفوعا أن رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "من كذب على متعمدا فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا"، قيل : رسول ولها عينان؟ قال ":أما سمعتم عز وجل يقول ":إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ."صححه ابن العربي في قبسه[٢] .

وإسناد الرؤية إلى النار استعارة. والمعنى :إذا سيقوا إليها فكانوا من النار بمكان ما يرى الرائي من وصل إليه سمعوا لها تغيظا وزفيرا من مكان بعيد، ويحتمل أن يكون

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٢١) .

٢: وهو عند الطبراني (٧٤٧٩)، وفي مسند الشاميين (٣٤٣٤)، وعند أبي نعيم في معرفة الصحابة (٦٥٧٦).

معنى(رأتهم(رآهم ملائكتها أطلقوا منافذها فانطلقت ألسنتها صوات اللهيب كأصوات المتغيظ وزفيره فيكون إسناد الرؤية إلى جهنم استعارة.

والتغيظ :شدة الغيظ .والغيظ :الغضب الشديد، كقوله تعالى (عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَ َمِلَ مِنَ الْغَيْظِ) فصيغة التفعل هنا الموضوعة في الأصل لتكلف الفعل مستعملة في قوته لأن المتكلف لفعل تي به كأشد ما يكون.

والمراد به هنا صوت المتغيظ، بقرينة تعلقه بفعل (سَمِعُوا) فهو تشبيه بليغ.[1]

والزفير :امتداد النفس من شدة الغيظ وضيق الصدر، أي صو كالزفير فهو تشبيه بليغ أيضا .ويحتمل أن يكون قد خلق لجهنم إدراكا للمرئيات بحيث تشدد أحوالها عند انطباع المرئيات فيها فتضطرب وتفيض وتتهيأ لالتهام بعثها فتحصل منها أصوات التغيظ والزفير فيكون إسناد الرؤية والتغيظ والزفير حقيقة، ثم قال ابن عاشُور وأمور العالم الأخروي لا تقاس على الأحوال المتعارفة في الدنيا.

وعلى هذين الاحتمالين يحمل ما ورد في القرآن والحديث نحو قوله تعالى (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)، وقوله صلى عليه وسلم: "اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين نفس في الصيف ونفس في الشتاء" رواه مالك في الموطأ[2]، وزاد في رواية مسلم: "فما ترون من شدة البرد فذلك من زمهريرها وما ترون من شدة الحر فهو من سمومها"[3] .

وجُعل إزجاؤهم إلى النار من مكان بعيد ز دة في النكاية بهم لأن بعد المكان يقتضي ز دة المشقة إلى الوصول ويقتضي طول الرعب مما سمعوا"[4] .

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٢) .

٢: الموطأ (٢٧) .

٣: صحيح مسلم (١٤٣٤) .

٤: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٢) .

وقال صاحب أضواء البيان: "ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا رَأَتِ الْكُفَّارَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ: أَيْ فِي عَرَصَاتِ الْمَحْشَرِ اشْتَدَّ غَيْظُهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهَا وَعَلَا زَفِيرُهَا فَسَمِعَ الْكُفَّارُ صَوْتَهَا مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا، وَسَمِعُوا زَفِيرَهَا"[١] .

ويقول ابن عاشُور "ووصف وصولهم إلى جهنم من مكان بعيد ووضعهم فيها بقوله: (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً) فصيغ نظمه في صورة توصيف ضجيج أهل النار من قوله: (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً) وأدمج في خلال ذلك وصف داخل جهنم ووصف وضع المشركين فيها بقوله (مَكَاناً ضَيِّقاً) وقوله (مُقَرَّنِينَ) تفننا في أسلوب الكلام.

والإلقاء :الرمي، وهو هنا كناية عن الإهانة، وانتصب (مَكَاناً) على نزع الخافض، أي في مكان ضيق"[٢]

"وقرأ الجمهور)ضَيِّقاً(بتشديد الياء .وقرأه ابن كثير)ضَيْقاً(بسكون الياء وكلاهما للمبالغة في الوصف مثل :ميِّتٍ ومَيْتِ، لأن الضيِّقَ لتشديد صيغة تمكن الوصف من الموصوف، والضَيْق لسكون وصف لمصدر.

و (مُقَرَّنِينَ) حال من ضمير (أُلْقُوا(أي مقر بعضهم في بعض كحال الأسرى والمساجين أن يقرن عدد منهم في و ق واحد، كما قال تعالى)وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ(.

والمُقَّرَّن :المقرون، صيغت له مادة التفعيل للإشارة إلى شدة القرن.

والدعاء: النداء على الصوت، والثبور : الهلاك، أي دوا : ثبور أو واثبوراه، بصيغة الندبة (!) وعلى كلا الاحتمالين فالنداء كناية عن التمني، أي تمنوا حلول الهلاك

١: أضواء البيان (٦ /) .

٢: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٢) .

فنادوه كما يُنادَى من يطلب حضوره، أو ندبوه كما يندب من يتحسر على فقده، أي تمنوا الهلاك للاسنزاحة من فظيع العذاب. (١)

وجملة)لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً(إلى آخرها مقولة لقول محذوف، أي يقال لهم.

ووصف الثبور لكثير إما لكثرة ندائه لتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن انتهاء النداء يكون بحضور المنادى، أو هو س يقتضي تكرير التمني أو التحسر.

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً.)

الأمر لقول يقتضي مخاطبا مقولا لهم ذلك، فيحتمل أن يقصد: قل لهم، أي للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق: (أذلك خير أم الجنة؟) فالجمل متصلة السياق، والاستفهام حينئذ للتهكم إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيرا .

ويحتمل أن يقصد لخطاب المؤمنون،فالجملة معترضة بين آ ت الوعيد لمناسبة إبداء البون الشاسع بين حال المشركين وحال المؤمنين.

والاستفهام حينئذ مستعمل في التلميح والتلطف . وهذا كقوله (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم) .

والإشارة ـــبـ(ذلك) إلى المكان الضيق في جهنم.

و)خَيْرٌ(اسم تفضيل، وأصله أخير بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال والتفضيل على المحمل الأول. (٢)

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٣) .

٢: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٣) .

وجملة (كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً) تذييل لجملة)جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ(لما فيها من التنويه بشأن الجنة بتنكير)جَزَاءً وَمَصِيراً(مع الإيماء إلى أنهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى)نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً.)

وجملة)لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ)، حال من)جَنَّةُ الْخُلْدِ)، أو صفة نية، وجملة)كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً(حال نية والرابط محذوف إذ تقديره :وعدا لهم.

والمسؤول :الذي يسأله مستحقه ويطالب به، أي حقا للمتقين أن يترقبوا حصوله كأنه أجر لهم عن عمل .وهذا مسوق مساق المبالغة في تحقيق الوعد والكرم كما يشكرك شاكر على إحسان فتقول :ما أتيت إلا واجبا، إذ لايتبادر هنا غير هذا المعنى، إذ لا معنى للوجوب على تعالى سوى أنه تفضل وتعهد به، ولا يختلف في هذا أهل الملة"[1] .

وقال في الظلال: "وهنا يصورهم في مشهد من مشاهد القيامة يزلزل القلوب الصلدة ويهز المشاعر الخامدة، ويطلعهم على هول ما ينتظرهم هناك وعلى حسن ما ينتظر المؤمنين في ذلك الهول العظيم.

(بل كذبوا لساعة) .. بل كذبوا لساعة .. وبلغوا هذا المدى من الكفر والضلال .هذا المدى الذي يصوره التعبير بعيدا متطاولا، يضرب عن كل ما قبله ليبرزه ويجسمه: (بَلْ كَذَّبُوا ِ لسَّاعَةِ) .. ثم يكشف عن الهول الذي ينتظر أصحاب هذه الفعلة الشنيعة .إنها السعير حاضرة مهيأة: (وَأَعْتَدْ لِمَنْ كَذَّبَ ِ لسَّاعَةِ سَعِيراً) والتشخيص – ونعني به خلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة المجسمة من الأشياء والمعاني والحالات النفسية– فن في القرآن، يرتفع لصور و لمشاهد التي يعرضها إلى حد الإعجاز، بما يبث فيها من عنصر الحياة.

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٢٤) .

ونحن هنا أمام مشهد السعير المتسعرة، وقد دبت فيها الحياة !فإذا هي تنظر فترى أولئك المكذبين لساعة، تراهم من بعيد ! فإذا هي تتغيظ وتزفر فيسمعون زفيرها وتغيظها وهي تتحرق عليهم، وتصعد الزفرات غيظا منهم وهي تتميز من النقمة، وهم إليها في الطريق .. !مشهد رعيب يزلزل الأقدام والقلوب !ثم ها هم أولاء قد وصلوا .فلم يتركوا لهذه الغول طلقاء .يصارعونها فتصرعهم، ويتحامونها فتغلبهم.

بل ألقوا إليها إلقاء .ألقوا مقرنين، قد قرنت أيديهم إلى أرجلهم في السلاسل .وألقوا في مكان منها ضيق، يزيدهم كربة وضيقا، ويعجزهم عن التفلت والتململ .. ثم ها هم أولاء ئسون من الخلاص، مكروبون في السعير .فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء: (وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكا ً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ـثُبُوراً .)فالهلاك اليوم أمنية المتمني، والمنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يطاق ثم ها هم أولاء يسمعون جواب الدعاء .يسمعون تهكما ساخرا مريرا:)لا تَدْعُوا ـلْيَوْمَ ـثُبُوراً واحِداً وَادْعُولـثُبُوراً كَثِيراً .)فهلاك واحد لا يجدي هنا ولا يكفي شيئا !وفي هذا الموقف المكروب الرعيب ـيُعْرض ما أعد للمتقين، الذين يخشون ربهم ويرجون لقاءه، ويؤمنون لساعة ـيُعْرض في أسلوب متهكم كذلك ساخر.

قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ؟ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ؟..الخ.«

أذلك الكرب الفظيع خير؟ أم جنة الخلد التي وعدها ا ّ المتقين، وخوّلَهُم حق سؤاله عنها، وطلب تحقيق وعده الذي لا يخلف، ومنحهم أن يطلبوا فيها ما يشاءون؟ وهل هناك وجه للموازنة؟ ولكنها السخرية المريرة لساخرين الذين يتطاولون على الرسول الكريم"(١) .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٥٥٥)

قال السعدي رحمه : (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أي :قبل وصولهم ووصولها إليهم(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا) عليهم) وَزَفِيرًا (تقلق منهم الأفئدة وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفا منها وذعرا قد غضبت عليهم لغضب خالقها وقد زاد لهبها لز دة كفرهم وشرهم.

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَا ً ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ (أي :وقت عذابهم وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان وتزاحم السكان وتقرينهم لسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النَّحْس وحبسوا في أشر حَبْس) دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (دعوا على أنفسهم لثبور والخزي والفضيحة وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم عمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافع لهم ولا مغن من عذاب ، بل يقال لهم :(لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (أي :لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن، ولما بين جزاء الظالمين سب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا.)

أي :قل لهم- مبينا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع (:-أَذَلِكَ (الذي وصفت لكم من العذاب) خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (التي زَادُها تقوى فمن قام لتقوى فالله قد وعده إ ها،) كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً (على تقواهم) وَمَصِيرًا (موئلا يرجعون إليها، ويستقرون فيها ويخلدون دائما أبدا.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) أي :ما يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيئتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والنساء الجميلات والقصور العاليات والجنات والحدائق المرجحنة والفواكه التي تسر ظريها وآكليها، من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها

والأنهار التي تجري في ر ض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهارا من ماء غير آسن وأنهارا من لبن لم يتغير طعمه وأنهارا من خمر لذة للشاربين وأنهارا من عسل مصفى وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية خذ من حسنها لقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع لنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه، والحظوة بقربه والسعادة برضاه والأمن من سخطه واستمرار هذا النعيم ودوامه وز دته على ممر الأوقات وتعاقب الآ ت (كَانَ) دخولها والوصول إليها (عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا) يسأله إ ها، عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى لإيثار؟ وأي :العامِلِينَ عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة أولى لفضل والعقل والفخر أولي الألباب؟"[١] .

١: تفسير السعدي (١ / ٥٧٩) .

النموذج السادس عشر:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ الفرقان:٢٧-٢٩.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: واذكر أيها الرسول يوم يعض الظالم بنفسه على يديه ندما وتحسرا قائلا ليتني صاحبت رسول محمدا واتبعته في اتخاذ الإسلام طريقا إلى الجنة ويتحسر قائلا ليتني لم أتخذ الكافر فلا صديقا أتبعه وأوده، فقد أضلني هذا الصديق عن القرآن بعد إذ جاءني وكان الشيطان الرجيم خذولا للإنسان دائما .

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور: "هذا هو ذلك اليوم أعيد الكلام عليه عتبار حال آخر من أحوال المشركين فيه، أو عتبار حال بعض المشركين المقصود من الآية.

والتعريف في)الظَّالِمُ(يحتمل أن يكون للاستغراق، والمراد لظلم الشرك فيعم جميع المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الدعوة المحمدية بقرينة قوله)يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً)، ويكون قوله)لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً(إعلاما بما لا تخلو عنه صحبة بعضهم مع بعض وإغراء بعضهم بعضا على مناوأة الإسلام.

ويحتمل أن تكون (أل) للعهد المخصوص .والمراد لظلم الاعتداء الخاص المعهود منقصة معينة وهي قصة عقبة بن أبي معيط وما أغراه به أبي بن خلف .

وفي التحرير والتنوير: قال الواحدي وغيره عن الشعبي وغيره :كان عقبة بن أبي معيط خليلا لأمية بن خلف، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما ودعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي صلى عليه وسلم، فقدم من بعض أسفاره

فصنع طعاما ودعا رسول فلما قربوا الطعام قال رسول :ما أ كل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا ، فقال عقبة :أشهد أن لا إله إلا وأن محمدا رسول ، فأكل رسول من طعامه .وكان أبي بن خلف غائبا فلما قدم أخبر بقضيته، فقال : صبأت عقبة .قال :و ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبي أن كل من طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال أبي :ما أ لذي أرضى عنك أبدا إلا أن تيه فتبصق في وجهه، فكفر عقبة وأخذ في امتثال ما أمره به أمية بن خلف، فيكون المراد "فلان "الكناية عن أبي بن خلف فخصوصه يقتضي لحاق أمثاله من المشركين الذين أطاعوا أخلتهم في الشرك ولم يتبعوا سبيل الرسول، ولا يخلو أحد من المشركين عن خليل مشرك مثله يصده عن متابعة الإسلام إذا هَمَّ بها، ويثبته على دين الشرك فيتندم يوم الجزاء على طاعته ويذكره سمه" [١] .

"والعض : الشد لأسنان على الشيء ليؤلمه أو ليمسكه، وحقه التعدية بنفسه إلا أنه كثرت تعديته بـ (عَلَى) لإفادة التمكن من المعضوض إذا قصدوا عضا شديدا كما في هذه الآية.

والعض على اليد كناية عن الندامة لأنهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات لجسد مثل التشذر، وهو رفع اليد عند كلام الغضب، ومثل وضع اليد على الفم عند التعجب قال تعالى﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ ومنه في الندم قرع السن لأصبع، وعض السبابة، وعض اليد، وفي الغيظ عض الأ مل قال تعالى﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَ َمِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، وكانت كنا ت عن ما يلازمها في العرف من معان نفسية، وأصل نشأها عن هيج القوة العصبية من جراء غضب أو تلهف. [٢]

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٣٨) .

٢: التحرير والتنوير (١٩ / ٣٨) .

والرسول :هو المعهود وهو محمد صلى   عليه وسلم.

واتخاذ السبيل :أخذه، وأصل الأخذ :التناول ليد، فأطلق هنا على قصد السير فيه قال تعالى (واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ.)

و)مَعَ الرَّسُولِ(أي متابعا للرسول كما يتابع المسافر دليلا يسلك به أحسن الطرق وأفضاها إلى المكان المقصود .وإنما عدل عن الإتيان بفعل الاتِّبَاع ونحوه ن يقال : ليتني لتَّبَعْت الرسول إلى هذا التركيب المطنب لأن في هذا التركيب كما يقول ابن عاشور تمثيل هيئة الاقتداء بهيئة مسايرة الدليل تمثيلا محتو على تشبيه دعوة الرسول لسبيل، ومتضمنا تشبيه ما يحصل عن سلوك ذلك السبيل من النجاة ببلوغ السائر إلى الموضع المقصود فكان حصول هذه المعاني صائرا لإطناب إلى إيجاز، وأما لفظ المتابعة فقد شاع إطلاقه على الاقتداء فهو غير مشعر بهذا التمثيل .وعلم أن هذا السبيل سبيل نجاح من تمناه لأن التمني طلب الأمر المحجوب العزيز المنال.

و) َ لَيْتَنِي(نداء للكلام الدال على التمني بتنزيل الكلمة منزلة العاقل الذي يطلب حضوره لأن الحاجة تدعو إليه في حالة الندامة، كأنه يقول :هذا مقامك فاحضري، على نحو ما تقدم في النموذج الثالث، في قوله) َ حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا)

وهذا النداء يزيد المتمني استبعادا للحصول.

وكذلك قوله) َ وَيْلَتَا(هو تحسر بطريق نداء الويل .والويل :سوء الحال، والألف عوض عن ء المتكلم، وتقدم الحديث عن الويل في نموذج سورة الكهف (ويلتنا ما لهذا الكتاب).، وأتبع التحسر بتمني أن لا يكون اتخذ فلا خليلا.

وجملة﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلا ً خَلِيلاً﴾بدل من جملة﴿لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾بدل اشتمال لأن اتباع سبيل الرسول يشتمل على نبذ خلة الذين يصدون عن سبيله فتمني وقوع أولهما يشتمل على تمني وقوع الثاني. [1]

و"فلان :"اسم يكنى به عمن لا يذكر اسمه العلم، كما يكنى بـ"فلانة "عمن لا يراد ذكر اسمها العلم، والداعي إلى الكناية بفلان هنا إما لعدم الفائدة لذكره، وإما لقصد نوع من له اسمٌ علمٌ، بمعنى أن هذين الاحتمالين يجر ن في هذه الآية، إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي بن خلف، أو حملت على إرادة كل مشرك له خليل صده عن اتِّبَاع الإسلام.

وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليلا دون تمني أن يكون عصاه فيما سول له قصدا للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها .

وفيه إيماء إلى أن شأن الخلة الثقة لخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن لسلامة من إشارات السوء قال تعالى﴿ َأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا َلُونَكُمْ خَبَالاً﴾، فعلى من يريد اصطفاء خليل أن يسير سيرته في خويصته فإنه سيحمل من يُخَالُّه على ما يسير به لنفسه.

ثم قال ابن عاشُور رحمه : وهذا عندي هو محمل قول النبي صلى عليه وسلم: "لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَ َ بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي"[2] فإن مقام النبوءة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس فلا يليق به إلا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة، ولهذا قالت عائشة: "كان خلقه القرآن"[3]

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٣٩) .

٢: صحيح البخاري (٣٦٥٦) .

٣: مسند أحمد (٢٤٦٤٥) .

وعلمنا بهذا أن أ   بكر أفضل الأمة في مكارمِ الأخلاقِ بعد النبي صلى   عليه وسلم لأن النبي جعله المخير لخلته لو كان متخذا خليلا غير   .[1]

وجملة)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي(تعليلية لتمنيه أن لا يكون اتخذ فلا خليلا نه قد صدر عن خلته أعظم خسران لخليله إذ أضله عن الحق بعد أن كاد يتمكن منه.

وقوله)أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ(معناه سول لي الانصراف عن الحق .والضلال :إضاعة الطريق وخطؤه بحيث يسلك طريقا غير المقصود فيقع في غير المكان الذي أراده وإنما وقع في أرض العدو أو في مسبعة .

ويستعار الضلال للحياد عن الحق والرشد إلى الباطل والسفه كما يستعار ضده وهو الهدى" الذي هو إصابة الطريق "لمعرفة الحق والصواب حتى تساوى المعنيان لكثرة الاستعمال .ولذلك سموا الدليل الذي يسلك لركب الطريق المقصود هاد .

والإضلال مستعار هنا للصرف عن الحق لمناسبة استعارة السبيل لهدى الرسول وليس مستعملا هنا في المعنى الذي غلب على الباطل بقرينة تعديته بحرف (عَنْ) في قوله (عَنِ الذِّكْرِ) فإنه لو كان الإضلال هو تسويل الضلال لما احتاج إلى تعديته ولكن أريد هنا متابعة التمثيل السابق .ففي قوله (أَضَلَّنِي) مكنية تقتضي تشبيه الذكر لسبيل الموصل إلى المنجى، وإثبات الإضلال عنه تخييل كإثبات الأظفار للمنية فهذه نكت من بلاغة نظم الآية.[2]

(الذِّكْرِ): هو القرآن، أي نهاني عن التدبر فيه والاستماع له بعد أن قاربت فهمه.

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٤١) .

٢: التحرير والتنوير (١٩ / ٤١) .

والمجيء في قوله (إِذْ جَاءَنِي) مستعمل في إسماعه القرآن فكأن القرآن جاء أي: حل عنده.

وقيل)الذِّكْرِ): كلمة الشهادة، بناء على تخصيص الظالم بعقبة بن أبي معيط كما تقدم، و تي في ذلك الوجوه المتقدمة؛ فإن كلمة الشهادة لما كانت سبب النجاة مثلت بسبيل الرسول الهادي، ومثل الصرف عنها لإضلال عن السبيل.

و (إِذْ(ظرف للزمن الماضي، أي بعد وقت جاءني فيه الذكر، والإتيان لظرف هنا دون أن يقال :بعد ما جاءني، أو بعد أن جاءني، للإشارة إلى شدة التمكن من الذكر لأنه قد استقر في زمن وتحقق، ومنه قوله تعالى (وَمَا كَانَ ا ـّـُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) أي تمكن هديه منهم.

وجملة)وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً(تذييل من كلام تعالى لا من كلام الظالم تنبيها للناس على أن كل هذا الإضلال من عمل الشيطان فهو الذي يسول لخليل الظالم إضلال خليله لأن الشيطان خذول الإنسان، أي مجبول على شدة خذله.

والخذل :ترك نصر المستنجد مع القدرة على نصره.

فإذا أعان على الهزيمة فهو أشد الخذل، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان بخذل الإنسان لأن الشيطان يكيد الإنسان فيورطه في الضر فهو خذول"(١) .

(ويوم يعض الظالم على يديه)

قال صاحب الظلال: "ويصمت كل شيء من حوله ويروح يمد في صوته المتحسر، ونبراته الأسيفة والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولا ويزيد أثره عمقا .حتى ليكاد القارئ للآ ت والسامع يشاركان في الندم والأسف والأسى(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ) .. فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها .إنما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدة ما

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٤٢) .

يعانيه من الندم اللاذع المتمثل في عضه على اليدين .وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيما.

ـيقُولُ: ـلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) .. فسلكت طريقه، لم أفارقه، ولم أضل عنه .. الرسول الذي كان ينكر رسالته ويستبعد أن يبعثه ا ّ رسولا(وَيْلَتَىلَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلا ً خَلِيلًا(..فلا بهذا التجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصد عن سبيل الرسول ويضل عن ذكر ا ّ ..)لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِبَعْدَ إِذْ جاءَنِي(..لقد كان شيطا يضل، أو كان عو للشيطان)وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا(يقوده إلى مواقف الخذلان، ويخذله عند الجد، وفي مواقف الهول والكرب..

وهكذا راح القرآن يهز قلوبهم هزا بهذه المشاهد المزلزلة، التي تجسم لهم مصيرهم المخيف، وتريهم إ ه واقعا مشهودا، وهم بعد في هذه الأرض، يكذبون بلقاء ا ّ، ويتطاولون على مقامه دون توقير، ويقترحون الاقتراحات المستهزئة والهول المرعب ينتظرهم هناك والندم الفاجع بعد فوات الأوان"[1] .

وقال السعدي رحمه : (وَيَوْمَيَعَضُّ الظَّالِمُ) بشركه وكفره وتكذيبه للرسل (عَلَى يَدَيْهِ) سفا وتحسرا وحز وأسفا (يَقُولُ َلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا) أي طريقا لإيمان به وتصديقه واتباعه .

(َ وَيْلَتَىلَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلا ً) وهو الشيطان الإنسي أو الجني، (خَلِيلا) أي :حبيبا مصافيا عاديت أنصح الناس لي، وأبرهم بي وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدو لي الذي لم تفدني ولايته إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار.

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِبَعْدَ إِذْ جَاءَنِي) حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله .(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإنْسَانِ خَذُولا) يزين له الباطل ويقبح له الحق، ويعده الأماني

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٥٦١) .

ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه كما قال لجميع أتباعه حين قضي الأمر، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية .فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته وليعاد من تنفعه عداوته وتضره صداقته، والله الموفق"[1] .

١: تفسير السعدي (١ / ٥٨١) .

النموذج السابع عشر:

قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ ا ّ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) َ ّ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ٩١-١٠٢.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: وأظهرت النار للكافرين الذي ضلوا عن الهدى وتجرؤوا على محارم ، وكذبوا رسله.

وقيل لهم توبيخا أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من دون وتزعمون أنها تشفع لكم اليوم ؟ هل ينصرونكم فيدفعون العذاب عنكم ؟ أو ينتصرون بدفع العذاب عن أنفسهم ؟ لا شيء من ذلك .

فجمعوا وألقوا في جهنم على رؤوسهم مرة بعد مرة إلى أن استقروا فيها هم والذين أضلوهم وأعوان إبليس الذين زينوا لهم الشر ولم يفلت منهم أحد.

قالوا معترفين بخطئهم وهم يتنازعون في جهنم مع من أضلوهم: لله إننا كنا في الدنيا في ضلال واضح لا خفاء فيه إذ نسويكم برب العالمين المستحق للعبادة وحده، وما أوقعنا في هذا المصير السيئ إلا المجرمون الذين دعو إلى عبادة غير فاتبعناهم، فلا أحد يشفع لنا ويخلصنا من العذاب ولا من يصدق في مودتنا ويشفق علينا فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنصير من جملة المؤمنين الناجين.

التفسير التفصيلي:

(وبرزت الجحيم)

قال ابن عاشُور: "(وَبُرِّزَتِ) مبالغة في أبرزت لأن التضعيف فيه مبالغة ليست في التعدية لهمزة، ونظيره في قوله تعالى)وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى(والمراد أظهرت، والمرلد)الْغَاوِينَ(الموصوفون لغواية، أي ضلال الرأي، وذكر مايقال للغاوين للإنحاء عليهم وإظهار حقارة أصنامهم، فقيل لهم(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ) وفي الاقتصار على ذكر هذا دون غيرهم ما يخاطبون به يومئذ مناسبة لمقام طلب الإقلاع عن عبادة تلك الأصنام .

وأسند فعل القول إلى غير معلوم لأن الغرض تعلق بمعرفة القول لا بمعرفة القائل، فالقائل الملائكة ذن من تعالى لأن المشركين أحقر من أن يوجه إليهم خطابه مباشرة.

والاستفهام في قوله)أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(استفهام عن تعيين مكان الأصنام إن لم تكن حاضرة، أو عن علمها إن كانت حاضرة في ذلك الموقف، تنزيلا لعدم جدواها فيما كانوا ملونه منها منزلة العدم تهكما وتوبيخا وتوقيفا على الخطأ.

والاستفهام في)هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ(كذلك مع الإنكار أن تكون الأصنام نصراء .

والانتصار: طلب النصير.

و(أَوْ) للتخيير في التوبيخ والتخطئة، أي هل أخطأتم في رجاء نصرها إ كم، أو في الأقل هل تستطيع نصر أنفسها وذلك حين يلقى لأصنام في النار بمرأى من عبدها، ولذلك قال (فَكُبْكِبُوا فِيهَا)، أي: كبكبت الأصنام في جهنم.

ومعنى)فَكُبْكِبُوا(كبوا فيها كبا بعد كب، فإن)فَكُبْكِبُوا(مضاعف كبوا لتكرير، وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى مثل :كفكف الدمع، وضمائر)يَنْصُرُونكُمْ)وَ)يَنْتَصِرُونَ)وَ) كُبْكِبُوا(عائدة إلى)مَا تَعْبُدُونَ(بتنزيلها منزلة العقلاء . وجنود إبليس :وهم أولياؤه وأصناف أهل الضلالات التي هي من وسوسة إبليس"[١]

.

قال ابن الجوزي: "وفي الغاوين ثلاثة أقوال:

أحدها: الشياطين، قاله مجاهد، وقتادة .

والثاني: السُّفهاء، قاله الضحاك .

والثالث: المشركون، قاله ابن زيد"[٢] .

ويقول ابن عاشور: (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) ذكر ابن عطية أن هذا الكلام جاء موعظة من للسامعين من المشركين، وتعليما منه للمؤمنين فالجملة استئناف بياني شئ عن قوله (فَكُبْكِبُوا فِيهَا) لأن السامع بحيث يسأل عن فائدة إيقاع الأصنام في النار مع أنها لا تفقه ولا تحس، فبين له ذلك، فحكاية مخاصمة عبدتها بينهم لأن رؤيتهم أصنامهم هو مثار الخصومة بينهم، إذ رأى الأتباع كذب مضلليهم معاينة، ولايجد المضللون تنصلا ولا تفصيا فإن مذلة الأصنام وحضورها معهم وهم في ذلك العذاب أقوى شاهد على أنها لا تملك شيئا لهم ولا لأنفسها. [٣]

وجملة (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) في موضع الحال، وجملة (َ ّ ِ(مقول القول، وجملة)إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(جواب القسم .

١: التحرير والتنوير (١٩ / ١٦١) .

٢: زاد المسير (٥ / ١٤) .

٣: التحرير والتنوير (١٩ / ١٦٢) .

وجيء في القسم لتاء دون الواو لأن التاء تختص لقسم في شيء متعجب منه كما في قوله تعالى)قَالُوا َ ًّ ِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ)فهم يعجبون من ضلالهم إذ طوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لاتغني عنهم شيئا .ولذلك أفادوا تمكن الضلال منهم جتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة لأن المظروف شديد الملابسة لظرفه، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلال لمبين، أي الواضح البين . وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة من عقل.! [1]

و (إِذْ نُسَوِّيكُمْ) ظرف متعلق بـ)كُنَّا)، أي: كنا في ضلال في وقت إ نسويكم برب العالمين .

والتسوية :المعادلة والمماثلة، أي إذ نجعلكم مثل رب العالمين، فالظاهر أنهم جعلوهم مثله مع الاعتراف لإلهية وهو ظاهر حال إشراكهم ويحتمل أنهم جعلوهم مثله فيما تبين لهم من إلهيته يومئذ إذ كانوا لايؤمنون لله أصلا في الدنيا فهي تسوية لمآل وقد آبوا إلى الاعتراف بما تضمنته كلمة إبراهيم لهم في الدنيا إذ قال لهم)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ.)

وضمير الخطاب في)نُسَوِّيكُمْ(موجه إلى الأصنام، وهو من توجيه المتندم الخطاب إلى الشيء الذي لايعقل، وكان سببا في الأمر الذي جر إليه الندامة بتنزيله منزلة من يعقل ويسمع والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه.

وصيغ)نُسَوِّيكُمْ(في صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة حين يتوجهون إلى الأصنام لدعاء والنعوت الإلهية.

١: التحرير والتنوير (١٩ / ١٦٢) .

وقولهم)وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ(خطاب بعض العامة لبعض . وعنوا لمجرمين أئمة الكفر الذين ابتدعوا لهم الشرك واختلقوا لهم دينا.

والمناسب كما يقول ابن عاشور: أن يكون التعريف في)الْمُجْرِمُونَ(مستعملا في كمال الإجرام، فإن من معاني أل أن تدل على معنى الكمال.

ورتبوا لفاء انتفاء الشافعين على جملة (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) حيث أطعموهم بشفاعة الأصنام لهم عند مثل المشركين من العرب)وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُ َ عِنْدَ ا ّ ِ(فتبين لهم أن لا شفاعة لها، وهذا الخبر مستعمل في التحسر والتوجع.

والشافع: الذي يكون واسطة جلب نفع لغيره أو دفع ضر عنه .

وأما قولهم)وَلاصَدِيقٍ حَمِيمٍ(فهوتتميم أ ره مايلقونه من سوء المعاملة من كل من يمرون به أو يتصلون، ومن الحرمان الذي يعاملهم كل من يسألونه الرفق بهم حتى علموا أن جميع الخلق تتبرأ منهم كما قال تعالى (وَرَأَوُا الْعَذَاب َوَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) فإن الصديق هو الذي ـيُوَاسِيكَ أو يُسْليك أو يتَوجَّعُ .

وحال الأصدقاء يومئذ (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ).

والحميم :القريب، فعيل من حم بفتح الحاء إذا د ، وهو أخص من الصديق .

والمراد: جنس الشفيع وجنس الصديق لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكد ـب (مِنْ) المؤكدة السالفة، وفي ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدلالة على الجنس . وإنما خولف بين اسمي هذين الجنسين في حكاية كلامهم إذ جيء ـب (شَافِعِينَ) جمعا، ـوب (صَدِيقٍ) مفردا لأنهم أرادوا لشافعين الآلهة الباطلة وكانوا يعهدونهم عديدين فجرى على كلامهم ما هو مرتسم في تصورهم .وأما الصديق فإنه مَفْرُوضٌ جنسه دون عدد أفراده إذ لم يعنوا عددا معينا فبقي على أصل نفي الجنس،و على الأصل في الألفاظ إذ لم يكن داع لغير الإفراد .

وأفرد صديق لأنه أريد أن يجرى عليه وصف (حَمِيمٍ) فلو جيء لموصوف جمعا لاقتضى جمع وصفه، وجمع (حَمِيمٍ) فيه ثقل لايناسب منتهى الفصاحة ولايليق بصورة الفاصلة مع ما حصل في ذلك من التفنن الذي هو من مقاصد البلغاء. [1]

ويضيف صاحب التحرير والتنوير قائلاً: ثم فرعوا على هذا التحسر والندامة تمني أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان لله وحده.

و"لو "هذه للتمني، وأصلها" لو "الشرطية لكنها تنوسي منها معنى الشرط.

وأصلها: لو أرجعنا إلى الدنيا لآمنا، لكنه إذا لم يقصد تعليق الامتناع على امتناع تمحضت" لو "للتمني لما بين الشيء الممتنع وبين كونه متمنى من المناسبة .

والكرة :مرة من الكر وهو الرجوع[2]، كما تقدم معنا في النموذج الأول" .

(إذ تبرأ الذين اتبعوا):

قال صاحب الظلال: "لقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين، وإنهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون .حيث يسمعون التقريع والتأنيب، قبل أن يكبكبوا في الجحيم .. إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون ا ّ – وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون –إنهم ليسألون اليوم:)أين ما كنتم تعبدون من دون ا ّ) أين هم؟ (هل ينصرونكم أو ينتصرون؟(ثم لا يسمع منهم جواب، ولا ينتظر منهم جواب إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب)فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ .)كبكبوا .. وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف .فهو لفظ مصور بجرسه

١: التحرير والتنوير (١٩ / ١٦٤) .

٢: التحرير والتنوير (١٩ / ١٦٥) .

لمعناه .وإنهم لغاوون ضالون، وقد كبكب معهم جميع الغاوون هم (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) .والجميع جنود إبليس .فهو تعميم شامل بعد تخصيص.

ثم نستمع إليهم في الجحيم .. إنهم يقولون لآلهتهم من الأصنام: (َ ّ ِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ) فنعبدكم عبادته .إما معه وإما من دونه .الآن يقولونها بعد فوات الأوان .وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم، الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى .ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات: (فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) فلا آلهة تشفع، ولا صداقات تنفع .. وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها؟﴿فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ !)وما هو إلا التمني .فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٦٠٥) .

النموذج الثامن عشر:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ ِ َتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ ِ َتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ النمل: ٨٤.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم نجمع يوم الحشر من كل أمة جماعة ممن يكذب دلتنا وحججنا يحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا كلهم ثم يساقون إلى الحساب.

حتى إذا جاء من كل أمة فوج ممن يكذب تنا فاجتمعوا قال : أكذبتم تي التي أنزلتها على رسلي و لآ ت التي أقمتها دلالة على توحيدي واستحقاقي وحدي للعبادة ؟ ولم تحيطوا علما ببطلانها حتى تعرضوا عنها وتكذبوا بها أم أي شيء كنتم تعملون ؟

وحقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم وتكذيبهم فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم ما حل بهم من سوء العذاب .

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشور: "في قوله تعالى بعد هذا ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو في معنى قوله تعالى ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فيحشر من كل أمة مكذبو رسولها.

والفوج :الجماعة من الناس .

و(مِنْ) الداخلة على (كُلِّ أُمَّةٍ) تبعيضية .وأما (مِنْ) الداخلة على (مِمَّنْ يُكَذِّبُ) فيجوز جعلها بيانية فيكون فوج كل أمة . وهذا الفوج هو زعماء المكذبين وأئمتهم فيكونون في الرعيل الأول إلى العذاب.

قال ابن عباس: مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يساق أمام كل طائفة زعماؤها .

ويوزعون أي :يزجرون إغلاظا عليهم كما يفعل لأسرى.

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا(لم يذكر الموضع الذي جاءوه لظهوره وهو مكان العذاب، أي جهنم كما قال في الآية الأخرى)حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا) .

و)حَتَّى(ابتدائية .و)إِذَا(الواقعة بعد)حَتَّى(ظرفية والمعنى: حتى حين جاءوا.

وفعل)قَالَ أَكَذَّبْتُمْ ِ تِي(هو صدر الجملة في التقدير والتقدير: وقال أكذبتم تي يوم نحشر من كل أمة فوجا وحين جاءوا .

وفي)قَالَ(التفات من التكلم إلى الغيبة. كما يقول صاحب التحرير والتنوير .

وقوله)أَكَذَّبْتُمْ ِ تِي(قول صادر من تعالى يسمعونه أو يبلغهم إ ه الملائكة .

والاستفهام يحتمل أن يكون توبيخا مستعملا في لازمه وهو الإلجاء إلى الاعتزاف ن المستفهم عنه واقع منهم تبكيتا لهم، ولهذا عطف عليه قوله (أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) . فحرف (أَمْ) فيه بمعنى" بل "للانتقال.

ومعادل همزة الاستفهام المقدرة كما يقول صاحب التحرير والتنوير محذوف دل عليه قوله (أَمَّ ماذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

والتقدير :أكذبتم تي أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم توقنوا فماذا كنتم تعملون في مدة تكرير دعوتكم إلى الإسلام . ومن هنا حصل الإلجاء إلى الاعتزاف نهم كذبوا. (١)

ثم يقول: ومن لطائف البلاغة أنه جاء لمعادل الأول مصرحا به لأنه المحقق منهم فقال (أَكَذَّبْتُمْ ِ تِي) وحذف معادله الآخر تنبيها على انتفائه كأنه قيل: أهو ما عهد

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٣١٢) .

منكم من التكذيب أم حدث حادث آخر، فجعل هذا المعادل متزددا فيه، وانتقل الكلام إلى استفهام . وهذا تبكيت لهم .

وجملة)وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً(في موضع الحال، أي كذبتم دون أن تحيطوا علما بدلالة الآ ت"[١] .

(ولم تُحيطوا بها عِلْماً) قال ابن الجوزي: "فيه قولان:

أحدهما: لم تعرفوها حقَّ معرفتها .

والثاني: لم تُحيطوا عِلْماً ببطلانها . والمعنى: إِنكم لم تتفكَّروا في صحتها"[٢] .

ويقول ابن عاشُور "وانتصب)عِلْماً(على أنه تمييز نسبةٍ، أي لم يحط علمكم بها، فعدل عن إسناد الإحاطة إلى العلم إلى إسنادها إلى ذوات المخاطبين ليقع كيد الكلام لإجمال في الإسناد ثم التفصيل لتمييز .

وإحاطة العلم لآ ت مستعملة في تمكن العلم حتى كأنه ظرف محيط بها وهذا تعيير لهم وتوبيخ نهم كذبوا لآ ت قبل التدبر فيها"[٣] .

و (مَاذَا) استفهام واسم إشارة، وهو بمعنى اسم الموصول إذا وقع بعد)مَا(.والمشار عليه هو مضمون الجملة بعده في قوله)كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(.ولكون المشار إليه في مثل هذا هو الجملة صار اسم الإشارة بعد الاستفهام في قوة موصول فكأنه قيل: ما الذي كنتم تعملون؟ فذلك معنى قول النحاة: إن)ذَا(بعد)مَا(و)مَنْ(الاستفهاميتين يكون بمعنى)مَا(الموصولة"[٤] .

١: التحرير والتنوير (١٩ / ٣١٢) .

٢: زاد المسير (٥ / ٣٦) .

٣: التحرير والتنوير (١٩ / ٣١٢) .

٤: التحرير والتنوير (١٩ / ٣١٢) .

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ)

يجوز أن يكون الواو للحال، والمعنى: يقال لهم أكذبتم   تي وقد وقع القول عليهم . والقول هو نفس القول في الآية السابقة)وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ)، فإن ذلك القول مشتمل على حوادث كثيرة فكلما تحقق شيء منها فقد وقع القول.

والتعبير لماضي في قوله)وَقَعَ(هنا على حقيقته، وأعيد ذكره تعظيما لهوله . ويحتمل أن تكون الواو عاطفة والقول هو القول الأول وعطفت الجملة على الجملة المماثلة لها ليبنى عليها سبب وقوع القول وهو أنه بسبب ظلمهم وليُفَرّع عليه قوله)فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ(.

والتعبير بفعل المضي على هذا الوجه لأنه محقق الحصول في المستقبل فجعل كأنه حصل ومضى.

(بِمَا ظَلَمُوا) الباء سببية، و(ما) حرف مصدري يسبك مع ما بعده والتقدير بسبب ظلمهم.

والظلم هنا الشرك وما يتبعه من الاعتداء على حقوق   وحقوق المؤمنين، فكان ظلمهم سبب حلول الوعيد بهم، وقد قال صلى   عليه وسلم "الظلم ظلمات يوم القيامة"(١) فكل من ظلم سيقع عليه القول الموعود به الظالمون لأن الظلم ينتسب إلى الشرك .

وجملة (فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ) مفرعة على (وَقَعَ الْقَوْلُ) أي وقع عليهم وقوعا يمنعهم الكلام، أي كلام الاعتذار أو الإنكار، أي فوجموا لوقوع ما وعدوا به قال تعالى (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)"(٢) .

١: صحيح البخاري (٢٤٤٧) .

٢: التحرير والتنوير (١٩ / ٣١٣) .

وقال السعدي: "يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة وأن يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجا وطائفة (مِمَّنْ يُكَذِّبُ ِ َتِنَلـفَهُمْ يُوزَعُونَ) يجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا) وحضروا قال لهم موبخا ومقرعا (:أَكَذَّبْتُمْ ِ َتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا علماً (العلم أي :الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتم مر لم تحيطوا به علما؟) أَمْ مَاذَا كُنْتُمْـتَعْمَلُونَ (أي :يسألهم عن علمهم وعن عملهم فيجد عليهم تكذيبا لحق، وعملهم لغير أو على غير سنة رسولهم.

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا (أي :حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة،)فَهُمْ لاـيَنْطِقُونَ (لأنه لا حجة لهم"[١] .

وقال صاحب الظلال: "يعبر السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة، إلى مشهد الحشر " (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍـفَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ ِ تِنلـفَهُمْ يُوزَعُونَ) .

والناس كلهم يحشرون .إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين)فَهُمْ يُوزَعُونَ(يساقون أولهم على آخرهم، حيث لا إرادة لهم ولا وجهة ولا اختيار.

(حَتَّى إذا جاؤُوا قالَ: أَكَذَّبْتُمْ ِ تِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً؟ أَمَّا ذا كُنْتُمْـتَعْمَلُونَ؟.)

والسؤال الأول للتخجيل والتأنيب .فمعروف أنهم كذبوا ت ا" .أما السؤال الثاني فملؤه التهكم، وله في لغة التخاطب نظائر: أكذبتم؟ أم كنتم تعملون ماذا؟ فما لكم عمل ظاهر يقال: إنكم قضيتم حياتكم فيه، إلا هذا التكذيب المستنكر الذي ما كان ينبغي أن يكون .. ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم، كأنما وقع على المسئول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُولـفَهُمْ لاـيَنْطِقُونَ)..

١: تفسير السعدي (١ / ٦١٠) .

وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم في الدنيا، وهم واجمون صامتون!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٦٦٦) .

النموذج التاسع عشر:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ) القصص: ٦٦

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: يوم ينادي هؤلاء المشركين، فيقول ي شيءٍ أجبتم المرسلين فيما أرسلناهم به إليكم.

فخفيت عليهم الحجج فلم يدروا ما يحتجون به فهم لا يسأل بعضهم بعضا عما يحتجون به سؤال انتفاع .

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشُور: "هو يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون، كرر الحديث عنه عتبار تعدد ما يقع فيه لأن مقام الموعظة يقتضي الإطناب في تعداد ما يستحق به التوبيخ .وكررت جملة)يَوْمَ يُنَادِيهِمْ(لأن التكرار من مقتضيات مقام الموعظة . وهذا توبيخ لهم على تكذيبهم الرسل بعد انقضاء توبيخهم على الإشراك لله.

والمراد :ماذا أجبتم المرسلين في الدعوة إلى توحيد وإبطال الشركاء .والمراد بـ)الْمُرْسَلِينَ(محمد صلى عليه وسلم كما في قوله تعالى في سورة سبأ)فَكَذَّبُوا رُسُلِي(وقوله)ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا(يريد محمدا صلى عليه وسلم في سورة يونس وقوله)كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ(في سورة الشعراء يريد نوحًا عليه السلام، وإنما كذب كل فريق من أولئك رسولا واحدا .والذي اقتضى صيغة الجمع أن جميع المكذبين إنما كذبوا رسلهم بعلة استحالة رسالة البشر إلى البشر فهم إنما كذبوا بجنس المرسلين، ولام الجنس إذا دخلت على (جميع) أبطلت منه معنى الجمعية" .

ثم قال: "والاستفهام بـ (مَاذَا) صوري مقصود منه إظهار بلبلتهم .و(ذا) بعد (ما) الاستفهامية تعامل معاملة الموصول، أي ما الذي أجبتم المرسلين، أي ما جوابكم . والأنباء :جمع نبأ، وهو الخبر عن أمر مهم، والمراد به هنا الجواب عن سؤال)مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(لأن ذلك الجواب إخبار عما وقع منهم مع رسلهم في الدنيا .

والمعنى كما يقول صاحب التحرير والتنوير :عميت الأنباء على جميع المسؤولين فسكتوا كلهم ولم ينتدب زعماؤهم للجواب كفعلهم في تلقي السؤال في النموذج السابق)أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)، ومعنى عميت عليهم: خفيت عليهم وهو مأخوذ من عمى البصر لأنه يجعل صاحبه لا يتبين الأشياء، فتصرفت من العمى معان كثيرة متشابهة يبينها تعدية الفعل كما عدي هنا بحرف)على(المناسب للخفاء .ويقال : عمي عليه الطريق .إذا لم يعرف ما يوصل منه.

والمعنى :خفيت عليهم الأنباء ولم يهتدوا إلى جواب وذلك من الحيرة والوهل فإنهم لما نودوا)أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ(انبرى رؤساؤهم فلفقوا جوا عدلوا به عن جادة الاستفهام إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنوا لقومهم عبادة الأصنام، فلما سئلوا عن جواب دعوة الرسول صلى عليه وسلم عيوا عن الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإن الرسول بعث إليهم أنفسهم، ولهذا تفرع على)عميت عليهم الأنباء(قوله)فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ(أي لا يسأل بعضهم بعضا لاستخراج الآراء وذلك من شدة البهت والبغت على الجميع أنهم لا متنصل لهم من هذا السؤال فوجموا .

وإذ كان الاستفهام لتمهيد أنهم محقوقون لعذاب علم من عجزهم عن الجواب عنه أنهم قد حق عليهم العذاب"(١) .

١: التحرير والتنوير (٢٠ / ٩٤) .

وقال السعدي رحمه : "﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم، واتبعتموهم أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي :لم يحيروا عن هذا السؤال جوا ، ولم يهتدوا إلى الصواب .

ومن المعلوم أنه لا ينجى في هذا الموضع إلا التصريح لجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم لإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتزاجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذ "[1] .

وقال صاحب الظلال: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ، ماذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟﴾

"وإن ا ّ ليعلم ماذا أجابوا المرسلين .ولكنه كذلك سؤال التأنيب والتزذيل .وإهم ليواجهون السؤال لذهول والصمت .ذهول المكروب وصمت الذي لا يجد ما يقول:

»فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ.«

والتعبير يلقي ظل العمى على المشهد والحركة .وكأنما الأنباء عمياء لا تصل إليهم، وهم لا يعلمون شيئا عن أي شي ء !ولا يملكون سؤالا ولا جوا .وهم في ذهولهم صامتون ساكتون !"[2] .

١: تفسير السعدي (١ / ٦٢٢) .

٢: في ظلال القرآن (٥ / ٢٧٠٦) .

النموذج العشرون:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ القصص: ٧٤؟

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم ينادي هؤلاء المشركين فيقول لهم أي شركائي الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي.

ونزعنا من كل أمة من الأمم المكذبة- وهو نبيهم -يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم وتكذيبهم برسلهم فقلنا لتلك الأمم التي كذبت رسلها وما جاءت به من عند : هاتوا حجتكم على ما أشركتم مع ! فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم، وأن الحق لله، وذهب عنهم ما كانوا يفترون على ربهم فلم ينفعهم ذلك بل ضرهم وأوردهم ر جهنم.

التفسير التفصيلي:

(ويوم يناديهم)، قال القرطبي: "أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لهم)أين شركائي الذين كنتم تزعمون)، فيدعون الأصنام فلا يستجيبون لهم، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون، وهو توبيخ وز دة خزي"[1] .

وقال ابن عاشور: "كررت جملة﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾مرة نية لأن التكرير من مقتضيات مقام التوبيخ فلذلك لم يقل :ويوم ننزع من كل أمة شهيدا، فأعيد ذكر أن يناديهم بهذا الاستفهام التقريعي وينزع من أمة شهيدا، فظاهر الآية أن ذلك النداء يكرر يوم القيامة .ويحتمل أنه إنما كررت حكايته وأنه نداء واحد يقع عقبه جواب الذين حق

١: تفسير القرطبي (١٣ / ٣٠٩) .

عليهم القول من مشركي العرب ويقع نزع شهيد من كل أمة عليهم فهو شامل لمشركي العرب وغيرهم من الأمم .وجيء بفعل المضي في﴿نَزَعْنَا :﴾إما للدلالة على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع، وإما لأن الواو للحال وهي يعقبها الماضي بـ(قد(وبدون)قد(أي هؤلاء"[١] .

(شهيدا)، قال القرطبي :"أي نبيا، قاله مجاهد، وقيل :هم عدول الآخرة يشهدون على العباد عمالهم في الدنيا"(. ورجح القرطبي القول الأول بدليل قوله تعالى:)فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيدا" [٢] .

ويقول ابن عاشُور: "والنزع :جذب شيء من بين ما هو مختلط به واستعير هنا لإخراج بعض من جماعة كما في قوله تعالى (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً)، وذلك أن الأمم تي إلى المحشر تتبع أنبياءها، وهذا المجيء الأول، ثم تي الأنبياء مع كل واحد منهم من آمنوا به كما ورد في الحديث (تي النبي معه الرهط والنبي وحده ما معه أحد)[٣] .

(ونزعنا)، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار عظمة التكلم، وعطف (فَقُلْنَا) على﴿وَنَزَعْنَا(لأنه المقصود .والمخاطب بـ)هَاتُوا(هم المشركون، أي هاتوا برهانكم على إلهية أصنامكم.

و) هَاتُوا (اسم فعل معناه ولوا، وهاتِ مبني على الكسر، واستعيرت المناولة للإظهار.

١: التحرير والتنوير (٢٠ / ١٠٢) .

٢: تفسير القرطبي (١٣ / ٣٠٩) .

٣: رواه مسلم (برقم ٥٤٧٩) ولفظه "رأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد".

والأمر مستعمل في التعجيز فهو يقتضي أنهم على الباطل فيما زعموه من الشركاء، ولما علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله أيقنوا أن الحق مستحق لله تعالى، أي علموا علم اليقين أنهم لا حق لهم في إثبات الشركاء وأن الحق لله إذ كان ينهاهم عن الشرك على لسان الرسول في الدنيا، وأن الحق لله إذ داهم مر التعجيز في قوله: (هَاتُولـبُرْهَانَكُمْ) [١] .

و)ما كَانُولـيَفْتَرُونَ(يشمل ما كانوا يكذبونه من المزاعم في إلهية الأصنام وما كانوا يفترون له الإلهية من الأصنام، كل ذلك كانوا يفترونه.

والضلال :أصله عدم الاهتداء إلى الطريق .واستعير هنا لعدم خطور الشيء في البال ولعدم حضوره في المحضر من استعمال اللفظ في معنييه.

و كلمة (عَنْهُمْ) متعلقة بفعل (ضَلَّ)، والمراد :ضل عن عقولهم وعن مقامهم؛ مثلوا لمقصود للسائر في طريق حين يخطئ الطريق فلا يبلغ المكان المقصود .وعلق لضلال ضمير ذواتهم ليشمل ضلال الأمرين فيفيد أنهم لم يجدوا حجة يرجحون بها زعمهم إلهية الأصنام، ولم يجدوا الأصنام حاضرة للشفاعة فيهم فوجموا عن الجواب وأيقنوا لمؤاخذة"[٢]

.

وقال السعدي رحمه : "أي: ويوم ينادي ا" المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة، أراد ا" أن يظهر جراءتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم لأنفسهم (يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) أي :بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال :(وَمَلـيَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ا"ِ شُرَكَاءَ إِنْـيَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وإن هم إلا يخرصون).

١: تفسير القرطبي (٢٠ / ١٠٣) .

٢: التحرير والتنوير (٢٠ / ١٠٣) .

فإذا حضروا وإ هم، نزع (مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ) من الأمم المكذبة (شَهِيدًا) يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين.

أي :انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإ هم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة (فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) حجتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمر كم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئا من الإلهية؟ هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم من عذاب ا " أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذًا إن كان فيهم أهلية وليروكم إن كان لهم قدرة،) فَعَلِمُوا (حينئذ بطلان قولهم وفساده، و) أَنَّ الْحَقَّ ِ" ِ (تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلجت حجة ا "،) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (من الكذب والإفك، واضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن ا " قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها"[1].

وقال صاحب الظلال:"يختم القرآن هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما زعموا من شركاء، ويوقفهم وجها لوجه أمام أ طيلهم المدعاة، حيث تتذاوب وتتهاوى في موقف السؤال والحساب:

(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ؟ وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا: هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ ِ" ِ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ)

وتصوير يوم النداء، وما فيه من سؤال عن الشركاء، قد سبق في جولة ماضية .فهو يعاد هنا لتوكيده وتثبيته بمناسبة المشهد الجديد الذي يعرض هنا .مشهد نزع شهيد من كل أمة .وهو نبيها الذي يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته .والنزع حركة شديدة، والمقصود إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا .وفي

١: تفسير السعدي (١ / ٦٢٣) .

مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا .وليس لديهم برهان ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة:﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ ِلَّهِ﴾ ..الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة.

(وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) .. من شرك ومن شركاء، فما هو بواجدهم وما هم بواجديه !في وقت حاجتهم إليه في موقف الجدل والبرهان!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٧٠٩) .

النموذج الحادي والعشرون:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) .

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ولو ترى- أيها المخاطب -إذ المجرمون الذين أنكروا البعث قد خفضوا رؤوسهم عند ربهم من الخزي والعار، قائلين ربنا أبصر قبائحنا وسمعنا منك تصديق ما كانت رسلك مر به في الدنيا، وقد تبنا إليك، فارجعنا إلى الدنيا لنعمل فيها بطاعتك، إ قد أيقنا الآن ما كنا به في الدنيا مكذبين من وحدانيتك وأنك تبعث من في القبور، ولو رأيت- أيها المخاطب -ذلك كله لرأيت أمرا عظيما وخطبا جسيما.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: "حذف جواب (لَوْ) لتذهب نفس السامع كل مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربهم، وبتوجيه الخطاب إلى غير معين لإفادة تناهي حالهم في الظهور حتى لا يختص به مخاطب .والمعنى :لو ترى أيها الرائي لرأيت أمرا عظيما.

و (الْمُجْرِمُونَ) هم الذين تقدم ذكرهم في السياق السابق و هم الذين (قَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد التسجيل عليهم نهم في قولهم ذلك مجرمون، أي آتون بجرم وهو جرم تكذيب الرسول صلى عليه وسلم وتعطيل الدليل. (١)

١: التحرير والتنوير (٢١ / ١٥٤) .

والناكس :الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل، يقال :نكس رأسه، إذا طأطأه لأنه كمن جعل أعلى الشيء إلى أسفل .ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك مما يلاقون من التقريع والإهانة.

والعندية عندية السلطة، أي وهم في حكم ربهم لا يستطيعون محيدا عنه، فشبه ذلك لكون في مكان مختص بربهم في أنهم لا يفلتون منه"[1] .

(كسو رؤوسهم) قال القرطبي: "أي من الندم والخزي والحزن والذل والهم"[2] .

وجملة (ربنا أبصر وسمعنا)..الخ -كما يقول ابن عاشُور- "مقول قول محذوف دل عليه السياق هو في موضع الحال، أي كسوا رؤوسهم يقولون أو قائلين :أبصر وسمعنا، وهم يقولون ذلك ندامة وإقرارا ن ما توعدهم القرآن به حق.

وحذف مفعول (أَبْصَرْ َ) ومفعول (سَمِعْنَا) لدلالة المقام، أي أبصر من الدلائل المبصرة ما يصدق ما أخبر به- فقد رأوا البعث من القبور ورأوا ما يعامل به المكذبون-، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي توعد به، أي :فعلمنا أن ما دعا إليه الرسول هو الحق الذي به النجاة من العذاب"[3] .

(أبصر وسمعنا)، قال القرطبي: "أي أبصر ما كنا نكذب (وَسَمِعْنا) ما كنا ننكر . وقيل (أَبْصَرْ) صدق وعيدك، و(سَمِعْنا) تصديق رسلك، أبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع، (فارجعنا) إلى الدنيا)نعمل صالحا)[4] .

ويقول ابن عاشُور (إ موقنون) "تعليل لتحقيق الوعد لعمل الصالح هم صاروا موقنين بحقية ما يدعوهم الرسول صلى عليه وسلم إليه فكانت (إِنَّ) مغنية غناء فاء

١: التحرير والتنوير (٢١ / ١٥٥) .

٢: تفسير القرطبي (١٤ / ٩٥) .

٣: التحرير والتنوير (٢١ / ١٥٥) .

٤: تفسير القرطبي (١٤ / ٩٥) .

التفريع المفيدة للتعليل، أي ما يمنعنا من تحقيق ما وعد به شك ولا تكذيب، إ أيقنا الآن أن ما دعينا إليه حق .فاسم الفاعل في قوله :(مُوقِنُونَ(واقع زمان الحال كما هو أصله"[١] .

(إ موقنون)، قال القرطبي: "أي مصدقون لبعث، وقيل مصدقون لذي جاء به محمد صلى عليه وسلم أنه حق، وقيل المعنى قد زالت عنا الشكوك الآن وقد كانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا ولكن لم يكونوا يتدبرون وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا، وقيل أي: ربنا لك الحجة فقد أبصر رسلك، وعجائب خلقك في الدنيا، وسمعنا كلامك، فلا حجة لنا، فهذا اعتزاف منهم ثم طلبوا أن يردوا إلى الدنيا ليؤمنوا"[٢] .

وقال السعدي رحمه : "لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم بين يديه فقال :(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ) الذين أصروا على الذنوب العظيمة، (َكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين (نَبَّنَا أَبْصَرْ َ وَسَمِعْنَا (أي : ن لنا الأمر، ورأيناه عيا ً، فصار عين يقين.

(فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إ َّ مُوقِنُونَ (أي :صار عند الآن، يقين بما كنا نكذب به"[٣] .

وقال صاحب الظلال: "وبمناسبة البعث الذي يعترضون عليه والرجعة التي يشكون فيها، يوقفهم وجها لوجه أمام مشهد من مشاهد القيامة مشهد حي شاخص حافل لتأثرات والحركات والحوار كأنه واقع مشهود:

١: التحرير والتنوير (٢١ / ١٥٥) .

٢: تفسير القرطبي (١٤ / ٩٦) .

٣: تفسير السعدي (١ / ٦٥٤) .

وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ كِسُو رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...الخ

إنه مشهد الخزي والاعتزاف لخطيئة، والإقرار لحق الذي جحدوه، وإعلان اليقين بما شكوا فيه، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى .. وهم كسو رؤوسهم خجلا وخز ..)عِنْدَ رَبِّهِمْ ..)«الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا .. ولكن هذا كله يجيء بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتزاف ولا إعلان"[1] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٨١١) .

النموذج الثاني والعشرون:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ الأحزاب: ٦٦-٦٩.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: يوم تقلب وجوه الكافرين في النار يقولون نادمين متحيرين ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله في الدنيا فكنا من أهل الجنة.

وقال الكافرون يوم القيامة ربنا إننا أطعنا أئمتنا في الضلال وكبراءنا في الشرك فأزالونا عن طريق الهدى والإيمان، ربنا عذبهم من العذاب مثلي عذابنا الذي تعذبنا به، واطردهم من رحمتك طردا شديدا، وفي هذا دليل على أن طاعة غير الله في مخالفة أمره وأمر رسوله موجبة لسخط الله وعقابه، وأن التابع والمتبوع في العذاب مشتركون فليحذر المسلم ذلك

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور "﴿يَوْمَ﴾ ظرف يجوز أن يتعلق بـ ﴿لا يَجِدُونَ﴾ أي إن وجدوا أولياء ونصراء في الدنيا من يهود قريظة وخيبر في يوم الأحزاب فيوم تقلب وجوههم في النار لا يجدون وليا يرثى لهم ولا نصيرا يخلصهم.

ويحتمل أن يتعلق الظرف بفعل (يقولون)، على أن تكون جملة يقولون حالا من ضمير (لا يجدون)، وقد يكون الظرف منصوبا بفعل محذوف تقديره: اذكر مثل نظائره الكثيرة.والتقليب :شدة القلب .والقلب :تغيير وضع الشيء على غير الجهة التي كان عليها.

والمعنى :يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المشوى لينضج

على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وتخصيص الوجوه لذكر من بين سائر الأعضاء لأن حر النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجلد لأن مقر الحواس الرقيقة :العيون والأفواه والآذان والمنافس كقوله تعالى:)أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.)

وحرف)َ (في قوله:)َ لَيْتَنَا(للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم مثل)َ حَسْرَتَنَا .) والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات،وكذلك نحو)َ حَسْرَتَنَا(أي أن الحسرة غير مجدية.

وقد علموا يومئذ أن ما كان مرهم به النبي صلى عليه وسلم هو تبليغ عن مراد منهم وأنهم إذ عصوه فقد عصوا تعالى فتمنوا يومئذ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن تعالى"[1] .

والألف في آخر قوله :(الرَّسُولا) لرعاية الفواصل التي بنيت عليها السورة فإنها بنيت على فاصلة الألف وهي ألف الإطلاق إجراء للفواصل مجرى القوافي التي تلحقها ألف الإطلاق.

(وقالوا) عطف على جملة (يَقُولُونَ(فهي حال .وجيء بها في صيغة الماضي لأن هذا القول كان متقدما على قولهم)َ لَيْتَنَا أَطَعْنَا)، فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب وحشرهم مع رؤسائهم إلى جهنم، قال تعالى)حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّو َ فَآتِهِمْ عَذَا ً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ)، فدل على أن ذلك قبل

١: التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣٧) .

أن يمسهم العذاب بل حين رصفوا ونسقوا قبل أن يصب عليهم العذاب ويطلق إليهم حر النار .

ثم إن الابتداء لنداء ووصف الربوبية إظهار للتضرع والابتهال . (١)

والسادة :جمع سيد .قال أبو علي :وزنة فعلة، لكن على غير قياس لأن صيغة فعلة تطرد في جمع فاعل لا في جمع فيعل، فقلبت الواو ألفا لانفتاحها وانفتاح ما قبلها .وأما السادات فهو جمع الجمع بز دة ألف و ء بزنة جمع المؤنث السالم .والسادة :عظماء القوم والقبائل مثل الملوك.

وقرأ الجمهور (سَادَتَنَا) . وقرأ ابن عامر ويعقوب)سَادَاتِنَا(لف بعد الدال وبكسر التاء لأنه جمع لف و ء مزيدتين، وهو جمع الجمع كما أسلفنا.

والكبراء :جمع كبير وهو عظيم العشيرة،وهم دون السادة فإن الكبير يطلق على رأس العائلة ولذلك قوبل قولهم) َ لَيْتَنَا أَطَعْنَا ا َّ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا(بقولهم)أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَ َ .)(٢)

وجملة)إِ َّ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَ َ فَأَضَلُّو َ السَّبِيلا(خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادهم وكبرائهم .فالمقصود الإفضاء إلى جملة)رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ(.ومقصود من هذا الخبر أيضا الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم هم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم به من الحقيقة إذ قالوا:)إِ َّ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَ َ (.فيتجه عليهم أن يقال لهم :لماذا أطعتموهم حتى يغروكم، وهذا شأن الدهماء أن يسودوا عليهم من يعجبون ضغاث أحلامه، ويغرون بمسعول

١: التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣٧) .

٢: التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣٨) .

كلامه، ويسيرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنوا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه وحرارة أوامه، عادوا عليه للائمة وهم الأحقاء بملامه.

وحرف التوكيد لمجرد الاهتمام لا لرد إنكار،وتقديم قولهم :(إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا) اهتمام بما فيه من تعليل لمضمون قولهم (فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا(لأن كبراءهم ما تأتى لهم إضلالهم إلا بتسبب طاعتهم العمياء إ هم واشتغالهم بطاعتهم عن النظر والاستدلال فيما يدعونهم إليه من فساد ووخامة مغبة، وبتسبب وضعهم أقوال سادتهم وكبرائهم موضع الترجيح على ما يدعوهم إليه الرسول صلى عليه وسلم.

والقول في (السبيلا) كالقول في (الرسولا).

وإعادة النداء في قولهم (رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) كيد للضراعة والابتهال وتمهيدا لقبول سؤلهم حتى إذا قبل سؤلهم طمعوا في التخلص من العذاب الذي ألقوه على كاهل كبرائهم.[1]

والضعف بكسر الضاد :العدد المماثل للمعدود،فالأربعة ضعف الاثنين.ولما كان العذاب معنى من المعاني لا ذا كان معنى تكرير العدد فيه مجازا في القوة والشدة.

وتثنية (ضِعْفَيْنِ) مستعملة في مطلق التكرير كناية عن شدة العذاب كقوله تعالى : (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ)، فإن البصر لا يخسأ في نظرتين، ولذلك كان قوله هنا :(آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) مساو لقوله :(فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ(في الأعراف، وهذا تعريض لقاء تبعة الضلال عليهم،وأن العذاب الذي أعد لهم يسلط على أولئك الذين أضلوهم.

ووصف اللعن لكثرة كما وصف العذاب لضعفين إشارة إلى أن الكبراء استحقوا عذا لكفرهم وعذا لتسببهم في كفر أتباعهم.

١: التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣٩) .

فالمراد لكثير الشديد القوي، فعبر عنه لكثير لمشاكلة معنى التثنية في قوله : (ضِعْفَيْنِ) المراد به الكثرة.

وقد ذكر في الأعراف جوابهم من قبل الجلالة بقوله :(قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ)يعني أن الكبراء استحقوا مضاعفة العذاب لضلالهم وإضلالهم وأن أتباعهم أيضا استحقوا العذاب لضلالهم ولتسويد سادتهم وطاعتهم العمياء إ هم"[١] .

وقال السعدي: "(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ) فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

(يَقُولُونَ َ لَيْتَنَا أَطَعْنَا ا ّ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا) فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا، كالمطيعين، جزيل الثواب .ولكن أمنية فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندمًا، وهمًا، وغمًا، وألما.

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِ ّ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَ َ (وقلد هم على ضلالهم،) فَأَضَلُّو َ السَّبِيلا)

كقوله تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ َ لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا َ وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلا ً خَلِيلا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بعد إذ جاءني) الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراؤهم مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم، فقالوا :(رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) فيقول ا ّ لكل ضعف، فكلكم اشنزكتم في الكفر والمعاصي، فتشنزكون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم"[٢] .

١: التحرير والتنوير (٢١ / ٣٣٩) .

٢: تفسير السعدي (١ / ٦٧٢) .

وقال صاحب الظلال: "والنار تغشاهم من كل جهة، فالتعبير على هذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها، والحرص على أن تصل النار إلى كل صفحة من صفحات وجوههم ز دة في النكال !(يَقُولُونَ: ـلَيْتَنا أَطَعْنَا ا ّ َ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا)..

وهي أمنية ضائعة، لا موضع لها ولا استجابة، فقد فات الأوان .إنما هي الحسرة على ما كان !ثم تنطلق من نفوسهم النقمة على سادهم وكبرائهم، الذين أضلوهم، و لإ بة إلى ا ّ وحده، حيث لا تنفع الإ بة:

(وَقالُوا: رَبَّنا إِ ّ أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَ فَأَضَلُّو َ السَّبِيلَا .رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً)"[١] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٨٨٣)

النموذج الثالث والعشرون:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ ـَرُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) فاطر: ٣٦-٣٧ .

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: والذين كفروا لله ورسوله لهم ر جهنم الموقدة لا يقضى عليهم لموت فيموتوا ويستريحوا ولا يخفف عنهم من عذابها.

مثلَ ذلك الجزاء يجزي كل من هو مبالغ في الكفر متمادٍ في الكفر، مصر عليه، وهؤلاء الكفار يصرخون في ر جهنم مستغيثين ربنا أخرجنا من ر جهنم ورد إلى الدنيا نعملْ صالحا غير الذي كنا نعمله في حياتنا الدنيا فنؤمن بدل الكفر فيقول لهم أولم نمهلكم في الحياة قدرا وافيا من العمر يتعظ فيه من اتعظ وجاءكم النبي صلى عليه وسلم ومع ذلك لم تتذكروا ولم تتعظوا ؟

فذوقوا عذاب جهنم، فليس للكافرين من صر ينصرهم من عذاب .

التفسير التفصيلي:

يقول القرطبي: "لما ذكر أهل الجنة ومقالتهم في الآ ت السابقة، ذكر أهل النار وأحوالهم، ومقالتهم"[1] .

ويقول ابن عاشور :"ووقع الإخبار عن ر جهنم نها (لَهُمْ) بلام الاستحقاق للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم كقوله تعالى :(فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ

١: تفسير القرطبي (١٤ / ٣٥٢) .

وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)، وقوله :(وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)، فنار عقاب عصاة المؤمنين ر مخالفة أو أنها أعدت للكافرين.

وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم لاقترافهم الأعمال السيئة التي شأنها أن تكون للكافرين.

وقدم المجرور في(لَهُمْ ـَرُ جَهَنَّمَ(على المسند إليه حتى إذا سمعه السامعون تمكن من نفوسهم تمام التمكن. (١)

وجملة:)لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ(بدل اشتمال من جملة:)لَهُمْ ـَرُ جَهَنَّمَ)، والقضاء :حقيقته الحكم، ومنه قضاء حكمه وما أوجده في مخلوقاته .وقد يستعمل بمعنى الموت.

وضمير :(عَذَابِهَا) عائد إلى جهنم ليشمل ما ورد من أن المعذبين يعذبون لنار ويعذبون لزمهرير وهو شدة البرد وكل ذلك من عذاب جهنم.

ووقع :(كَذَلِكَ) موقع المفعول المطلق لقوله :(نَجْزِي) أي نجزيهم جزاء كذلك الجزاء.

وجملة (كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) تذييل .والكفور :الشديد الكفر، وهو المشرك.

وقرأ الجمهور :(نَجْزِي) بنون العظمة ونصب :(كُلَّ) . وقرأه أبو عمرو وحده(يُجْزَى) بياء الغائب والبناء للنائب ورفع :(كُلُّ). (٢)

(وهم يصطرخون فيها)، هذه الجملة عطف على جملة لهم ر جهنم.

(ويصطرخون): مبالغة في يصرخون، لأنه افتعال من الصراخ وهو الصياح بشدة وجهد، فالاصطراخ مبالغة فيه، أي يصيحون من شدة ما بهم.

وجملة(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا) بيان لجملة :(يَصْطَرِخُونَ)، يحسبون أن رفع الأصوات أقرب إلى علم بندائهم وإظهار عدم إطاقة ما هم فيه.

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ١٧٠) .

٢: التحرير والتنوير (٢٢ / ١٧٠) .

وقولهم :(نَعْمَلْ صَالِحاً) وعد لتدارك لما فاتهم من الأعمال الصالحة ولكنها إ بة بعد إ نها.

ولإرادة الوعد جزم :(نَعْمَلْ صَالِحاً) في جواب الدعاء .والتقدير :إن تخرجنا نعمل صالحا.

و (غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) نعت لـ (صَالِحاً)، أي عملا مغايرا لما كنا نعمله في الدنيا وهذا ندامة على ما كانوا يعملونه لأنهم أيقنوا بفساد عملهم وضره فإن ذلك العالم عالم الحقائق.

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ...الخ). [1]

الواو عاطفة فعل قول محذوفا لعلمه من السياق بحسب الضمير في (نُعَمِّرْكُمْ) معطوفا على جملة :(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) فإن صراخهم كلام منهم، والتقدير :يقولون ربنا أخرجنا ونقول ألم نعمركم.

والاستفهام تفريع للتوبيخ، وجعل التقرير على النفي توطئة لينكره المقرر حتى إذا قال :بلى علم أنه لم يسعه الإنكار إليه.

والتعمير :تطويل العمر، كما في قوله تعالى :(يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ).

و)مَا(ظرفية مصدرية، أي زمان تعمير معمر.

ووصف الرسول لنذير لأن الأهم من شأنه لنسبة إليهم هو النذارة.

والفاء في (فَذُوقُوا) للتفريع، وحذف مفعول" ذوقوا "لدلالة المقام عليه، أي ذوقوا العذاب.

والأمر في قوله:)فَذُوقُوا(مستعمل في معنى الدوام وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب.

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ١٧١) .

وقوله:)فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(تفريع على ما سبق من الحكاية .فيحتمل أن يكون من جملة الكلام الذي وبخهم به فهو تذييل له وتفريع عليه لتأييسهم من الخلاص يعني :فأين الذين زعمتم أنهم أولياؤكم ونصراؤكم فما لكم من نصير.

وعدل عن ضمير الخطاب أن يقال :فما لكم من نصير، إلى الاسم الظاهر بوصف)الظالمين(لإفادة سبب انتفاء النصير عنهم، ويتبعه التعميم بنفي النصير عن كل من كان مثلهم من المشركين.

ويحتمل أن يكون كلاما مستقلا مفرعا على القصة ذيلت بها للسامعين من قوله : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ رُ جَهَنَّمَ)، فليس فيه عدول عن الإضمار إلى الإظهار لأن المقصود إفادة شمول هذا الحكم لكل ظالم فيدخل الذين كفروا المتحدث عنهم في العموم.

والظلم :هو الاعتداء على حق صاحب حق، وأعظمه الشرك لأنه اعتداء على نكار الوحدانية، واعتداء المشرك على نفسه إذ أقحمها في العذاب قال تعالى(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (١)

وتعميم" الظالمين "وتعميم" النصير "يقتضي أن نصر الظالم تجاوز للحق، لأن الحق أن لا يكون للظالم نصير، إذ واجب الحكمة والحق أن خذ المقتدر على يد كل ظالم لأن الأمة مكلفة بدفع الفساد عن جماعتها.

وفي هذا إبطال لخلق أهل الجاهلية القائلين في أمثالهم (انصر أخاك ظالما أو مظلوما، وقد ألقى النبي صلى عليه وسلم على أصحابه إبطال ذلك فساق لهم هذا المثل حتى سألوا عنه ثم أصلح معناه مع بقاء لفظه فقال (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ١٧٢) .

ـَ رَسُولَ ـِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)[1]"[2] .

وقال ابن الجوزي: "وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال:

أحدها: أنه سبعون سنة، قال ابن عمر: هذه الآية تعيير لأبناء السبعين .

والثاني: أربعون سنة .

والثالث: ستون سنة، رواهما مجاهد عن ابن عباس، و لأول منهما قال الحسن، وابن السائب .

والرابع: ثماني عشرة سنة، قاله عطاء، ووهب بن منبّه، وأبو العالية، وقتادة .

وفي قوله تعالى: { وجاءكم النَّذير } أربعة أقوال:

أحدها: أنه الشيب، قاله ابن عمر، وعكرمة، وسفيان بن عيينة؛ والمعنى: أَوَلَمْ نعمِّرْكم حتى شِبتم؟! .

والثاني: النبيّ صلى عليه وسلم، قاله قتادة، وابن زيد، وابن السائب، ومقاتل .

والثالث: موت الأهل والأقارب .

والرابع . الحمّى ذكرهما الماوردي"[3] .

وقال صاحب الظلال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ رُ جَهَنَّمَ، لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها)،، فلا هذه ولا تلك .حتى الرحمة لموت لا تنال (كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) .. ثم ها نحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شتى الأرجاء .إنه صوت المنبوذين في جهنم: (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها)..

١: صحيح البخاري (٦٩٥٢) .

٢: التحرير والتنوير (٢٢ / ١٧٣) .

٣: زاد المسير (٥ / ١٥٨) .

وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعا .. فلنتبين من ذلك الصوت الغليظ ماذا يقول .إنه يقول: (رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)..

إنه الإنابة والاعتراف والندم إذن .ولكن بعد فوات الأوان .فها نحن أولاء نسمع الرد الحاسم يحمل التأنيب القاسي: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ؟)..

فلم تنتفعوا بهذه الفسحة من العمر، وهي كافية للتذكر لمن أراد أن يتذكر.

(وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ)..

زيادة في التنبيه والتحذير .فلم تتذكروا ولم تحذروا،(فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٩٤٥) .

النموذج الرابع والعشرون:

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم بالله وتكذيبكم رسله، ادخلوها اليوم وقاسوا حرها بسبب كفركم.

اليوم نطبع على أفواه المشركين فلا ينطقون، وتكلمنا أيديهم بما بطشت به، وتشهد أرجلهم بما سعت إليه في الدنيا وكسبت من الآ م .

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشُور: "إن هذا السياق إقبال على خطاب الذين عبدوا معبودات يسولها لهم الشيطان، إذ تبدو لهم جهنم بحيث يشار إليها ويعرفون أنها هي جهنم التي كانوا في الدنيا ينذرون بها وتذكر لهم في الوعيد مدة الحياة"[1] .

(هذه جهنم)، قال القرطبي: "أي تقول لهم خزنة جهنم هذه جهنم التي وعدتم فكذبتم بها"[2] .

ويقول صاحب التحرير والتنوير: "والأمر بقوله (اصلوها)، مستعمل في الإهانة والتنكيل.

وهو فعل أمر من صلي يصلى، إذا استدفأ بحر النار، وإطلاق الصلي على الإحراق تهكم.

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٢٥٥) .

٢: تفسير القرطبي (١٥ / ٤٧) .

والتعريف في (الْيَوْمَ) تعريف العهد، أي هذا اليوم الحاضر وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا من استبطاء الوعد والتكذيب إذ يقولون (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

والباء في (بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) سببية، أي بسبب كفركم في الدنيا.

والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وقوله :(الْيَوْمَ) ظرف متعلق بـ (نَخْتِمُ).

والقول في لفظ (الْيَوْمَ) كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.[1]

وضمائر الغيبة في (أَفْوَاهِهِمْ، أَيْدِيهِمْ، أَرْجُلُهُمْ، يَكْسِبُونَ) عائدة على الذين خوطبوا بقوله:)هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)، على طريقة الالتفات .وأصل النظم :اليوم نختم على أفواهكم وتكلمنا أيديكم وتشهد أرجلكم بما كنتم تكسبون .ومواجهتهم بهذا الإعلام ييس لهم نهم لا ينفعهم إنكار ما أطلعوا عليه من صحائف أعمالهم كما قال تعالى :(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبا).

والمراد بتكلم الأيدي تكلمها لشهادة، والمراد بشهادة الأرجل نطقها لشهادة، ففي كلتا الجملتين احتباك. والتقدير :وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد.[2]

ويتعلق :(بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) بكل من فعلي (تُكَلِّمُنَا ,وَتَشْهَدُ) على وجه التنازع . وما يكسبونه :هو الشرك وفروعه .وتكذيبهم الرسول صلى عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى"[3] .

١: التحرير والتنوير (٢٢ / ٢٥٦) .

٢: التحرير والتنوير (٢٢ / ٢٥٦) .

٣: التحرير والتنوير (٢٢ / ٢٥٦) .

(اليوم نختم على أفواههم)، قال القرطبي: "قيل في سبب الختم أربعة أوجه :أحدها : لأنهم قالوا "وَا ـَّ ـِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ"، فختم على أفواههم حتى نطقت جوارحهم، قاله أبو موسى الأشعري .الثاني :ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم، قاله ابن ز د . الثالث :لأن إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق لخروجه مخرج الإعجاز، إن كان يوما لا يحتاج إلى إعجاز .الرابع :ليعلم أن أعضاءه التي كانت أعوا في حق نفسه صارت عليه شهودا في حق ربه .فإن قيل :لم قال "وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ " فجعل ما كان من اليد كلاما، وما كان من الرجل شهادة؟ قيل :إن اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل، فلذلك عبر عما صدر من الأيدي لقول وعما صدر من الأرجل لشهادة"[١].

١: تفسير القرطبي (١٥ / ٤٨) .

النموذج الخامس والعشرون:

قال تعالى: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُستَسْلِمُون (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) الصافات:٢٢-٣٣.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويقال للملائكة اجمعوا الذين كفروا بالله ونظراءهم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله فسوقوهم سوقا عنيفا إلى جهنم، واحبسوهم قبل أن يصلوا إلى جهنم، إنهم مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت في الدنيا مساءلة إنكار عليهم وتوبيخ لهم.

ويقال لهم توبيخا: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا ؟ بل هم اليوم منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه غير منتصرين لأنفسهم.

وأقبل بعض الكفار على بعض يتلاومون ويتخاصمون، قال الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق، فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها، وتزينون لنا الضلال، وقال المتبوعون للتابعين: ما الأمر كما تزعمون ! بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان، وما كان لنا عليكم من حجة أو قوة فنصدكم بها عن الإيمان بل كنتم أيها المشركون قوما طاغين متجاوزين للحق فلزمنا جميعا وعد ربنا إنا لذائقو العذاب نحن وأنتم بما قدمنا من ذنوبنا ومعاصينا في الدنيا، فأضللناكم عن سبيل الله والإيمان به إنا كنا ضالين من قبلكم فهلكنا بسبب كفرنا وأهلكناكم معنا .

فإن الأتباع والمتبوعين مشنزكون يوم القيامة في العذاب كما اشنزكوا في الدنيا في معصية .

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور:)احشروا) أمر يقتضي آمرا أي طقا به، فهذا مقول لقول محذوف لظهور أنه لا يصلح للتعلق بشيء مما سبقه، وحَذْفُ القول من حديث البحر[1].

وظاهر أنه أمر من قبل تعالى للملائكة الموكلين لناس يوم الحساب.

و(الَّذِينَ ظَلَمُوا): المشركون، لقوله تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

والأزواج ظاهره أن المراد به حلائلهم قاله مجاهد والحسن.

وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أن المراد به الأزواج الموافقات لهم في الإشراك،أما من آمن فهن جيات من تبعات أزواجهن وهذا كذكر أزواج المؤمنين في قوله تعالى : (هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ)، فإن المراد أزواجهم المؤمنات فأطلق حملا على المقيد في قوله : (وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آ ـَئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّ ـَّهِمْ).

وذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإنذار لئلا يحسبوا أن النساء المشركات لا تبعة عليهن.وقيل:الأزواج":الأصناف،أي أشياعهم في الشرك وفروعه."قاله قتادة وهو رواية عن عمر بن الخطاب وابن عباس"[2] .

وعن الضحاك: الأزواج المقارنون لهم من الشياطين."

وقال ابن الجوزي: "وفي أزواجهم أربعة أقوال:

١: (حديث البحر) مصطلح استخدمه ابن عاشور رحمه في تفسيره ثلاث مرات، ولعله يعني به الأمر الشائع المعروف.

٢: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٢) .

أحدها: أمثالهم وأشباههم، وهو قول عمر، وابن عباس، والنعمان بن بشير، ومجاهد.

وروي عن عمر قال: يُحْشَر صاحبُ الرِّ مع صاحب الرِّ ، وصاحبُ الزِّ مع صاحب الزِّ وصاحب الخمر مع صاحب الخمر .

والثاني: أن أزواجَهم: المشركاتُ، قاله الحسن .

والثالث: أشياعهم، قاله قتادة .

والرابع:ـقُرَ وُهم من الشيَّاطين الذين أضلُّوهم، قاله مقاتل"[١] .

وفي المعبود -كما يقول ابن الجوزي-: " ثلاثة أقوال:

أحدها: الأصنام، قاله عكرمة، وقتادة .

والثاني: إبليس وحده، قاله مقاتل .

والثالث: الشياطين، ذكره الماوردي وغيره"[٢] .

وقال ابن عاشُور: "وعطف (فَاهْدُوهُمْ) بفاء التعقيب إشارة إلى سرعة الأمر بهم إلى النار عقب ذلك الحشر فالأمر لأصالة في القرآن للفور .

والهداية والهدي:الدلالة على الطريق لمن لا يعرفه،فهي إرشاد إلى مرغوب وقد غلبت في ذلك،لأن كون المهدي راغبا في معرفة الطريق من لوازم فعل الهداية ولذلك تقابل لضلالة وهي الحيرة في الطريق.

فذكر(اهْدُوهُمْ) هنا تهكم لمشركين، والصراط:الطريق،أي طريق جهنم.

(وَقِفُوهُمْ) أمر يقافهم في ابتداء السير بهم لما أفاده الأمر من الفور بقرينة فاء التعقيب التي عطفته، أي احبسوهم عن السير قليلا ليسألوا سؤال ييس وتحقير وتغليظ،

١: زاد المسير (٥ / ٢٠٥) .

٢: زاد المسير (٥ / ٢٠٥) .

فيقال لهم: (مَا لَكُمْ لاتَنَاصَرُونَ)، أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا فيدفع عنه الشقاء الذي هو فيه،وأين تناصركم الذي كنتم تتناصرون في الدنيا وتتألبون على الرسول وعلى المؤمنين.

والاستفهام في(مَا لَكُمْ لاتَنَاصَرُونَ)مستعمل في التعجيز مع التنبيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا"[١] .

(مسؤولون)، قال ابن الجوزي "وفي هذا السؤال ستة أقوال:

أحدها: أنهم سئلوا عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا .

الثاني: عن « لا إِله إِلا »، رو جميعاً عن ابن عباس .

والثالث: عن خطا هم، قاله الضحاك .

والرابع: سَأَلَهُمْ خزَنَةُ جهنم { أَلَمْ َتِكم نَذيرُ } [الملك: ٨] ونحو هذا، قاله مقاتل .

والخامس: أنهم يُسألون عمّا كانوا يعبُدون، ذكره ابن جرير .

والسادس: أن سؤالهم قوله { ما لكم لاتَنَاصَرونَ } ؟! ذكره الماوردي"[٢] .

وقال ابن عاشُور: "وجملة (مَا لَكُمْ لاتَنَاصَرُونَ) مبينة لإبهام (مَسْؤُولُونَ) وهو استفهام مستعمل في التعجيب للتذكير بما يسوءهم، فظهر أن السؤال ليس على حقيقته وإنما أريد به لازمه وهو التعجيب، والمعنى: أي شيء اختص بكم،ف (ما) الاستفهامية مبتدأ و (لكم) خبر عنه.

وجملة (لاتَنَاصَرُونَ) حال من ضمير (لكم) وهي مناط الاستفهام،أي أن هذه الحالة تستوجب التعجب من عدم تناصركم.وقرأ الجمهور)لاتَنَاصَرُونَ(بتاء مخففة، على

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٣) .

٢: زاد المسير (٥ / ٢٠٦) .

أنه من حذف إحدى التائين، وقرأ البزي بتشديد التاء في الوصل على إدغام إحدى التائين في الأخرى. [1]

والإضراب المستفاد من (بَل) إضراب لإبطال إمكانية التناصر بينهم وليس ذلك مما يتوهمه السمع، فلذلك كان الإضراب كيدا لما دل عليه الاستفهام من التعجيز.

والاستسلام:الإسلام القوي،أي إسلام النفس وترك المدافعة فهو مبالغة في أسلم.

وذكر (الْيَوْمَ) لإظهار النكاية بهم،أي زال عنهم ما كان لهم من تناصر وتطاول على المسلمين قبل اليوم،أي في الدنيا إذ كانوا يقولون :(نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ)وقد قالها أبو جهل يوم بدر،أي نحن جماعة لا تغلب فكان لذكر اليوم وقع بديع في هذا المقام[2].

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) عطف على (مُسْتَسْلِمُونَ) استسلموا وعاد بعضهم على بعض للائمة والمتسائلون:المتقاولون وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبينه حكاية تحاورهم من قوله :(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ) وقوله :(فَأَغْوَيْنَاكُمْ) الخ.

وعبر عن إقبالهم بصيغة المضي مما سيقع في القيامة،تنبيها على تحقيق وقوعه لأن لذلك مزيد ثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم،وتحذير دهمائهم من الاعتزاز بتغريرهم.

والإقبال:المجيء من جهة قبل الشيء،أي من جهة وجهه وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المتختل الخائف.واستعير هنا للقصد لكلام والاهتمام به كأنه جاءه من مكان آخر.

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٣) .

٢: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٣) .

فحاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجه به الذين اتبعوا على قادهم وزعمائهم،ودلالة التركيب عليه أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم لأن الإتيان يتضمن القصد دون إرادة مجيء.

(توننا) أي توننا صادينا عن اليمين، أي عن الخير، كما يقول ابن عطية، وقد يكون اليمين مرادا به جهة الخير، وقد اشتقت من اليمن وهو البركة، وهي مؤذنة لفوز لمطلوب عندهم وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش، من التيمن لسانح وهو الوارد من جهة يمين السائر، والتشاؤم أي ترقب ورود الشر من جهة الشمال، وقد يراد ليمين القوة والشدة بمعنى أنكم كنتم تغروننا بقوة منكم .

ثم قال ابن عاشُور: ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: توننا من الجهة التي يحسنها تمويهكم وإغواؤكم وتظهرون فيها أنها جهة الرشد" وهو عن الزجاج والجبائي ومما تحتمله الآية أن يريدوا :إنكم كنتم توننا،أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمن، فعبروا عنها ليمين"[1].

وحصر ابن الجوزي -كعادته- الأقوال في المسألة فقال: " وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: كنتم تَقْهَروننا بقُدرتكم علينا، لأنَّكم كنتم أعزَّ مِنّا، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: من قِبَل الدِّين فتُضِلوُّ عنه، قاله الضحاك . وقال الزجاج: توننا من قِبَل الدِّين فتخدعو قوى الأسباب .

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٥) .

والثالث: كنتم تُوثّقون ما كنتم تقولون ـَيمانكم، فتأتوننا من قِبَل الأيْمان التي تَحْلِفونها . حكاه عليّ بن أحمد النيسابوري . فيقول المتبوعون لهم: { بل لم تكونوا مؤمِنينَ } أي: لم تكونوا على حَقّ فنُضلِّكم عنه، إنما الكفر من قِبَلكم"[١] .

وجواب الزعماء بقولهم(بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(إضراب إبطال لزعم الأتباع أنهم الذين صدوهم عن طريق الخير أي بل هم لم يكونوا ممن يقبل الإيمان لأن تسليط النفي على فعل الكون دون أن يقال :بل لم تؤمنوا،مشعر ن الإيمان لم يكن من شأنهم،أي بل كنتم أنتم الآبين قبول الإيمان.و)وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ(أي من قهر وغلبة حتى نكرهكم على رفض الإيمان،ولذلك أكدوا هذا المعنى بقولهم:)بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ)،أي كان الطغيان وهو التكبر عن قبول دعوة رجل منكم شأنكم وسجيتكم، فلذلك أقحموا لفظ)قوما(بين" كان "وخبرها لأن استحضارهم بعنوان القومية في الطغيان يؤذن ن الطغيان من مقومات قوميتهم.

وفرّعوا على كلامهم اعترافهم نهم جميعا استحقوا العذاب فقولهم :(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِ ّ لَذَائِقُونَ)،تفريع الاعتراض،أي كان أمر ربنا ذاقتنا عذاب جهنم حقا .وفعل "حق "بمعنى ثبت.

وجملة (إِ ّ لَذَائِقُونَ) بيانـ ـ(قَوْلُ رَبِّنَا)، والكلام فيه التفات إذ الأصل" إنكم لذائقون "أو إنهم" لذائقون"، ونكتة الالتفات ز دة التنصيص على المعني بذوق العذاب. [٢]

وحذف مفعول" ذائقون "لدلالة المقام عليه وهو الأمر بقوله تعالى :(فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ).

١: زاد المسير (٥ م ٢٠٧) .

٢: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٥) .

وفرعوا على مضمون ردهم عليهم من قولهم :(بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) إلى (قَوْماً طَاغِينَ(قولهم:)فَأَغْوَيْنَاكُمْ)،أي ما أكرهناكم على الشرك ولكنا وجد كم متمسكين به وراغبين فيه فأغويناكم، أي فأيد كم في غوايتكم أ كنا غاوين فسولنا لكم ما اختر ه لأنفسنا فموقع جملة)إ ّ كُنَّا غَاوِينَ(موقع العلة.

و"إن "مغنية غناء لام التعليل وفاء التفريع .

وز دة)كنا(للدلالة على تمكين الغواية من نفوسهم،وقد استبان لهم أن ما كانوا عليه غواية فأقروا بها. (١)

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِ ّ كَذَلِكَ نَفْعَلُ ِ لْمُجْرِمِينَ)

قال في التحرير والتنوير: "هذا الكلام من تعالى موجه إلى النبي صلى عليه وسلم والمؤمنين، ويشبه أن يكون اعتراضا بين حكاية حوار أهل الشرك في القيامة وبين توبيخ إ هم بقوله(إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.)

والفاء للفصيحة لأنها وردت بعد تقرير أحوال وكان ما بعد الفاء نتيجة لتلك الأحوال فكانت الفاء مفصحة عن شرط مقدر،أي إذ كان حالهم كما سمعتم فإنهم يوم القيامة في العذاب مشتركون لاشتراكهم في الشرك وتمالئهم،أي لا عذر لكلا الفريقين لا للزعماء بتسويلهم ولا للدهماء بنصرهم .

وقد يكون عذاب دعاء المغوين أشد من عذاب الآخرين وذلك لا ينافي الإشراك في جنس العذاب كما دلت عليه أدلة أخرى،لأن المقصود هنا بيان عدم إجداء معذرة كلا الفريقين وتنصله.

وجملة (إِ ّ كَذَلِكَ نَفْعَلُ ِ لْمُجْرِمِينَ) تعليل لما اقتضته جملة (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) أي فإن جزاء المجرمين يكون مثل ذلك الجزاء في مؤاخذة التابع للمتبوع .

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٦) .

والمجرمون المشركون"[1] .

وقال السعدي: "أي إذا أحضروا يوم القيامة، وعاينوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم لكفر والشرك والمعاصي (وَأَزْوَاجَهُمْ) الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في العمل.

(وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعا (فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) أي: سوقوهم سوقا عنيفا إلى جهنم.

وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار،

يقال: { وَقِفُوهُمْ } قبل أن توصلوهم إلى جهنم {إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: (مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ) أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرقكم لا ينصر بعضكم بعضا، ولا يغيث بعضكم بعضا، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلهتكم ستدفع عنكم العذاب، وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: (بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)"[2] .

قال في الظلال: "احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين، فهم أزواج متشاكلون .. وفي الأمر – على ما فيه من لهجة جازمة – تهكم واضح في قوله: (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فما أعجبها من هداية خير منها الضلال .وإنها لهي الرد

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ٢٦) .

٢: تفسير السعدي(١ / ٧٠٢) .

المكافئ لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم .وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم !وها هم أولاء قد هدوا .هدوا إلى صراط الجحيم .ووقفوا على استعداد للسؤال .وها هو ذا الخطاب يوجه إليهم لتقريع في صورة سؤال بري ء !(ما لكم لا تناصرون؟) !ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا، وأنتم هنا جميعا؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين؟ !ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون !ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام !إنما يرد التعليق والتعقيب:)بل هم اليوم مستسلمون(..

عابدين .ومعبودين !!!ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضا: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا: إنكم كنتم توننا عن اليمين).

أي كنتم توسوسون لنا عن يميننا - كما هو المعتاد في حالة الوسوسة لأسرار غالبا -فأنتم مسؤولون عما نحن فيه.

وعندئذ ينبري المتهمون لتسفيه هذا الاتهام، وإلقاء التبعة على موجهيه:

(قالوا: بل لم تكونوا مؤمنين)..

فلم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان، وأضلتكم بعد هدى..

(وما كان لنا عليكم من سلطان)..

نرغمكم به على قبول ما نراه، ونضطركم إليه اضطرارا لا ترغبون فيه.

(بل كنتم قوما طاغين)..

متجاوزين للحق، ظالمين لا تقفون عند حد.

(فحق علينا قول ربنا إ لذائقون)..

فاستحققنا نحن وأنتم العذاب، وحق علينا الوعيد ن نذوق العذاب.

وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمو في غوايتنا:

(فأغويناكم إ كنا غاوين)..

وهنا يرد تعليق آخر، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد، يحمل أسبابه، ويعرض ما كان منهم في الدنيا مما حقق قول ا ّ عليهم في الآخرة:

(فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون .إ كذلك نفعل لمجرمين .إنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا ا ّ يستكبرون ويقولون: أإ لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون).. [1] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٢٧٨٩) .

النموذج السادس والعشرون:

(هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) ص: ٥٥-٦٤.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: هذا الذي سبق وصفه للمتقين، وأما المتجاوزون الحد في الكفر والمعاصي فلهم النار، يعذبون فيها، تغمرهم من جميع جوانبهم، فبئس الفراش فراشهم . هذا العذاب ماء شديد الحرارة وصديد سائل من أجساد أهل النار، فليشربوه ولهم عذاب آخر من هذا القبيل أصناف وألوان . وعند توارد الطاغين على النار يشتم بعضهم بعضا ويقول بعضهم لبعض: هذه جماعة عظيمة من أهل النار داخلة معكم فيجيبون: لا مرحبا بهم، ولا اتسعت منازلهم في النار، إنهم مقاسون حر النار كما قاسيناها.

قال فوج الأتباع للطاغين: بل أنتم لا مرحبا بكم، لأنكم قدمتم لنا سكنى النار لإضلالكم لنا في الدنيا، فبئس دار الاستقرار جهنم، قال فوج الأتباع: ربنا من أضلنا في الدنيا عن الهدى فضاعف عذابه في النار، وقال الطاغون، ما لنا لا نرى معنا في النار رجالا كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار الأشقياء ؟ هل تحقير لهم واستهزاؤ بهم خطأ ؟ أم أنهم معنا في النار لكن لم تقع عليهم الأبصار ؟

إن ذلك من جدال أهل النار وخصامهم حق واقع لا مرية فيه .

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: (هَذَا): اسم الإشارة مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله .

وجملة (يَصْلَوْنَهَا) حال من (جَهَنَّمَ) وهي حال مؤكد لمعنى اللام الذي هو عامل في "الطاغين "فإن معنى اللام أنهم تختص بهم جهنم واختصاصها بهم هو ذوق عذابها لأن العذاب ذاتي لجهنم.

والطاغي:الموصوف لطغيان وهو :مجاوز الحد في الكبر والتعاظم .والمراد بهم عظماء أهل الشرك لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم لابتعاد عن النبي صلى عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم:أبو جهل وأمية بن خلف،وعتبة ابن ربيعة،والوليد بن عتبة، والعاص بن وائل وأضرابهم.

والفاء في (فَبِئْسَ الْمِهَادُ) لنزتيب الإخبار وتسببه على ما قبله، نظير عطف الجمل بـ"ثم . "والمعنى:جهنم يصلونها، فيتسبب على ذلك أن نذكر ذم هذا المقر لهم، وعبر عن جهنمبـ (الْمِهَادُ) على وجه الاستعارة، شبه ما هم فيه من النار من تحتهم لمهاد وهو فراش النائم كقوله تعالى :(لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ).

وإشارة القريب لتقريب الإنذار والمشار إليه ما تضمنه قوله(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) من الصلي ومن معنى العذاب،أو الإشارة إلى شر من قوله :(لَشَرَّ مَآبٍ).

و (حَمِيمٌ) خبر عن اسم الإشارة، ومعنى الجملة في معنى بدل الاشتمال لأن شر المآب أو العذاب مشتمل على الحميم والغساق وغيره من شكله، والمعنى:أن ذلك لهم لقوله :(وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)، فما فصل به شر المآب وعذاب جهنم فهو في المعنى معمول للام.

والحميم: الماء الشديد الحرارة، والغساق: قرأه الجمهور بتخفيف السين.وقرأه حمزة والكسائي وحفص وخلف بتشديدها.

قيل هما لغتان وقيل:غساق لتشديد مبالغة في غساق بمعنى سائل،فهو على هذا وصف لموصوف محذوف"[١] .

وذكر القرطبي أقوالا كثيرة في معناه، قد يرى القارئ في بعض الأحيان أنها متناقضة، ولعل هذا ما جعل ابن عاشُور يقول: "والغساق سائل يسيل في جهنم، يقال:غسق الجرح، إذا سال منه ماء أصفر .وأحسب أن هذا الاسم بهذا الوزن أطلقه القرآن على سائل كريه يسقونه كقوله :(بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ)، وأحسب أنه لم تكن هذه الزنة من هذه المادة معروفة عند العرب، وبذلك يومئ كلام الراغب، وهذا سبب اختلاف المفسرين في المراد منه.

والأظهر:أنه صيغ له هذا الوزن ليكون اسما لشيء يشبه ما يغسق به الجرح، ولذلك سمي لمهل والصديد في آ ت أخرى".[٢]

وجملة)فَلْيَذُوقُوهُ(معترضة بين اسم الإشارة والخبر عنه،وهذا من الاعتراض المقترن لفاء دون الواو، والفاء فيه كالفاء في قوله:)فَبِئْسَ الْمِهَادُ(.

وقوله:)وَآخَرُ(صفة لموصوف محذوف دلت عليه الإشارة بقوله:)هَذَا)، وضمير)فَلْيَذُوقُوهُ(وصف آخر يدل على مغاير.

وقوله :(مِنْ شَكْلِهِ) يدل على أنه مغاير له في الذات وموافق في النوع، فحصل من ذلك أنه عذاب آخر أو مذوق آخر.

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٧٧) .

٢: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٧٨) .

والشَّكل بفتح الشين:المثل،أي المماثل في النوع،أي وعذاب آخر غير ذلك الذي ذاقوه من الحميم والغساق هو مثل ذلك المشار إليه أو مثل ذلك الذوق في التعذيب والألم.

والأزواج:جمع زوج بمعنى النوع والجنس.

والمعنى: وعذاب آخر هو أزواج أصناف كثيرة.ولما كان اسما شائعا في كل مغاير صح وصفهب (أَزْوَاجٌ) بصيغة الجمع.

(هذا فوج مقتحم معكم): ابتداء كلام حكي به تخاصم المشركين في النار فيما بينهم إذا دخلوها كما دل عليه قوله تعالى في آخره :(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)، ولا شك أن هذا التخاصم يزيدهم مقتا، إذ هو عذاب نفساني إلى عذابهم الجسماني، فرجوع بعضهم على بعض لتنديم وسوء المعاملة، وأسلوب الكلام يقتضي متكلما صادرا منه وأسلوب المقاولة يقتضي أن المتكلم به هم الطاغون الذين لهم شر المآب لأنهم أساس هذه القضية فالتقدير:يقولون،أي الطاغون بعضهم لبعض:هذا فوج مقتحم معكم،أي يقولون مشيرين إلى فوج من أهل النار أقحم فيهم ليسوا من أكفائهم ولا من طبقتهم وهم فوج الأتباع من المشركين الذين اتبعوا الطاغين في الحياة الدنيا،وذلك ما دل عليه قولهْ : (أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا) أي أنتم سبب إحضار هذا العذاب لنا [1]

ثم يقول ابن عاشُور: وهو الموافق لمعنى نظائره في القرآن كقوله تعالى(كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا)، فجملة القول المحذوف في موضع الحال من الطاغين.وجملة)هَذَا فَوْجٌ(إلى آخرها مقول القول المحذوف.

والاقتحام:الدخول في الناس،و(مع) مؤذنة ن المتكلمين متبوعون،وأن الفوج المقتحم أتباع لهم، فأدخلوا فيهم مدخل التابع مع المتبوع بعلامات تشعر بذلك.

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٧٩) .

وجملة (لا مَرْحَباً بِهِمْ) معترضة مستأنفة لإنشاء ذم الفوج.و)لا مَرْحَباً بِهِمْ(نفي لكلمة يقولها المزور لزائره وهي إنشاء دعاء الوافد .و(مَرْحَباً(مصدر بوزن المفعل، وهو الرُّحْب بضم الراء وهو منصوب بفعل محذوف دل عليه معنى الرحب،أي أتيت رحبا،أي مكا ذا رحب،فإذا أرادوا كراهية الوافد والدعاء عليه قالوا:لا مرحبا به،كأنهم أرادوا النفي بمجموع الكلمة، وذلك كما يقولون في المدح:حبذا،فإذا أرادوا ذما قالوا:لا حبذا.

والرحب في هذا كله كناية عن السعة المجازية، وهي الفرح ولقاء المرغوب في ذلك المكان بقرينة أن نفس السعة لا تفيد الزائر،وإنما قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يكونوا هم وأتباعهم في مكان واحد جر على خلق جاهليتهم من الكبر ء واحتقار الضعفاء. [1]

وجملة (إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ) خبر ن عن اسم الإشارة،والخبر مستعمل في التضجر منهم،أي أنهم مضايقوننا في مضيق النار كما أومأ إليه قولهم :(مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ).

فسَمِعَهم الأتباع، فيقولون (بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ(إضرا عن كلامهم.وجيء بحكاية قولهم على طريقة المحاورات فلذلك جرد من حرف العطف،أي أنتم أولى لشتم والكراهية ن يقال:لا مرحبا بكم، لأنكم الذين تسببتم لأنفسكم ولنا في هذا العذاب غرائكم إ على التكذيب والدوام على الكفر.

و(بل(للإضراب الإبطالي لرد الشتم عليهم وأنهم أولى به منهم.

وذكر ضمير المخاطبين في قوله:(أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ(للتنصل من شتمهم،أي أنتم المشتومون،أي أولى لشتم منا،وقد استفيد هذا المعنى من حرف الإبطال .

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٨٠) .

وجملة (أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا) علة لقلب سبب الشتم إليهم،أي لأنكم قدمتم العذاب لنا، فضمير النصب في (قَدَّمْتُمُوهُ) عائد إلى العذاب المشاهد، وهو حاضر في الذهن غير مذكور في اللفظ.

ووقوع (أَنْتُمْ) قبل (قَدَّمْتُمُوهُ(المسند الفعلي يفيد الحصر،أي لم يضلنا غيركم فأنتم أحقاء لعذاب.

والتقديم:جعل الشيء قدام غيره،قال تعالى (:ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ(فتقديم العذاب لهم جعله قدامهم،أي جعله حيث يجدونه عند وصولهم.

وإسناد تقديم العذاب إلى المخاطبين مجاز عقلي لأن الرؤساء كانوا سببا في تقديم العذاب لأتباعهم غوائهم وكان العذاب جزاء عن الغواية.

وجعل العذاب مقدما وإنما المقدم العمل الذي استحق العذاب،وهذا مجاز عقلي في المفعول فاجتمع في قوله :(قَدَّمْتُمُوهُ) مجازان عقليان.

وقوله :(فَبِئْسَ الْقَرَارُ) موقعه كموقع قوله آنفا :(فَبِئْسَ الْمِهَادُ).

وهو ذم لإقامتهم في جهنم تشنيعا عليهم فيما تسببوا لأنفسهم فيه.والمعنى:فبئس القرار ما قدمتموه لنا،أي العذاب.والقرار :المكث.

(قالوا): أي الفوج المقتحم وهو فوج الأتباع،فهذا من كلام الذين قالوا :(بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ) لأن قولهم(مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا(يعين هذا المحمل.ولذلك حق أن يتساءل الناظر عن وجه إعادة فعل)قَالُوا(وعن وجه عدم عطفه على قولهم الأول.! [1]

ويجيب ابن عاشُور: فأما إعادة فعل القول فلإفادة أن القائلين هم الأتباع فأعيد فعل القول كيدا للفعل الأول لقصد كيد فاعل القول تبعا لأنه محتمل لضمير القائلين.

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٨١) .

والمقصود من حكاية قولهم:)هَذَا(تحذير كبراء المشركين من عواقب ر ستهم وزعامتهم التي يجرون بها الويلات على أتباعهم فيوقعوهم في هاوية السوء حتى لا يجد الأتباع لهم جزاء بعد الفوت إلا طلب مضاعفة العذاب لهم.وأما تجريد فعل (قَالُوا) عن العاطف فلأنه قصد به التوكيد اللفظي والتوكيد اللفظي على مثال المؤكد.

و (مَنْ) في قوله :(مَنْ قَدَّمَ لَنَا) موصولة،وجملة (فَزِدْهُ) خبرعن (مَنْ)،واقتران الخبر لفاء جرى على معاملة الموصول معاملة الشرط في قرن خبره لفاء وهو كثير. [١]

والضعف، بكسر الضاد: تستعمل اسم مصدر ضعف وضاعف، فهو اسم التضعيف والمضاعفة، أي تكرير المقدار وتكرير القوة، وهو من الألفاظ المتضايفة المعاني كالنصف والزوج.

ويستعمل اسما بمعنى الشيء المضاعف .

(وَقَالُوا مَا لَنَا لاـنَرَى رِجَالاً كُنَّلـنَعُدُّهُمْ مِنَ الأشرار)، هذه الجملة عطف على (هَذَا ـفَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ)على ما قدر فيه من فعل قول محذوف، وهو من قول الطاغين فإنهم كانوا يحقرون المسلمين.

والاستفهام في (مَا لَنَا لاـنَرَى رِجَالاً) استفهام يلقيه بعضهم لبعض تلهفا على عدم رؤيتهم من عرفوهم من المسلمين مكنى به عن ملام بعضهم لبعض على تحقيرهم المسلمين واعتزافهم لخطأ في حسبانهم.فليس الاستفهام عن عدم رؤيتهم المسلمين في جهنم استفهاما حقيقيا شئا عن ظن أنهم يجدون رجال المسلمين معهم إذ لا يخطر ببال الطاغين أن يكون رجال المسلمين معهم،كيف وهم يعلمون أنهم بضد حالهم فلا يتوهموهم معهم في العذاب،ويحتمل أن يكون الاستفهام حقيقيا استفهموا عن مصير المسلمين لأنهم لا يروهم يومئذ،إذ قد علموا أن الناس صاروا إلى عالم آخر وهو الذي

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٨٢) .

كانوا ينذرون به،ويكون قولهم:)مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً(الخ تمهيدا لقولهم:)أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً(على كلتا القراءتين الآتي ذكرهما.

و)الْأَشْرَارِ):جمع شر الذي هو بمعنى الأشر،أو هو:جمع شرير ضد الخير،أي الموصوفين بشر الحالة،أي كنا نحسبهم أشقياء قد خسروا لذة الحياة تباعهم الإسلام ورضاهم بشظف العيش،وهم يعنون أمثال بلال، وعمار بن سر، وصهيب، وخباب، وسلمان. وليس المراد أنهم يعدونهم أشرارا في الآخرة مستحقين العذاب فإنهم لم يكونوا يؤمنون لبعث.[1]

وقرأ فع وابن كثير وابن عامر وعاصم)أَتَّخَذْنَاهُمْ) بهمزة قطع هي همزة الاستفهام،وحذفت همزة الوصل من فعل" اتخذ "لأنها لا تثبت مع همزة الاستفهام لعدم صحة الوقف على همزة الاستفهام، فجملة)أَتَّخَذْنَاهُمْ(بدل من جملة)مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً(.و)أم(حرف إضراب،والتقدير:بل زاغت عنهم أبصار .

والزيغ:الميل عن الجهة،أي مالت أبصار عن جهتهم فلم تنظرهم.

و"أل "في)الْأَبْصَارُ(عوض عن المضاف إليه، أي أبصار ، فيكون المعنى: أكان تحقير إ هم في الدنيا خطأ. وكنى عنه تخاذهم سخر لأن في فعل (اَتَّخَذْنَاهُمْ) إيماءً إلى أنهم ليسوا هل للسخرية،وهذا تندم منهم على الاستسخار بهم.

والسخريّ:اسم مصدر سخر منه، إذا استهزأ به،فالسخري الاستهزاء، وهو دال على شدة الاستهزاء لأن ءه في الأصل ء نسب و ء النسب تي للمبالغة في الوصف[2]. وقرأ فع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين، وقرأه الباقون بكسر السين .

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٨٣) .

٢: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٨٣) .

ويقول صاحب التحرير: "(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) تذييل وتنهية لوصف حال الطاغين وأتباعهم، وعذابهم، وجدالهم. و كيد الخبر بحرف التوكيد منظور فيه لما يلزم الخبر من التعويض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم نه حق،أي بت كقوله :(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) .

وأضيف هذا التخاصم إلى أهل النار كلهم اعتبارا لغالب أهلها لأن غالب أهل النار أهل الضلالات الاعتقادية وهم لا يعدون أن يكونوا دعاة للضلال أو أتباعا للدعاة إليه فكلهم يجري بينهم هذا التخاصم،أما من كان في النار من العصاة فكثير منهم ليس عصيانهم إلا تبعا لهواه مع كونه على علم ن ما تيه ضلالة لم يسوله له أحد.

و)أَهْلِ النَّارِ(هم الخالدون فيها،كقولهم:أهل قرية كذا،فإنه لا يشمل المقترب بينهم،على أن وقت نزول هذه الآية لم يكن في مكة غير المسلمين الصالحين وغير المشركين،فوصف أهل النار يومئذ لا يتحقق إلا في المشركين دون عصاة المسلمين.

وقوله:)تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ(إما خبر مبتدأ محذوف،تقديره:وهو تخاصم أهل النار،والجملة استئناف لز دة بيان مدلول اسم الإشارة،أو هو مرفوع على أنه خبر ن عن)إِنَّ(الناسخة،أو أنه بدل من كلمة (لَحَقٌّ)"[١] .

وقال السعدي:"(وَقَالُوا) وهم في النار (مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأشْرَارِ) أي :كنا نزعم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدهم أهل النار - قبحهم ا - هل يروهم في النار؟

(أَتَّخَذْ َهُمْ سِخْرِ ًّ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبْصَارُ) أي :عدم رؤيتنا لهم دائر بين أمرين :إما أننا غالطون في عد إ هم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من ب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار :(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ

١: التحرير والتنوير (٢٣ / ١٨٤) .

عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

والأمر الثاني أنهم لعلهم زاغت أبصار عن رؤيتهم معنا في العذاب وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصار فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان لنار تمكنت من قلوبهم وصارت صبغة لها فدخلوا النار وهم بهذه الحالة فقالوا ما قالوا

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه كما موهوا في الدنيا موهوا حتى في النار ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار (أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)

قال تعالى مؤكدا ما أخبر به وهو أصدق القائلين (إِنَّ ذَلِكَ) الذي ذكرت لكم (لَحَقٌّ) ما فيه شك ولا مرية (تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)"[١] .

قال في الظلال: "يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء، وفي السمات والهيئات: منظر (المتقين) لهم (لَحُسْنَ مَآبٍ) .ومنظر (الطاغين) لهم (لَشَرَّ مَآبٍ) .فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب.

ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب .ولهم كذلك متعة الحور ت الشواب .وهن مع شبابهن)قاصِراتُ الطَّرْفِ(لا يتطلعن ولا يمددن بصارهن .وكلهن شواب أتراب .وهو متاع دائم ورزق من عند الله)ما لَهُ مِنْ نَفادٍ.)

وأما الآخرون فلهم مهاد .ولكن لا راحة فيه .إنه جهنم)فَبِئْسَ الْمِهادُ !)ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيئ .إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار !أو لهم صنوف أخرى

١: تفسير السعدي (١ / ٣١٦) .

من جنس هذا العذاب .يعبر عنها ﻬﺎ)أَزْواجٌ !)ثم يتم المشهد بمنظر لث حي شاخص بما فيه من حوار: فها هي ذي جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم .كانت في الدنيا متوادة متحابة .فهي اليوم متناكرة متنابذة كان بعضهم يملي لبعض في الضلال . وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعيم .كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون:)أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟(..

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجا بعد فوج وها هم أولاء يقول بعضهم لبعض:)هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ(..

فماذا يكون الجواب؟ يكون الجواب في اندفاع وحنق:)لا مرحبا بهم إنهم صالو النار !)فهل يسكت المشتومون؟

كلا !إنهم يردون: (قالُوا: بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ!) .. فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب .وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام:)قالُوا: رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذا ً ضِعْفاً فِي النَّارِ !)ثم ماذا؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا، ويظنون بهم شرا، ويسخرون من دعواهم في النعيم .ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يروهم معهم مقتحمين في النار، فيتساءلون: أين هم؟ أين ذهبوا؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصار ؟:)وَقالُوا: ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ أَتَّخَذْ هُمْ سِخْرِ ًّ ؟ أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ؟(..بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان !ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار:)إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ !!)فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين الذين كانوا يسخرون منهم، ويستكثرون اختيار ا ّ لهم، وما أ س نصيبهم الذي كانوا يستعجلون به وهم يقولون:)رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ. !)"(١) .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣٠٢٤) .

النموذج السابع والعشرون:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) الزمر: ٧١-٧٢.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: وسيق الذين كفروا لله ورسله إلى جهنم جماعات، حتى إذا جاؤوها، فتح الخزنة الموكلون بها أبوابها السبعة، وزجروهم قائلين: كيف تعصون وتجحدون أنه الإله الحق وحده ؟ ألم يرسل إليكم رسلا منكم يتلون عليكم آ ت ربكم ويحذرونكم أهوال هذا اليوم ؟ قالوا مقرين بذنبهم: بلى قد جاءت رسل ربنا لحق وحذرو هذا اليوم،ولكن وجبت كلمة أن عذابه لأهل الكفر.

قيل للجاحدين أن هو الإله الحق إهانة لهم وإذلالا: ادخلوا أبواب جهنم ماكثين فيها أبدا، فقَبُحَ مصيرُ المتعالين على الإيمان لله والعمل بشرعه.

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشُور: "هذا تنفيذ القضاء الذي جاء في قوله (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ) وقوله :(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) فإن عاقبة ذلك ونتيجته إيداع المجرمين في العقاب وإيداع الصالحين في دار الثواب.

وابتدئ في الخبر بذكر مستحقي العقاب لأنه الأهم في هذا المقام إذ هو مقام إعادة الموعظة والترهيب للذين لم يتعظوا بما تكرر في القرآن من العظات .

والسَّوق:أن يجعل الماشي ماشيا آخر يسير أمامه ويلازمه،وضده القود،والسوق مشعر لإزعاج والإهانة،قال تعالى :(كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ(.

والزُّمَر:جمع زُمْرَة،وهي الفوج من الناس المتبوع بفوج آخر. ،فلا يقال:مرت زمرة من الناس،إلا إذا كانت متبوعة خرى،وهذا من الألفاظ التي مدلولها شيء مقيد.

وإنما جعلوا زمرا لاختلاف درجات كفرهم،فإن كان المراد لذين كفروا مشركي قريش المقصودين بهذا الوعيد كان اختلافهم على حسب شدة تصلبهم في الكفر وما يخالطه من حدب على المسلمين أو فظاظة،ومن محايدة للنبي صلى   عليه وسلم أو أذى،وإن كان المراد بهم جميع أهل الشرك كما تقتضيه حكاية الموقف مع قوله :(أَلَمْ َ ْتِكُمْ رُسُلٌ(كان تعدد زمرهم على حسب أنواع إشراكهم.

و)حتى(ابتدائية و)إذا(ظرف لزمان المستقبل يُضَمَّنُ معنى الشرط غالبا،أي سيقوا سوقا ملازما لهم بشدته متصل بزمن مجيئهم إلى النار.

وجملة)فتحت(جواب)إذا(لأنها ضمنت معنى الشرط وأغنى ذكر)إذا(عن الإتيان بـ(لمَّا) التوقيتية، والتقدير:فلما جاءوها فتحت أبوابها،أي وكانت مغلقة لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة تهويلا ورعبا.

وقرأ الجمهور (فُتِّحَتْ) بتشديد التاء للمبالغة في الفتح.وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف التاء على أصل الفعل. (١)

والخزَنة:جمع خازن وهو الوكيل والبواب غلب عليه اسم الخازن لأنه يقصد لخزن المال.

والاستفهام الموجه إلى أهل النار استفهام تقريري مستعمل في التوبيخ والزجر كما دل عليه قولهم بعده :(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ).

والتلاوة:قراءة الرسالة والكتاب لأن القارئ يتلو بعض الكلام ببعض، وأصل الآ ت :العلامات مثل آ ت الطريق.وأطلقت على الأقوال الدالة على الحق،والمراد بها

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٣٦) .

هنا الأقوال الموحى بها إلى الرسل مثل صحف إبراهيم وموسى والقرآن،وأخصها سم الآ ت هي آ ت القران لأنها استكملت كنه الآ ت شتمالها على عظم الدلالة على الحق وإذ هي معجزات بنظمها ولفظها.

وأسندت التلاوة إلى جميع الرسل وإن كان فيهم من ليس له كتاب، على طريقة التغليب.

وإضافة" يوم "إلى ضمير المخاطبين عتبار كونهم فيه كقول النبي صلى عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: (كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)[1]، فالإضافة قائمة مقام التعريف بـ"أل" العهدية.

وجوابهم بحرف)بلى(إقرار بطال المنفي وهو إتيان الرسل وتبليغهم فمعناه إثبات إتيان الرسل وتبليغهم"[2] .

(قالوا بلى) قال القرطبي: "أي قد جاءتنا الرسل، وهذا الاعتراف منهم بقيام الحجة عليهم"[3] .

ويقول ابن عاشُور "وكلمة العذاب هي الوعيد به على ألسنة الرسل كما في قول بعضهم في الآية الأخرى :(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِ ّ لَذَائِقُونَ)]الصافات[٣١:أي تحققت فينا،فالتعريف في كلمة (الْعَذَابِ) تعريف الجنس لإضافتها إلى معرفة بلام الجنس،أي الكلمات"[4] .

١: صحيح البخاري (١٧١٤) .

٢: التحرير والتنوير(٢٤ / ١٢٦) .

٣: تفسير القرطبي (١٥ / ٢٨٤) .

٤: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٣٦) .

وفي القرطبي: "أن كلمة العذاب قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين"[١] .

قال ابن عاشُور: "ومحل الاستدراك هو ما طوي في الكلام مما اقتضى أن تحق عليهم كلمات الوعيد،وذلك عراضهم عن الإصغاء لأمر الرسل،فالتقدير:ولكن تكبَّرَ وعانَدَ فحقت كلمة العذاب على الكافرين،وهذا الجواب من قبيل جواب المتندم المكروب فإنه يوجز جوابه ويقول لسائله أو لائمه: الأمر كما ترى .

ولم يعطف فعل)قالوا(على ما قبله لأنه جاء في معرض المقاولة والمحاورة كما سبق في نموذج سورة سبأ.

فعل)قيل(مبني للنائب للعلم لفاعل إذ القائل :ادخلوا أبواب جهنم، هم خزنتها.

ودخول الباب:ولوجه لوصول ما وراءه قال تعالى(ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ(أي لجوا الأرض المقدسة.

والمثْوَى:محل الثواء وهو الإقامة، والمخصوص لذم محذوف دل عليه ما قبله والتقدير:بئس مثوى المتكبرين جهنم ووصفولـبـ(المتكبرين(لأنهم أعرضوا عن قبول الإسلام تكبرا عن أن يتبعوا واحدا منهم"[٢] .

قال السعدي: "لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افنزقوا في الدنيا لإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال (:وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ (أي :سوقا عنيفا، يضربون لسياط الموجعة، من الز نية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال

١: تفسير القرطبي (١٥ / ٢٨٤) .

٢: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٣٧) .

عنها كل سرور، كما قال تعالى :﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى ◌َ رِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾أي :يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي :فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض .﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي : وصلوا إلى ساحتها﴾ فُتِحَتْ ﴿لهم أي :لأجلهم﴾ أَبْوَابُهَا ﴿لقدومهم وقِرًى لنزولهم .

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴿مهنئين لهم لشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع :﴿أَلَمْ ◌ْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴿أي :من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آ ◌َتِ رَبِّكُمْ ﴿التي أرسلهم ا ّ بها، الدالة على الحق اليقين وضح البراهين.

﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴿أي :وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، ستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا ﴿مقرين بذنبهم، وأن حجة ا ّ قامت عليهم ﴿بَلَى ﴿قد جاءتنا رسل ربنا ته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرو من هذا اليوم .﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿أي :بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر ت ا ّ، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

ف ﴿قِيلَ ﴿لهم على وجه الإهانة والإذلال :﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴿كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها .﴿خَالِدِينَ فِيهَا ﴿أبدا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون .﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿أي :بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم ا ّ من جنس عملهم، لإهانة والذل، والخزي"(١) .

١: تفسير السعدي (١ / ٧٣٠) .

وقال صاحب الظلال: "(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً» .«حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها)، واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكروهم سباب مجيئهم إليها (وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها: أَلَمْ ـَتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آ تِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا: بَلى . وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ) .

فالموقف موقف إذعان وتسليم .لا موقف مخاصمة ولا مجادلة .وهم مقرون مستسلمون !(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها .فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ!) ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين"[١] .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣٠٢٦)

النموذج الثامن والعشرون:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ا ـَّ ـِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ ـِ نَّهُ إِذَا دُعِيَ ا ـَّ ـُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ ـِ ـَّ ـِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) غافر: ١٠-١٢.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: إن الذين جحدوا أن هو الإله الحق، وصرفوا العبادة لغيره، عندما يعاينون أهوال النار نفسهم يمقتون أنفسهم أشد المقت، وعند ذلك يناديهم خزنة جهنم: لمقت لكم في الدنيا- حين طلب منكم الإيمان به واتباع رسله فأبيتم -أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن بعد أن أدركتم أنكم تستحقون سخط وعذابه .

قال الكافرون: ربنا أمتنا مرتين حين كنا في بطون أمهاتنا نطفا قبل نفخ الروح، وحين انقضى أجلنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين في دار الدنيا يوم ولد ويوم بعثنا من قبور ، فنحن الآن نقر خطائنا السابقة، فهل لنا من طريق نخرج به من النار وتعيد به إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؟ ولكن هيهات أن ينفعهم هذا الاعتراف.

ذلكم العذاب الذي لكم- أيها الكافرون -بسبب أنكم كنتم إذا دعيتم إلى توحيد وإخلاص العمل له كفرتم، وإن يجعل لله شريك تصدقوا به وتتبعوه، فالله سبحانه وتعالى هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو الذي له علو الذات والقدر والقهر وله الكبر ء والعظمة.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور رحمه : "مقابلة سؤال الملائكة للمؤمنين لنعيم الخالص يوم القيامة بما يخاطب به المشركون يومئذ من التوبيخ والتنديم وما يراجعون به من طلب العفو مؤذنة بتقدير معنى الوعد ستجابة دعاء الملائكة للمؤمنين، فطي ذكر ذلك ضرب من الإيجاز .والانتقال منه إلى بيان ما سيحل لمشركين يومئذ ضرب من الأسلوب الحكيم لأن قوله(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ) الآ ت مستأنف استئنافا بيانيا كأن سائلا سأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب ن الأهم أن يسأل عن ضد ذلك، وفي هذا الأسلوب إيماء ورمز إلى أن المهم من هذه الآ ت كلها هو موعظة أهل الشرك رجوعا إلى قوله (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) .

ومعنى ينادون أنهم يناديهم الملائكة تبليغا عن رب العزة، قال تعالى(أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)، أي ينادون وهم في جهنم كما دل عليه قوله(فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ.)

واللام في (لمقت(لام القسم، والمقت شدة البغض"[١] .

وفي القرطبي: "قال الأخفش: هذه اللام لام الابتداء، وقعت بعد ينادون، لأن معناه يقال لهم، والنداء قول، وقال غيره :المعنى يقال لهم ":لَمَقْتُ ا ِّ "إ كم في الدنيا "إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ "أكبر "من مقت بعضكم بعضا يوم القيامة، لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار . وقال الكلبي :يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك نفس، فتقول الملائكة لهم وهم في النار :لمقت إ كم إذ أنتم في الدنيا وقد بعث إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم .وقال الحسن :يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا

١: التحرير والتنوير (٢١ / ١٥٧) .

أنفسهم فينادون "لَمَقْتُ ا ّ ِ "إ كم في الدنيا "إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ ""أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ "اليوم .وقال معناه مجاهد .وقال قتادة :المعنى "لَمَقْتُ ا ّ ِ "لكم "إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ ""أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ "إذ عاينتم النار"[١] .

ويقول ابن عاشُور: "و"إذ "ظرف للزمن الماضي، أي حين تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول صلى عليه وسلم وذلك في الدنيا بقرينة (تُدْعَوْنَ)، وجيء لمضارع في (تُدْعَوْنَ) و (تَكْفُرُونَ) للدلالة على تكرر دعوهم إلى الإيمان وتكرر كفرهم، أي تجدده.

ومعنى مقتكم أنفسهم حينئذ- كما يقول ابن عاشُور -أهم فعلوا لأنفسهم ما يشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومغبَّة سوء، فكان فعلهم ذلك شبيها بفعل المرء لبغيضه من الضر والكيد، وهذا كما يقال :فلان عدو نفسه.

فالمقت مستعار لقلة التدبر فيما يضر .وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله تعالى (إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْأِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ) فمناط الكلام هو فَتَكْفُرُونَ(وفي ذكر)ينادون(ما يدل على كلام محذوف تقديره :إن الذين كفروا يمقتهم وينادون لمقت الخ.

ومعنى مقت :بغضه إ هم و)أكبر(بمعنى أشد وأخطر أثرا، فإطلاق الكبر عليه مجاز لأن الكبر من أوصاف الأجسام لكنه شاع إطلاقه على القوة في المعاني .ولما كان مقتهم أنفسهم حرمهم من الإيمان الذي هو سبب النجاة والصلاح وكان غضب عليهم أوقعهم في العذاب كان مقت إ هم أشد وأنكى من مقتهم أنفسهم لأن شدة الإيلام أقوى من الحرمان من الخير. [٢]

١: تفسير القرطبي (١٥ / ٢٩٧) .

٢: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٥٣) .

ثم يقول: والمقت الأول قريب من قوله :(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ ِ لْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)، والمقت الثاني قريب من قوله تعالى:)وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً)وهو مقت العذاب.

و(أنفسكم)يتنازعه(مَقْتُ ا ّ ِ)، و(مقتكم) فهو مفعول المصدرين المضافين إلى فاعليهما.

وبني فعل(تدعون) إلى النائب للعلم لفاعل لظهور أن الداعي هو الرسول صلى عليه وسلم أو الرسل عليهم السلام .وتفريع(فَتَكْفُرُونَ) لفاء على(تدعون) يفيد أنهم أعقبوا الدعوة لكفر، أي بتجديد كفرهم السابق و علانه أي دون أن يتمهلوا مهلة النظر والتدبر فيما دعوا إليه"[١] .

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)

قال ابن عاشُور: "جواب عن النداء الذي نودوا به من قبل تعالى فحكى مقالهم على طريقة حكاية المحاورات بحذف حرف العطف، طمعوا أن يكون اعترافهم بذنوبهم وسيلة إلى منحهم خروجا ما من العذاب ليستريحوا منه ولو بعض الزمن، وذلك لأن النداءَ الموجه إليهم من قبل أوهمهم أن فيه إقبالا عليهم.

والمقصود من الاعتراف هو اعترافهم لحياة الثانية لأنهم كانوا ينكرونها وأما الموتتان والحياة الأولى فإنما ذكرن إدماجا للاستدلال في صلب الاعتراف تزلفا منهم، أي أيقنا أن الحياة الثانية حق وذلك تعريض ن إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنع لأنه حاصل عن دليل، ولذلك جعل مسببا على هذا الكلام بعطفه بفاء السببية في قوله (فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا). [٢]

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٥٨)

٢: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٥٨) .

والمراد حدى الموتتين :الحالة التي يكون بها الجنين لحما لا حياة فيه في أول تكوينه قبل أن ينفخ فيه الروح وأما الموتة الثانية فهي المتعارفة عن انتهاء حياة الإنسان والحيوان.

والمراد لإحياءتين :الإحياءة الأولى عند نفخ الروح في الجسد بعد مبدإ تكوينه، والإحياءة الثانية التي تحصل عند البعث.

وتفرع قولهم :(فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا(على قولهم:)وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ(اعتبار أن إحدى الإحياءتين كانت السبب في تحقق ذنوبهم التي من أصولها إنكارهم البعث فلما رأوا البعث رأي العين أيقنوا نهم مذنبون إذ أنكروه ومذنبون بما استكثروه من الذنوب لاغترارهم لأمن من المؤاخذة عليهم بعد الحياة العاجلة.

فجملة (فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا(إنشاء إقرار لذنوب ولذلك جيء فيه لفعل الماضي كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإنشاء مثل صيغ العقود نحو :بعت .والمعنى :نعترف بذنوبنا.

وجعلوا هذا الاعتراف ضر من التوبة توهما منهم أن التوبة تنفع يومئذ فلذلك فرعوا عليه)فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)، فالاستفهام مستعمل في العرض والاستعطاف لرفع العذاب، وقد تكرر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروج أو التخفيف ولو يوما . [١]

والاستفهام بحرف)هَلْ(مستعمل في الاستعطاف .وتنكير)خُرُوجٍ(للنوعية تلطفا في السؤال، أي إلى شيء من الخروج قليل أو كثير لأن كل خروج يتنفعون به راحة من العذاب كقولهم :(ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ).

والسبيل :الطريق واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب، وكثر تصرف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٦٠) .

وتنكير (سَبِيلٍ) كتنكير (خُرُوجٍ) أي من وسيلة كيف كانت بحق أو بعفو بتخفيف أو غير ذلك .

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

قال ابن عاشُور: عدل عن جوابهم لحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب، وإذ قد كانوا عالمين به قالوا:)فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا)، كانت إعادة التوقيف عليه بعد سؤال الصفح عنه كناية عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه على وجه يشعر بتحقيرهم.

وزيد ذلك تحقيقا بقوله:)فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ(.

فالإشارة ب)ذلكم(إلى ما هم فيه من العذاب الذي أنبأ به قوله:)يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(وما عقب به من قولهم:)فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ.)

والباء في (بِأَنَّهُ) للسببية، أي بسبب كفركم إذا دعي الله وحده. وضمير)بِأَنَّهُ(ضمير الشأن، وهو مفسر بما بعده من قوله:)إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا)، فالسبب هو مضمون القصة الذي حاصل سبكه :بكفركم بالوحدانية وإيمانكم بالشرك.

و)إذا(مستعملة هنا في الزمن الماضي لأن دعاء الله واقع في الحياة الدنيا وكذلك كفرهم بوحدانية الله ، فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب.

ومجيء)وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا(بصيغة المضارع في الفعلين مؤول بالماضي بقرينه ما قبله، وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرر ذلك منهم في الحياة الدنيا فإن لتكرره أثرا في مضاعفة العذاب لهم. (١)

والدعاء :النداء، والتوجه بالخطاب .وكلا المعنيين يستعمل فيه الدعاء ويطلق الدعاء على العبادة.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٦١) .

فالمعنى إذا نودي بمسمعكم نداء دالا على أنه إله واحد مثل آ ت القرآن الدالة على نداء لوحدانية، فالدعاء هنا الإعلان والذكر، ولذلك قوبل بقوله(كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا)، والدعاء بهذا المعنى أعم من الدعاء بمعنى سؤال الحاجات ولكنه يشمله، أو إذا عبد وحده.

ومعنى)كفرتم(جددتم الكفر، وذلك إما بصدور أقوال منهم ينكرون فيها انفراد لإلهية، وإما بملاحظة جديدة وتذكر آلهتهم .ومعنى)وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا(إن يصدر ما يدل على الإشراك لله من أقوال زعمائهم ورفاقهم الدالة على تعدد الآلهة أو إذا أشرك به في العبادة تؤمنوا، أي تجددوا الإيمان بتعدد الآلهة في قلوبكم أو تؤيدوا ذلك قوال التأييد والز دة .ومتعلق (كفرتم) و (تؤمنوا) محذوفان لدلالة ما قبلهما .والتقدير :كفرتم بتوحيدي وتؤمنوا لشركاء.[1]

وجيء في الشرط الأول ب)إذا(التي الغالب في شرطها تحقق وقوعه إشارة إلى أن دعاء وحده أمر محقق بين المؤمنين لا تخلو عنه أ مهم ولا مجامعهم، مع ما تفيد)إذا(من الرغبة في حصول مضمون شرطها.

وجيء في الشرط الثاني بحرف)إن(التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها، أو أن شرطها أمر مفروض، مع أن الإشراك محقق تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك المفروض للتنبيه على أن دلائل بطلان الشرك واضحة دنى مل وتدبر فنزل إشراكهم المحقق منزلة المفروض لأن المقام مشتمل على ما يقلع مضمون الشرط من أصله فلا يصلح إلا لفرضه على نحو ما يفرض المعلوم موجودا أو المحال ممكنا.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٦١) .

والألف واللام في الحكم للجنس .واللام في (لله) للملك أي جنس الحكم ملك لله، وهذا يفيد قصر هذا الجنس على الكون لله، وهو قصر حقيقي إذ لا حكم يوم القيامة لغير تعالى.

وإيثار صفتي)الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ(لذكر هنا لأن معناهما مناسب لحرمانهم من الخروج من النار، أي لعدم نقض حكم عليهم لخلود في النار . لأن العلو في وصفه تعالى شرف القدر وكماله، فهو العلي في مراتب الكمالات كلها لذات، ومن جملة ما يقتضيه ذلك تمام العلو وتمام العدل، فلذلك لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة والعدل.[1]

ووصف)الْكَبِيرِ(هو قوة صفات كماله، فإن الكبير قوي وهو الغني المطلق، وكلا الوصفين صيغ على مثال الصفة المشبهة للدلالة على الاتصاف الذاتي المكين، وإنما يقبل حكم النقض لأحد أمرين :إما لعدم جريه على ما يقتضيه من سبب الحكم وهو النقض لأجل مخالفة الحق وهذا ينافيه وصف)الْعَلِيِّ)، وإما لأنه جور ومجاوز للحد، وهذا ينافيه وصف)الْكَبِيرِ(لأنه يقتضي الغنى عن الجور"[2] .

وقال في الظلال:

"المقت: أشد الكره .

وهم ينادون من كل جانب .إن مقت ا" لكم يوم كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتْكُم إليه من شرٍّ ونُكر، بكفرها وإعراضها عن دعوة الإيمان، قبل فوات الأوان .. وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب !والآن - وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال - يعرفون أن المتجه " وحده فيتجهون:

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٦٢) .

٢: التحرير والتنوير (٢٤ / ١٦٢) .

(قالُوا: رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ، فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا، فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ.. ()

وهي كلمة الذليل اليائس البائس..)رَبَّنا(..وقد كانوا يكفرون وينكرون .أحييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فإذا هو حياة، وإذا نحن أحياء .ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا، فجئنا إليك .وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه .وقد اعترفنا بذنوبنا)فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ؟ .)بهذا التنكير الموحي للهفة واليأس المرير.

هنا - في ظل هذا الموقف البائس - يجبههم بسبب هذا المصير:

(ذلِكُمْ ِ نَّهُ إِذا دُعِيَ ا ّ ُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا، فَالْحُكْمُ ِ ّ ِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.)

فهذا هو الذي يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل .إيمانكم لشركاء، وكفركم لوحدانية .فالحكم ّ العلي الكبير: وهما صفتان تناسبان موقف الحكم .الاستعلاء على كل شي ء، والكبر فوق كل شيء .في موقف الفصل الأخير"[١] .

وقال العلامة السعدي: "يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال (:إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر لله، أو بكتبه، أو برسله، أو ليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقوها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم (:لَمَقْتُ ا ّ ِ (أي :إ كم) إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (أي :حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم له، وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا) أَكْبَرُ

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣٠٧٢) .

مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ (أي :فلم يزل هذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكريم حَالا بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فاليوم حلَّ عليكم غضب وعقابه حين ل المؤمنون رضوان وثوابه.

فتمنوا الرجوع و) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ (يريدون الموتة الأولى وما بين النفختين على ما قيل أو العدم المحض قبل إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم،) وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (الحياة الدنيا والحياة الأخرى،) فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (أي :تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع، ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم (:ذَلِكُمْ ِ نَّهُ إِذَا دُعِيَ ا ّٰ ُ وَحْدَهُ (أي :إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به) كَفَرْتُمْ (به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور.

(وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا (أي :هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقيل والمحل، أنكم تكفرون لإيمان، وتؤمنون لكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة.

تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا)

(فَالْحُكْمُ ِ ّٰ ِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) العلي :الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.

(الْكَبِير (الذي له الكبر ء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المتنزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم لخلود الدائم، فحكمه لا يغير ولا يبدل"(١) .

١: تفسير السعدي (١ / ٧٣٣) .

النموذج التاسع والعشرون:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آ َتِ ا ِّ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا ِ لْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ ا ِّ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ ا ُّ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) غافر: ٦٩-٧٦.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ألا تعجب- أيها الرسول -من هؤلاء المكذِّبين ت يخاصمون فيها ,وهي واضحة الدلالة على توحيد وقدرته ,كيف يعدلون عنها مع صحتها؟ وإلى أيِّ شيء يذهبون بعد البيان التام؟

هؤلاء المشركون الذين كذَّبوا لقرآن والكتب السماوية التي أنزلها على رسله لهداية الناس، فسوف يعلم هؤلاء المكذبون عاقبة تكذيبهم حين تُجعل الأغلال في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، وتسحبهم ز نية العذاب في الماء الحار الذي اشتدَّ غليانه وحرُّه، ثم في ر جهنم يوقد بهم .

ثم قيل لهم توبيخًا وهم في هذه الحال التعيسة :أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون ؟ هل ينصرونكم اليوم؟ فادعوهم؛ لينقذوكم من هذا البلاء الذي حلَّ بكم إن استطاعوا ,قال المكذبون :غابوا عن عيوننا ,فلم ينفعو بشيء ,ويعترفون هم كانوا في جهالة من أمرهم ,وأن عبادتهم لهم كانت طلة لا تساوي شيئًا ,كما أضل هؤلاء الذين ضلَّ عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دون ,يضل الكافرين به.

التفسير التفصيلي:

(ألم تر إلى الذين يجادلون...)الخ قال ابن عاشُور: "جملة مستأنفة للتعجيب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البينة.

والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظا، والمراد به :التقرير على الإثبات.

والرؤية علمية، وفعلها معلق عن العمل لاستفهامـبـ (أَنَّى يُصْرَفُونَ)، و" أنى " بمعنى)كيف)، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله:)أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ(أي أرأيت عجيب انصرافهم عن التصديق لقرآن بصارف منشؤه غير بين، ولذلك بني فعل)يُصْرَفُونَ(للنائب لأن سبب صرفهم عن الآ ت ليس غير أنفسهم .ويجوز أن تكون "أنى "بمعنى" أين"، أي ألا تعجب من أين يصرفهم صارف عن الإيمان حتى جادلوا في آ ت مع أن شبه انصرافهم عن الإيمان منتفية .بما تكرر من دلائل الآفاق وأنفسهم وبما شاهدوا من عاقبة الذين جادلوا في آ ت ممن سبقهم، وهذا كما يقول المتعجب من فعل أحد" أين يذهب بك."

وبناء فعل)يُصْرَفُونَ(للمجهول على هذا الوجه للتعجب من الصارف الذي يصرفهم وهو غير كائن في مكان غير نفوسهم.

وأبدل)الَّذِينَ كَذَّبُوا ِ لْكِتَابِ(من)الَّذِينَ يُجَادِلُونَ(لأن صلتي الموصولين صادقتان على شيء واحد، فالتكذيب يصدق هنا على الجدال، والكتاب: القرآن. (1)

وعطف)وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا(يجوز أن يكون على أصل العطف مقتضيا المغايرة، فيكون المراد :وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب قبل نزول القرآن، فيكون تكذيبهم ما أرسلت به الرسل مرادا به تكذيبهم جميع الأد ن كقوله تعالى:)وَمَا قَدَرُوا ا َّ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ ا َُّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)، ويحتمل أنه أريد به التكذيب لبعث فلعلهم

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٤٣) .

لما جاءهم محمد صلى   عليه وسلم ثبات البعث سألوا عنه أهل الكتاب فأثبتوه فأنكر المشركون جميع الشرائع لذلك.

ويجوز أن يكون عطفَ مرادفٍ فائدُتُه التوكيد، والمراد ب)رسلنا(محمد صلى   عليه وسلم كقوله:)كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ(يعني الرسول نوحا على أن في العطف فائدة زائدة على ما في المعطوف عليه وهي أن مما جاء به الرسول صلى   عليه وسلم مواعظ وإرشادا كثيرا ليس من القرآن .

وتفرع على تكذيبهم وعيدهم بما سيلقونه يوم القيامة فقيل فسوف يعلمون، أي سوف يجدون العذاب الذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه .وعبر عن وجدانهم العذاب لعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم لبعث وتظاهرهم بعدم فهم ما يقوله الرسول صلى   عليه وسلم فأنذروا ن ما جهلوه سيتحققونه يومئذ كقول الناس :ستعرف منه ما تجهل،

وحذف مفعول (يَعْلَمُونَ) لدلالة (كَذَّبُوا ِلْكِتَابِ) عليه، أي يتحققون ما كذبوا به .والظرف الذي في قوله(إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) متعلق ب(يَعْلَمُونَ) أي يعلمون في ذلك الزمن .وشأن" إذ "أن تكون اسما للزمن الماضي واستعملت هنا للزمن المستقبل بقرينة" سوف "فهو إما استعمال المجاز بعلاقة الإطلاق، وإما استعارة تبعية للزمن المستقبل المحقق الوقوع تشبيها لزمن الماضي وقد تكرر ذلك .ومنه اقترانها ب"يوم "في نحو قوله :(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)، وقوله :(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُون بِنَصْرِ ا َّ ِ) .

وأول ما يعلمونه حين تكون الأغلال في أعناقهم أنهم يتحققون وقوع البعث.

والأغلال :جمع غُل، بضم الغين، وهو حلقة من قِدٍّ أو حديد تحيط لعنق تناط بها سلسلة من حديد، أو سير من قَدٍّ يمسك بها المجرم والأسير.[1]

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٤٤) .

والسلاسل :جمع سلسلة بكسر السينين وهي مجموع حلق غليظة من حديد متصل بعضها ببعض.

والسحب :الجر، وهو يجمع بين الإيلام والإهانة .والحميم :أشد الحر.

و"ثم "عاطفة جملة (فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(إلى جملة)يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ(.وشأن" ثم"إذا عطفت الجمل أن تكون للتراخي الرتبي وذلك أن احتراقهم لنار أشد في تعذيبهم من سحبهم على النار، فهو ارتقاء في وصف التعذيب الذي أجمل بقوله:)فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(والسجر لنار حاصل عقب السحب سواء كان بنزاخ أم بدونه.

والسجر :ملء التنور لوقود لتقوية النار فيه، فإسناد فعل)يُسْجَرُونَ(إلى ضميرهم إسناد مجازي لأن الذي يسجر هو مكانهم من جهنم، فأريد سناد المسجور إليهم المبالغة في تعلق السجر بهم، أو هو استعارة تبعية بتشبيههم لتنور في استقرار النار بباطنهم كما قال تعالى :(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ).

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ ا ّ َِ... الخ) [1]

"ثم "هذه للتراخي الرتبي لا محالة لأن هذا القول يقال لهم قبل دخول النار، بدليل أن مما وقع في آخر القول)ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)، ودخول أبواب جهنم قبل السحب في حميمها والسجر في رها .وهذا القيل ارتقاء في تقريعهم وإعلان خطل آرائهم بين أهل المحشر وهو أشد على النفس من ألم الجسم، ولأن هذا القول مقدمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكفرهم ومرحهم، وهو أيضا ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم إذ ارتقى من صفة جزائهم على إشراكهم وهو شيء غير مستغرب ترتبه على الشرك إلى وصف

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٤٥) .

تحقيرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وذلك غريب من أحوالهم وأشد دلالة على بطلان إلهية أصنامهم وهو المقصد المهم من القوارع التي سلطت عليهم.

والقائل لهم : طق ذن .و"أين "للاستفهام عن مكان الشيء المجهول المكان، والاستفهام هنا مستعمل في التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام ليكونوا شفعاء لهم من غضب فلما حق عليهم العذاب فلم يجدوا شفعاء ذكروا بما كانوا يزعمونه فقيل لهم :(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ ا ّ ِ)، فابتدروا لجواب قبل انتهاء المقالة طمعا في أن ينفعهم الاعتذار- كما يقول ابن عاشُور.-[١]

ومعنى (ضَلُّوا) غابوا كقوله :(أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِ ّ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي غيبنا في التراب، ثم عرض لهم فعلموا أن الأصنام لا تفيدهم .فأضربوا عن قولهم(ضَلُّوا عَنَّا) وقالوا(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً) أي لم نكن في الدنيا ندعو شيئا يغني عنا، فنفي دعاء شيء هنا راجع إلى نفي دعاء شيء يعتد به، كما تقول :حسبت أن فلا شيء فإذا هو ليس بشيء، إن كنت خبرته فلم تر عنده خيرا .وفي الحديث" :سئل النبي صلى عليه وسلم عن الكهان فقال: (ليسوا بشيء)[٢] أي ليسوا بشيء معتد به فيما يقصدهم الناس لأجله.

وإذا كان كثير من المفسرين ذكر أن قولهم لم نكن ندعو من قبل شيئا أنه إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها، فإن اضطرابهم من الرعب في ذلك الوقت هو الذي سبب ذلك، ويجوز أن يكون لهم في ذلك الموقف مقالان، وهذا كله قبل أن يحشروا في

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٤٦) .

٢: صحيح البخاري (٥٦٧٢) .

النار هم و أصنامهم فإنهم يكونون متماثلين حينئذ كما قال تعالى(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) [١].

وجملة (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ) تذييل معترض بين أجزاء القول الذي يقال لهم . ومعنى الإشارة تعجيب من ضلالهم، أي مثل ضلالهم ذلك يضل الكافرين .والمراد لكافرين :عموم الكافرين، فليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار .والتشبيه في قوله : (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ) يفيد تسبيه إضلال جميع الكافرين ضلاله هؤلاء الذين يجادلون في آ ت ، فتكون جملة (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ) تذييلا، أي مثل إضلال الذين يجادلون في آ ت يضل جميع الكافرين، فيكون إضلال هؤلاء الذين يجادلون مشبها به إضلال الكافرين كلهم، والتشبيه كناية عن كون إضلال الذين يجادلون في آ ت بلغ قوة نوعه بحيث ينظر به كل ما خفي من أصناف الضلال، وهو كناية عن كون مجادلة هؤلاء في آ ت أشد الكفر.

والتشبيه جار على أصله وهو إلحاق قص بكامل في وصف ولا يكون من قبيل قوله :(ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ) تكملة القيل الذي يقال لهم حين إذ الأغلال في أعناقهم .والإشارة إلى ما هم فيه من العذاب .و"ما "في الموضعين مصدرية، أي ذلكم مسبب على فرحكم ومرحكم اللذين كا لكم في الدنيا، والأرض :مطلقة على الدنيا[٢].

والفرح :المسرة ورضي الإنسان على أحواله، فهو انفعال نفساني .والمرح ما يظهر على الفارح من الحركات في مشيه ونظره ومعاملته مع الناس وكلامه وتكبره فهو هيئة ظاهرية.

١: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٤٦) .

٢: التحرير والتنوير (٢٤ / ٢٤٧) .

و كلمة(بِغَيْرِ الْحَقِّ) يتنازعها كل من (تَفْرَحُونَ) و (تَمْرَحُونَ)أي تفرحون بما يسركم من الباطل وتزدهون لباطل فمن آ ر فرحهم لباطل تطاولهم على الرسول صلى عليه وسلم، ومن المرح لباطل استهزاؤهم لرسول صلى عليه وسلم والمؤمنين، قال تعالى :(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ) . فالفرح كلما جاء منهيا عنه في القرآن فالمراد به هذا الصنف منه، كقوله تعالى :(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ ا َّ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) وقد يكون محمودا فإن امتن على المؤمنين لفرح في قوله(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ا َّ ِ)، وأمرهم به عند اقتضاء موجبه الحقيقي قال تعالى (قل بفضل ورحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).

وجملة)ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ(يجوز أن تكون استئنافا بيانيا لأنهم لما سمعوا التقريع والتوبيخ وأيقنوا نتفاء الشفيع ترقبوا ماذا سيؤمر به في حقهم فقيل لهم:)ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)، ويحتمل أن تكون بدل اشتمال من جملة)ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ(الخ، فإن مدلول اسم الإشارة العذاب المشاهد لهم وهو يشتمل على إدخالهم أبواب جهنم والخلود فيها.

ودخول الأبواب كناية عن الكون في جهنم لأن الأبواب إنما جعلت ليسلك منها إلى البيت ونحوه.

و)خالدين(حال مقدرة، أي مقدار خلودكم.

وفرع عليه)فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)، والمخصوص لذم محذوف لأنه يدل عليه ذكر جهنم أي فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

والمثوى :محل الثواء، والثواء :الإقامة الدائمة، واختير لفظ (مَثْوَى) دون (مدخل) المناسب (ادْخُلُوا) لأن المثوى أدل على الخلود فهو أولى بمساءهم.

والمراد لمتكبرين :المخاطبون ابتداء لأنهم جادلوا في آ ت عن كبر في صدورهم كما قال تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آ َتِ ا ّ ِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَ َهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) ولأن تكبرهم من فرحهم.

وإنما عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو)الْمُتَكَبِّرِينَ(للإشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تكبرهم على الرسل .وليكون لكل موصوف لكبر حظ من استحقاق العقاب إذا لم يتب ولم تغلب حسناته على سيئاته إن كان من أهل الإيمان"[1]
.

قال صاحب الظلال: (الَّذِينَ كَذَّبُوا ِلْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا)

"وهم كذبوا كتا واحدا .ورسولا واحدا .ولكنهم إنما يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل .فهي عقيدة واحدة، تتمثل في أكمل صورها في الرسالة الأخيرة .ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول .. كل مكذب في القديم والحديث صنع هذا حين كذب رسوله الذي جاءه لحق الواحد وبعقيدة التوحيد.

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)..

ثم يعرض ماذا سوف يعلمون..

إنها الإهانة والتحقير في العذاب .لا مجرد العذاب .(إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ)..

بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش !وعلام التكريم؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم؟ !وبعد السحب والجر في هذا العذاب وفي هذه المهانة، ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار وإلى ر:

(فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ)..

أي يربطون ويحبسون، على طريقة سجر الكلاب .أي يملأ لهم المكان ماء حارا و را موقدة .وإلى هذا ينتهون.

وبينما هم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والتزذيل والإحراج والإعنات:
(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ: أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ ا َّ ِ؟(..
فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته، وهو ئس حسير.
(قالُوا: ضَلُّوا عَنَّا .بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً(..

غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقا، وما عادوا يعرفون لنا طريقا .بل لم نكن ندعو من قبل شيئا .فقد كانت كلها أوهاما وأضاليل !وعلى إثر الجواب البائس يجيء التعقيب العام :

(كَذلِكَ يُضِلُّ ا َّ ُ الْكافِرِينَ)..
ثم يوجه إليهم التأنيب الأخير:
(ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ .ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)..

مغيث !وأين إذن كان السحب في السلاسل والأغلال، وكان الماء الحار والنار؟ يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود..)فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(..فعن الكبر نشأت هذه المهانة .وجزاء على الكبر كان هذا التحقير"[1] !

وقال السعدي: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آ َتِ ا َّ ِ) الواضحة البينة متعجبًا من حالهم الشنيعة .(أَنَّى يُصْرَفُونَ) أي :كيف يعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آ ت بينات تعارض آ ت ؟ لا و .أم يجدون شبهًا توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل طلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣٠٩٧) .

لكتاب، الذي جاءهم من ، وبما أرسل به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم بعذابها فقال : (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

(إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) التي لا يستطيعون معها حركة .(وَالسَّلاسِلُ) التي يقرنون بها، هم وشياطينهم (يُسْحَبُونَ فِي الحميم)

أي :الماء الذي اشتد غليانه وحره .(ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال (لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ ا ّ ِ) هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ .(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا) أي :غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا، لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا :(بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا) يحتمل أن مرادهم بذلك، الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل- وهو الأظهر -أن مرادهم بذلك، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس ّ شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون، بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى :

(كَذَلِكَ يُضِلُّ ا ّ ُ الْكَافِرِينَ) أي :كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم نفسهم، يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى :(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ا ّ ِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ) ويدل عليه قوله تعالى :(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ ا ّ ِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) الآ ت.

ويقال لأهل النار (ذَلِكُمْ) العذاب، الذي نوع عليكم (بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) أي :تفرحون لباطل الذي أنتم عليه، و لعلوم التي خالفتم

بها علوم الرسل وتمرحون على عباد ، بغيًا وعدوا ً، وظلمًا، وعصيا ً، كما قال تعالى في آخر هذه السورة :﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾

وكما قال قوم قارون له (:﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ (كل بطبقة من طبقاتها، على قدر عمله (.﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (لا يخرجون منها أبدًا) ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (مثوى يخزون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها"[1] .

١: تفسير السعدي (١ / ٧٤٢) .

النموذج الثلاثون:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ا ـّـ ِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا ا ـّـ ُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ا ـّـ َ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم يحشر أعداء إلى ر جهنم، ترد ز نية العذاب أولهم على آخرهم، حتى إذا ما جاءوا النار وأنكروا جرائمهم، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا من الذنوب والآ م.

وقال هؤلاء الذين يحشرون إلى النار من أعداء لجلودهم معاتبين: لم شهدتم علينا ؟

فأجابتهم جلودهم: أنطقنا الذي أنطق كل شيء، وهو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئا، وإليه مصيركم بعد الموت للحساب والجزاء.

وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي خوفا من أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم يوم القيامة، ولكن ظننتم رتكابكم المعاصي أن لا يعلم كثيرا من أعمالكم التي تعصون بها، وذلكم ظنكم السيئ الذي ظننتموه بربكم أهلككم فأوردكم النار فأصبحتم اليوم من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.

فإن يصبروا على العذاب فالنار مأواهم، وإن يسألوا الرجوع إلى الدنيا ليستأنفوا العمل الصالح لا يجابوا إلى ذلك، ولا تقبل لهم أعذار.

وهيأ لهؤلاء الظالمين الجاحدين قر ء فاسدين من شياطين الإنس والجن، فزينوا لهم قبائح أعمالهم في الدنيا، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، فأنسوهم ذكرها، ودعوهم إلى التكذيب لميعاد، وبذلك استحقوا دخول النار في جملة أمم سابقة من كفرة الجن والإنس، إنهم كانوا خاسرين أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

التفسير التفصيلي:

قرأ فع)نحشر(بنون العظمة و(أعداءَ (لنصب على المفعول به، وقرأ الباقون بياءٍ مضمومة و(أعداءُ) لرفع على أنه ئب فاعل .

وأعداء كما يقول القرطبي: "الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره.

(وهم يوزعون): يساقون ويدفعون إلى جهنم .قال قتادة والسدي: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدة بدئ لأكابر فالأكابر جرما"(١) .

وقال ابن عاشور: "ويجوز أن يكون﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ا ّ ِ(مفعولا لفعل" واذكر " محذوفا مثل نظائره الكثيرة.

والحشر :جمع الناس في مكان لمقصد .ويتعلق قوله)إلى النار(ب)يحشر(لتضمين)يحشر(معنى :نرسل، أي نرسلهم إلى النار.

والفاء في قوله﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ(عطف وتفريع على)يحشر(لأن الحشر يقتضي الوزع إذ هو من لوازمه عرفا، إذ الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين وكثرة العدد تستلزم الاختلاط وتداخل بعضهم في بعض فلا غنى لهم عن الوزع لتصفيفهم ورد بعضهم عن بعض.

١: تفسير القرطبي (١٥ / ٣٥٠) .

والوزع :كف بعضهم عن بعض ومنعهم من الفوضى وهو كناية عن كثرة المحشورين .

و)حتى(ابتدائية وهي مفيدة لمعنى الغاية فهي حرف انتهاء في المعنى وحرف ابتداء في اللفظ، أي أن ما بعدها جملة مستأنفة.

و)إذا(ظرف لمستقبل متضمن معنى الشرط وهو متعلق بجوابه، و)ما(زائدة للتوكيد بعد)إذا(تفيد توكيد معنى)إذا(من الارتباط لفعل الذي بعد)إذا(سواء كانت شرطية كما في هذه الآية أم كانت لمجرد الظرفية كقوله تعالى)وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(ويظهر أن ورود)ما(بعد)إذا(يقوي معنى الشرط في)إذا(، ولعله يكون معنى الشرط حينئذ نصا لا احتمالا .وضمير المؤنث الغائب في)جاءوها(عائد إلى)النار(أي إذا وصلوا إلى جهنم. [1]

وجملة)شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ(الخ يقتضي كلام المفسرين أنها جواب)إذا(، فاقتضى الارتباط بين شرطها وجوابها وتعليقها بفعل الجواب .واستشعروا أن الشهادة عليهم تكون قبل أن يوجهوا إلى النار، فقدروا فعلا محذوفا تقديره :وسئلوا عما كانوا يفعلون فأنكروا فشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، يعني :سألهم خزنة النار.

ويرجح ابن عاشور رحمه أن "جواب)إذا(محذوف للتهويل وحذف مثله كثير في القرآن، وتكون جملة)شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ(إلى آخرها مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن مفاد)حتى(من الغاية لأن السائل يتطلب ماذا حصل بين حشرهم إلى النار وبين حضورهم عند النار فأجيب ن)شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ(إلى قوله)الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ(ويتضمن ذلك أنهم حوسبوا على أعمالهم وأنكروها فشهدت عليهم جوارحهم وأجسادهم.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٦) .

ثم إن شهادة جوارحهم وجلودهم عليهم :شهادة تكذيب وافتضاح لأن كون ذلك شهادة يقتضي أنهم لما رأوا النار اعتذروا نكار بعض ذنوبهم طمعا في تخفيف العذاب وإلا فقد علم   ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة وقرئ عليهم كتابهم، وما أحضروا للنار إلا وقد تحققت إدانتهم، فما كانت شهادة جوارحهم إلا ز دة خزي لهم وتحسيرا وتنديما على سوء اعتقادهم في سعة علم   "[١] .

قلت: ولا شك أن شهادة الجوارح لها دلالتها الخاصة وأثرها البالغ، ويكفي دليلا على ذلك ما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي   عنه أن العبد يخاطب ربه فيقول: " رب ألم تجرني من الظلم قال: يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا و لكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي فتنطق عماله قال ثم يخلي بينه وبين الكلام قال فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أ ضل"[٢] .

وفي مسلم أيضا من حديث أبي هريرة ثم يقال: "الآن نبعث شاهد عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط   عليه"[٣]

ثم يقول ابن عاشُور: "وتخصيص السمع والأبصار والجلود لشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح لأن للسمع اختصاصا بتلقي دعوة النبي صلى   عليه وسلم وتلقي آ ت القرآن، فسمعهم يشهد عليهم نهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك كما حكى   عنهم

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٧) .

٢: صحيح مسلم (٢٩٦٩) .

٣: صحيح مسلم (٢٩٦٨) .

بقوله(وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ) ولأن للأبصار اختصاصا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد تعالى لخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته، وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق لنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر .ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح، وإنما قالوا لجلودهم (لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) دون أن يقولوه لسمعهم وأبصارهم لأن الجلود مواجهة لهم يتوجهون إليها لملامة. وإجراء ضمائر السمع والبصر والجلود بصيغتي ضمير جمع العقلاء لأن التحاور معها صيرها بحالة العقلاء يومئذ" .

وقد استغرب ابن عاشور رحمه من بعض أهل العلم الذين فسروا الجلود لفروج، وذكر أنه تعنت في محل الآية لا داعي له بحال من الأحوال [1].

"والاستفهام في قولهم)لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا(مستعمل في الملامة وهم يحسبون أن جلودهم لكونها جزءا منهم لا يحق لها شهادتها عليهم لأنها تجر العذاب إليها.

وقول الجلود)أَنْطَقَنَا ا ّ ُ(اعتذار ن الشهادة جرت منها بغير اختيار.وهذا النطق من خوارق العادات كما هو شأن العالم الأخروي .وقولهم)الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ(تمجيد لله تعالى ولا علاقة له لاعتذار.

يجوز أن تكون هذه الجملة والتي عطفت عليها من تمام ما أنطق به جلودهم تشهيرا بخطئهم في إنكارهم البعث والمصير إلى لز دة التنديم والتحسير، وهذا ظاهر كون الواو في أول الجملة واو العطف فيكون التعبير لفعل المضارع في قوله)وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(لاستحضار حالتهم فإنهم ساعتئذ في قبضة تصرف مباشرة .وأما رجوعهم

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٨) .

بمعنى البعث فإنه قد مضى لنسبة لوقت إحضارهم عند جهنم، أو يكون المراد لرجوع الرجوع إلى ما ينتظرهم من العذاب"(١) .

وقد ذكر ابن الجوزي في الجلود ثلاثة أقوال:

"أحدها: الأيدي والأرجل .

والثاني: الفروج، رو عن ابن عباس .

والثالث: الجلود نفسها، حكاه الماوردي"(٢) .

قوله (وما كنتم تستنزون أن يشهد عليكم...) الخ .

يقول صاحب التحرير والتنوير "قلَّ من تصدى من المفسرين لبيان اتصال هذه الآ ت الثلاث بما قبلها" .

ويجوز أن تكون جملة (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ) بتمامها معطوفة على جملة (وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) ويجوز أن تكون مستقلة عنها :إما معطوفة على جملة)وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ا ـّ ِ إِلَى النَّارِ(الآ ت، وإما معترضة بين تلك الجملة وجملة)فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ(وتكون الواو اعتراضيه .

ومناسبة الاعتراض ما جرى من ذكر شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم . فيكون الخطاب لجميع المشركين الأحياء في الدنيا، أو للمشركين في يوم القيامة. "

وعلى هذه الوجوه فالمعنى -كما يقول ابن عاشُور-: ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتستنزون منه بل كنتم تجهرون به وتفخرون تباعه فماذا لومكم على جوارحكم وأجسادكم أن شهدت عليكم بذلك فإنه كان أمرا مشهورا فالاستتار مستعمل في الإخبار مجازا لأن حقيقة الاستتار إخفاء الذوات والذي شهدت به جوارحهم هو اعتقاد

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٣٨) .

٢: زاد المسير (٥ / ٣٠٢) .

الشرك والأقوال الداعية إليه .وحرف)ما(نفي بقرينة قوله بعده)وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ا ً لا ـيَعْلَمُ(الخ، ولابد من تقدير حرف جر يتعدى به فعل(تستتزون) إلى)أن يشهد(وهو محذوف على الطريقة المشهورة في حذف حرف الجر مع" أن ."وتقديره :بحسب ما يدل عليه الكلام وهو هنا يقدر حرف من، أي ما كنتم تستتزون من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم، أي ما كنتم تسنزون من تلك الشهود، وما كنتم تتقون شهادتها، إذ لا تحسبون أن ما أنتم عليه ضائر إذ أنتم لا تؤمنون بوقوع يوم الحساب.

ومن المحتمل أن يكون فعل تستتزون مستعملا في حقيقته أي تستتزون عمالكم عن سمعكم وأبصاركم وجلودكم ,وذلك توبيخ كناية عن أنهم ما كانوا يرون ماهم عليه قبيحا حتى يستتزوا منه وعلى بعض الاحتمالات فيما ذكر يكون فعل)تستتزون(مستعملا في حقيقته ومجازه" .

وحاصل معنى الآية على كل الاحتمالات -كما يقول في التحرير والتنوير- "أن عليم عمالكم ونياتكم لا يخفى عليه شيء منها إن جهرتم أو سترتم وليس بحاجة إلى شهادة جوارحكم عليكم وما أوقعكم في هذا الضر إلا سوء ظنكم بجلال . [1]

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ) الإشارة إلى الظن المأخوذ من فعل (ظَنَنْتُمْ أَنَّ ا ً لاـيَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا ـتَعْمَلُونَ) ويستفاد من الإشارة إليه تمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته للنداء على ضلالهم.

وأتبع اسم الإشارة لبدل بقوله (ظنكم) لز دة بيانه ليتمكن ما يعقبه من الخبر، والخبر هو فعل (أرداكم) وما تفرع عليه.

و (الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ) صفة ل(ظنكم) .والإتيان لموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو (أرداكم) وما تفرع عليه، أي الذي ظننتم بربكم ظنا طلا .

والعدول عن اسم العلم إلى (بربكم) للتنبيه على ضلال ظنهم، إذ ظنوا خفاء بعض

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٤١) .

أعمالهم عن علمه مع أنه ربهم وخالقهم فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم، وهو يشير إلى قوله (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ففي وصف (بربكم) إيماء إلى هذا المعنى .

والإرادء :الإهلاك، يقال :ردي كرضي، إذا هلك، أي مات، والإرداء مستعار للإيقاع في سوء الحالة بحيث صاروا مثل الأموات فإن ذلك أقصى ما هو متعارف بين الناس في سوء الحالة وفي الإتيان لمسند فعلا إفادة قصر، أي ما أرداكم إلا ظنكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي لم تردكم شهادة جوارحكم حتى تلوموها بل أرداكم ظنكم أن لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه.

وقوله)فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ(تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون ووثقوا من تحصيل سعادتهم، وهم ما عرفوا حق معرفته فعاملوا بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنوا النجاة، فشبه حالهم بحال التاجر الذي استعد للربح فوقع في الخسارة.

والمعنى :أنه نعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، تلك الأصول التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن ونفوا البعث، ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)" [1].

ثم يختم ابن عاشور بقوله:" واعلم أن أسباب الضلال في العقائد كلها إنما تي على الناس من فساد التأمل وسرعة الإيقان وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة وكل ذلك يفضي إلى الوهم المعبر عنه لظن السيئ، أو الباطل .وقد ذكر

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٤٢) .

مثله في المنافقين وأن ظنهم هو ظن أهل الجاهلية فقال (يَظُنُّونَ ِ ّ ِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام فيبوءوا ببعض ما نعي على عبدة الأصنام.

وقد قال النبي صلى عليه وسلم "إ كم والظن فإن الظن أكذب الحديث"(١) يريد الظن الذي لا دليل عليه."

ثم قال ابن عاشُور: و"أصبحتم "بمعنى :صرتم، لأن أصبح يكثر أن تي بمعنى :صار "اهـ

(فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ..)الخ.

قال ابن عاشُور: هذه الجملة" تفريع على جواب)إذا(على كلا الوجهين المتقدمين، أو تفريع على جملة)وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا)، أو هو جواب)إذا)، وما بينهما اعتراض على حسب ما يناسب الوجوه المتقدمة .والمعنى على جميع الوجوه :أن حاصل أمرهم أنهم قد زج بهم في النار فإن صبروا واستسلموا فهم قون في النار، وإن اعتذروا لم ينفعهم العذر ولم يقبل منهم تنصل.

وقوله (فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ) دليل جواب الشرط لأن كون النار مثوى لهم ليس مسببا على حصول صبرهم وإنما هو من ب قولهم :إن قبل ذلك فذاك، أي فهو على ذلك الحال، فالتقدير :فإن يصبروا فلا يسعهم إلا الصبر لأن النار مثوى لهم.

ومعنى)وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا(إن يسألوا العتبى بضم العين وفتح الباء اسم مصدر الإعتاب وهي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب .وفي المثل ما مسيء من أعتب أي من رجع عما أساء به فكأنه لم يسيء .وقلما استعملوا المصدر الأصلي بمعنى الرجوع استغناء عنه سم المصدر وهو العتبى .والعاتب هو اللائم، والسين والتاء فيه للطلب لأن المرء لا

١: رواه مالك في الموطأ (١٦١٦) والبخاري في الصحيح (٥١٤٣) .

يسأل أحدا أن يعاتبه وإنما يسأله ترك المعاتبة، أي يسأله الصفح عنه فإذا قبل منه ذلك قيل :أعتبه أيضا، وهذا من غريب تصاريف هذه المادة في للغة ولهذا كادوا أن يميتوا مصدر :أعتب بمعنى رجع وأبقوه في معنى قَبِلَ العُتْبَى، وهو المراد في قوله تعالى (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ(أي أن لا يعتبهم، أي لا يقبل منهم [1] .

ثم يقول ابن عاشُور: " (وقيضنا لهم قر ء) هذه الجملة عطف على جملة)وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ا ّ ِ(وذلك أنه حكي قولهم المقتضي إعراضهم عن التدبر في دعوة الإيمان ثم ذكر كفرهم بخالق الأكوان بقوله)قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ِ لَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ(.

ثم ذكر مصيرهم في الآخرة بقوله)وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ا ّ ِ(ثم عقب ذلك بذكر سبب ضلالهم الذي نشأت عنه أحوالهم بقوله)وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَ ءَ(وتخلل بين ما هنالك وما هنا أفانين من المواعظ والدلائل والمنن والتعاليم والقوارع والإيقاظ.

وقيض :أ ح وهيأ شيئا للعمل في شيء .والقر ء جمع :قرين، وهو الصاحب الملازم، والقر ء هنا :هم الملازمون لهم في الضلالة :إما في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمته، وإما في طن النفوس مثل شياطين الوسواس الذين قال فيهم)وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَا ً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(اهـ

والتقييض الإبدال، ومنه المقايضة، تقول قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاعي.

ومعنى تقييضهم لهم: كما يقول ابن عاشُور – تقديرهم لهم، أي خلق المناسبات التي يتسبب عليها تقارن بعضهم مع بعض لتناسب أفكار الدعاة والقابلين كما يقول الحكماء استفادة القابل من المبدإ تتوقف على المناسبة بينهما. فالتقييض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات،

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٤٣) .

ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس بعض الناس فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيئة فيها .والإحاطة بهذا المقصود أوثر التعبير هنلـب(قيضنا(دون غيره من نحوه :بعثنا، وأرسلنا.

والتزيين :التحسين، وهو يشعر ن المزين غير حسن في ذاته .و)مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ(يستعار للأمور المشاهدة، وما خلفهم يستعار للأمور المغيبة .والمراد ب)مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ(أمور الدنيا، أي زينوا لهم ما يعملونه في الدنيا من الفساد مثل عبادة الأصنام، وقتل النفس بلا حق، وأكل الأموال، والعدول على الناس ليد واللسان، والميسر، وارتكاب الفواحش، والوأد .فعودوهم ستحسان ذلك كله لما فيه من موافقة الشهوات والرغبات العارضة القصيرة المدى، وصرفوهم عن النظر فيما يحيط فعالهم تلك من المفاسد الذاتية الدائمة.

والمراد ب)ما خلفهم(الأمور المغيبة عن الحس من صفات ، وأمور الآخرة من البعث والجزاء مثل الشرك لله ونسبة الولد إليه، وظنهم أنه يخفى عليه مستور أعمالهم، وإحالتهم بعثة الرسل، وإحالتهم البعث والجزاء.

ومعنى تزيينهم هذا لهم تلقينهم تلك العقائد لأدلة السفسطائية مثل قياس الغائب على الشاهد، ونفي الحقائق التي لا تدخل تحت المدركات الحسية كقولهم)أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَا ً وَعِظَاماً أَإِ ّ لَمَبْعُوثُونَ أَوَآ َ ؤُ َ الْأَوَّلُونَ.)

و)حَقَّ عَلَيْهِمُ(أي تحقق فيهم القول وهو وعيد إ هم لنار على الكفر، فالتعريف في)القول(للعهد .وفي هذا العهد إجمال، مفصل في مثل قوله)أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ(وقوله)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِ ّ لَذَائِقُونَ(.

ثم إن قوله)فِي أُمَمٍ(حال من ضمير)عليهم)، أي حق عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم.[1]

والظرفية هنا مجازية، وهي بمعنى التبعيض، أي هم من أمم قد خلت من قبلهم حق عليهم القول.

و(من(في قوله)مِنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ(بيانية، فيجوز أن تكون بيا ـلـ"أمم"، أي من أمم من البشر ومن الشياطين فيكون مثل قوله تعالى)قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(وقوله)قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ(ويجوز أن يكون بيا ل)قر ء(أي ملازمين لهم ملازمة خفية وهي ملازمة الشياطين لهم لوسوسة وملازمة أئمة الكفر لهم لتشريع ما لم ذن به .

وجملة)إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(يجوز أن تكون بيا للقول مثل نظيرها)فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِ لَذَائِقُونَ(في سورة الصافات، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا شئا عن جملة)وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ(والمعنيان متقار ن"[2] .

قال في الظلال: "إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب .وسلطان ا " الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب .وهم يوصمون نهم أعداء ا " .فما مصير أعداء ا " ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم وآخرهم على أولهم كالقطيع !إلى أين؟ إلى النار !حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب .إن ألسنتهم معقودة لا تنطق، وقد كانت تكذب وتفنزي وتستهزئ .وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سرا .فقد يستنزون من ا " .ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنوا هم، ويتخفون بجرائمهم .ولم يكونوا ليستخفوا

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٤٤) .

٢: التحرير والتنوير (٢٥ / ٤٥)

من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم .وكيف وهي معهم؟ بل كيف وهي أبعاضهم؟ !وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستورا عن الخلق أجمعين .وعن ا ّ رب العالمين ! للمفاجأة بسلطان ا ّ الخفي، يغلبهم على أبعاضهم فتلبي وتستجيب!

(وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا؟(..

فإذا هي تجبههم لحقيقة التي خفيت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة:

(قالُوا: أَنْطَقَنَا ا ّ ُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْ ءٍ)؟

أليس هو الذي جعل الألسنة هي الناطقة؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها .وقد أنطق كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين.

(وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(..

فإليه المنشأ وإليه المصير، ولا مفر من قبضته في الأول وفي الأخير.

وهذا ما أنكروه لعقول .وهذا ما تقرره لهم الجلود !وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم .وقد تكون تعقيبا على الموقف العجيب:

(وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ(..

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم!)وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ا ّ َ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ(..

وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم:

(وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ(..

ثم يجيء التعقيب الأخير:

(فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ(..

للسخرية !فالصبر الآن صبر على النار وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء .إنه الصبر الذي جزاؤه النار قرارا ومثوى يسوء فيه الثواء!)وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ(..

فما عاد هناك عتاب، وما عاد هناك متاب .وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلب من ورائه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء .فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب .لا الصفح والرضى الذي يعقب العتاب !ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان ا ّ في قلوبهم، وهم بعد في الأرض، يستكبرون عن الإيمان ّ .

فا ّ قد قيض لهم - بما اطلع على فساد قلوبهم - قر ء سوء من الجن ومن الأنس، يزينون لهم السوء، وينتهون بهم إلى مواكب الذين كتب عليهم الخسران، وحقت عليهم كلمة العذاب:

(وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَ ءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ(..

فلينظروا كيف هم في قبضة ا ّ الذي يستكبرون عن عبادته .وكيف أن قلوبهم التي بين جنوبهم تقودهم إلى العذاب والخسارة وقد قيض ا ّ وأحضر قر ء يوسوسون لهم، ويزينون لهم كل ما حولهم من السوء، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح . وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه، وأن يرى كل شيء من شخصه حسنا ومن فعله !فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائما لبوار، وإذا هم في قطيع السوء .في الأمم التي حق عليها وعد ا ّ من قبلهم من الجن والإنس . قطيع الخاسرين)إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ)[1] .

وقال السعدي رحمه : "وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ا ِّ .. الآية .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣١١٩) .

خبَّر تعالى عن أعدائه، الذين رزوه لكفر به و   ته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي :يجمعون (.إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (أي :يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقا عنيفًا، لا يستطيعون امتناعًا، ولا ينصرون أنفسهم، ولا هم ينصرون.

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا (أي :حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي،) شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ (عموم بعد خصوص . (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي :شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول :أ فعلت كذا وكذا، يوم كذا وكذا .وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب، إنما تقع بها، أو بسببها.

فإذا شهدت عليهم عاتبوها،) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ (هذا دليل على أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكر (:لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا (ونحن ندافع عنكن؟) قَالُوا أَنْطَقَنَا ا ّّ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (فليس في إمكاننا، الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

(وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (فكما خلقكم بذواتكم، وأجسامكم، خلق أيضا صفاتكم، ومن ذلك، الإنطاق (.وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث لخلق الأول، كما هي طريقة القرآن.

(وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ (الآية .

أي :وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك .

(وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ (قدامكم على المعاصي (أَنَّ ا ّ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ) فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال :(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ) الظن السيئ، حيث ظننتم به، ما لا يليق بجلاله .

(أَرْدَاكُمْ) أي :أهلككم (فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) لأنفسهم وأهليهم وأد ۂم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم، في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة:

(فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) فلا جَلَدَ عليها، ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على ر، قد اشتد حرها، وزادت على ر الدنيا، بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون :(اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ)

(وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا) أي :يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل .(فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) لأنه ذهب وقته، وعمروا، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم، مع أن استعتابهم، كذب منهم (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

أي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق (قُرَ ءَ) من الشياطين، كما قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَ ّ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) أي تزعجهم إلى المعاصي وتحثهم عليها، بسبب ما زينوا (لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فالدنيا زخرفوها عينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي ا ّ، وسلكوا ما شاءوا من محاربة ا ّ ورسله والآخرة بَعَّدُوها عليهم وأنسوهم ذكرها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه، بعدم وقوعها، فنزحَّل خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر، والبدع، والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من ا ّ للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر ا ّ وآ ته، وجحودهم الحق كما قال تعالى (:وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

(وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) أي :وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم (فِي) جملة (أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) لأد نهم وآخرتهم، ومن خسر، فلا بد أن يذل ويشقى ويعذب"[١] .

١: تفسير السعدي (١ / ٧٤٧) .

النموذج الحادي والثلاثون:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ) فصلت: ٢٩ .

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: وقال الذين كفروا بالله ورسوله وهم في النار، ربنا أرنا الذين أضلانا من خلقك من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا في الدرك الأسفل من النار.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور رحمه الله: "القائلون هم عامة المشركين، كما يدل عليه قوله (اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا) . ومعنى (أرنا) عين لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم ولذلك جزم (نجعلهما) في جواب الطلب على تقدير :إن ترناهما نجعلهما تحت أقدامنا .والجعل تحت الأقدام :الوطء بالأقدام والرفس، أي نجعل آحادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا، فإن الدهماء أكثر من القادة فلا يعوزهم الانتقام منهم .وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان، قال ابن وعلة الجرمي:

ووطئنا وطأ على حنق ... وطأ المقيد نابت الهرم

وإنما طلبوا أن يروهما لأن المضلين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم فلذلك لم يعرفوا أين هم.

قلت: ويدل على ذلك قوله تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ)

قال ابن عاشور: والأسفلون :الذين هم أشد حقارة من حقارة هؤلاء الذين كفروا، أي ليكونوا أحقر منا جزاء لهم، فالسفالة مستعارة للإهانة والحقارة.

وقرأ الجمهور (أر) بكسر الراء .وقرأه ابن كثير وابن عامر والسوسي عن أبي عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الراء للتخفيف من ثقل الكسرة، كما قالوا :فخذ في فخذ، والمعنى: مكنا من الذين أضلا كي نجعلهما تحت أقدامنا، أي ائذن لنا هانتهما وخزيهما.

وقرأ ابن كثير (اللذين) بتشديد النون من اسم الموصول وهي لغة لبعض العرب"[١]
.

قال في الظلال: "وسرعان ما نجدهم في النار .وسرعان ما نشهد حنق المخدوعين، الذين زين لهم قر ؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وأغروهم بهذه المهلكة التي انتهى إليها مطافهم:

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: رَبَّنا أَرِ الَّذَيْنِ أَضَلَّا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا، لِيَكُو مِنَ الْأَسْفَلِينَ).

إنه الحنق العنيف، والتحرق على الانتقام: (نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُو مِنَ الْأَسْفَلِينَ) .وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والتزيين"[٢] !

وقال السعدي رحمه : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي :الأتباع منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحنق، على من أضلهم(رَبَّنَا أَرِ الَّذَيْنِ أَضَلا مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ) أي :الصنفين اللذين، قادا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجن، وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٤٩) .

٢: في ظلال القرآن (٥ / ٣١٢٠) .

(نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُو َ مِنَ الأسْفَلِينَ (أي :الأذلين المهانين كما أضلو ، وفتنو ، وصاروا سببًا لنزولنا .ففي هذا، بيان حنق بعضهم على بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض"[1].

١: تفسير السعدي (١ / ٧٤٨)

النموذج الثاني والثلاثون:

(وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ) الشورى: ٤٤.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر :وترى أيها الرسول الكافرين لله يوم القيامة حين رأوا العذاب يقولون لربهم هل لنا من سبيل إلى الرجوع إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؟ فلا يجابون إلى ذلك!

وترى أيها الرسول هؤلاء الظالمين يعرضون على النار خاضعين متذللين ينظرون إلى النار من طرف ذليل ضعيف من الخوف والهوان.

وقال الذين آمنوا لله ورسوله في الجنة لما عاينوا ما حل لكفار من خسران: إن الخاسرين حقا هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بدخول النار، ألا إن الظالمين- يوم القيامة -في عذاب دائم لا ينقطع عنهم ولا يزول.

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشُور: "يعني أن الظالمين لا يجدون محيصا ولا وليا، فلا يجدون إلا الندامة على ما فات، فيقولوا (هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)

والاستفهام بحرف (هل) إنكاري في معنى النفي، فلذلك أدخلت (من) الزائدة على)سبيل) لأنه نكرة في سياق النفي.

والمرد :مصدر ميمي للرد، والمراد لرد :الرجوع، يقال :رده إذا أرجعه.

ويجوز أن يكون (مرد) بمعنى الدفع، أي هل إلى رد العذاب (الذي يبدو لنا) عنَّا من سبيل حتى لا نقع فيه، فهو في معنى(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ).

والخطاب في)ترى)لغير معين، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختص به مخاطب، أو الخطاب للنبي صلى عليه وسلم تسلية له على ما لاقاه منهم من التكذيب.

والمقصود :الإخبار بحالهم أولا، والتعجيب منه نيا، فلم يقل :والظالمون لما رأوا العذاب يقولون، وإنما قيل)وَتَرَى الظَّالِمِينَ(للاعتبار بحالهم. [١]

ومجيء فعل)رَأَوُا الْعَذَابَ(بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه، فالمضي مستعار للاستقبال تشبيها للمستقبل لماضي في التحقق، والقرينة فعل)ترى(الذي هو مستقبل إذ ليست الرؤية المذكورة بحاصلة في الحال فكأنه قيل :لما يرون العذاب.

وجملة(يقولون)حال من (الظالمين) أي تراهم قائلين، فالرؤية مقيدة بكونها في حال قولهم ذلك، أي في حال سماع الرائي قولهم.

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ)الآية.

قال ابن عاشُور: أعيد فعل (ترى) للاهتمام بهذه الرؤية وتهويلها .

والعرض: أصله إظهار الشيء وإراءته للغير . ومن إطلاقاته قولهم :عرض الجند على الأمير، وعرض الأسرى على الأمير، وهو إمرارهم ليرى رأيه في حالهم ومعاملتهم، وهو إطلاقه هنا على طريق الاستعارة، استعير لفظ (يعرضون) لمعنى :يمر بهم مرا عاقبته التمكن منهم والحكم فيهم فكأن جهنم إذا عرضوا عليها تحكم بما أعد لهم من حريقها .

وبني فعل (يعرضون) للمجهول لأن المقصود حصول الفعل لا تعيين فاعله .والذين يَعرِضون الكافرين على النار هم الملائكة كما دلت عليه آ ت أخرى.

وضمير (عليها) عائد إلى العذاب بتأويل أنه النار أو جهنم أو عائد إلى جهنم المعلومة من المقام.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨٢) .

وانتصب(خاشعين) على الحال من ضمير الغيبة في(تراهم) لأنها رؤية بصرية.

والخشوع :التَّطَامُنُ وأثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة، وللمهابة، وللطاعة، وللعجز عن المقاومة. [1]

والخشوع مثل الخضوع إلا أن الخضوع لا يسند إلا إلى البدن فيقال :خضع فلان، ولا يقال :خضع بصره إلا على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى (فَلا تَخْضَعْنَ ِلْقَوْلِ)، وأما الخشوع فيسند إلى البدن كقوله تعالى (خَاشِعِينَ ِ ّ) .

ويسند إلى بعض أعضاء البدن كقوله تعالى (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ) في سورة القمر، وقوله (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً) .

والمراد الخشوع في هذه الآية ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة.

فقوله (مِنَ الذُّلِّ) متعلقب(خاشعين).

و (من) للتعليل، أي خاشعين خشوعا شئا عن الذل، أي ليس خشوعهم لتعظيم والاعنزاف له لعبودية لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا.

وجملة (يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ(في موضع الحال من ضمير)خاشعين(لأن النظر من طرف خفي حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة .

والطرف :أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، يقال :طرف من ب ضرب، أي حرك جفنه، وقد يطلق على العين من تسمية الشيء بفعله، ولذلك لا يثنى ولا يجمع قال تعالى (لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ(وَوَصْفُهُ في هذه الآيةب(خفي(يقتضي أنه أريد به حركة العين، أي ينظرون نظرا خفيا، أي لا حدة له فهو كمسارقة النظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب، فهم يحجمون عن مشاهدته للروع الذي يصيبهم منها، ويبعثهم ما في الإنسان من حب الاطلاع على أن يتطلعوا لما يساقون إليه كحال الهارب الخائف ممن

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨٣) .

يتبعه، فنزاه يمعن في الجري ويلتفت وراءه الفينة بعد الفينة لينظر هل اقترب منه الذي يجري وراءه وهو في تلك الالتفاتة أفات خطوات من جريه لكن حب الاطلاع يغالبه.

وحذف مفعول)ينظرون(للتعميم أي ينظرون العذاب، وينظرون أهوال الحشر وينظرون نعيم المؤمنين من طرف خفي. (١)

ويرجح ابن عاشُور رحمه أن الواو للحال لا للعطف.

ثم يقول: والجملة حال من ضمير الغيبة في (تراهم)، أي تراهم في حال الفظاعة المتلبسين بها، وتراهم في حال سماع الكلام الذام لهم الصادر من المؤمنين إليهم في ذلك المشهد .وحذفت" قد "مع الفعل الماضي لظهور قرينة الحال.

وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا عارفين بربح تجارتهم ومقابلين لضد حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سببا في خسارتهم يوم القيامة.

والظاهر :أن المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين فيزيد الظالمين تلهيبا لندامتهم ومهانتهم وخزيهم .فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرة والبهجة لسلامة مما لحق الظالمين، أي قالوه تحد لنعمة واغتباطا لسلامة يقوله كل أحد منهم أو يقوله بعضهم لبعض .وإنما جيء بحرف" إن "مع أن القائل لا يشك في ذلك والسامع لا يشك فيه للاهتمام بهذا الكلام إذ قد تبينت سعادتهم في الآخرة وتوفيقهم في الدنيا بمشاهدة ضد ذلك في معانديهم.

والتعريف في)الخاسرين(تعريف الجنس، أي لا غيرهم .والمعنى :أنهم الأكملون في الخسران وتسمى أل هذه دالة على معنى الكمال وهو مستفاد من تعريف الجزءين المفيد

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨٤) .

للقصر الادعائي حيث نزل خسران غيرهم منزلة عدم الخسران .فالمعنى :لا خسران يشبه خسرانهم، فليس في قوله)إِنَّ الْخَاسِرِينَ(إظهار في مقام الإضمار كما توهم.

والخسران :تلف مال التاجر، واستعير هنا لانتفاء الانتفاع بما كان صاحبه يعده للنفع، فإنهم كانوا ملون نعيم أنفسهم والأنس هليهم حيثما اجتمعوا، فكشف لهم في هذا الجمع عن انتفاء الأمرين، أو لأنهم كانوا يحسبون أن لا يحيوا بعد الموت فحسبوا أنهم لا يلقون بعده ألما ولا توحشهم فرقة أهليهم فكشف لهم ما خيب ظنهم فكانوا كالتاجر الذي أمل الربح فأصابه الخسران.

وقوله)يَوْمَ الْقِيَامَةِ(يتعلق بفعل)خسروا (لا بفعل)قال)" (١) .

ثم يقول: "وجملة)أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ) تذييل للجمل التي قبلها من قوله)وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ(الآ ت .لأن حالة كونهم في عذاب مقيم أعم من حالة تلهفهم على أن يردوا إلى الدنيا، وذلهم وسماعهم الذم.

وإعادة لفظ)الظالمين(إظهار في مقام الإضمار اقتضاه أن شأن التذييل أن يكون مستقل الدلالة على معناه لأنه كالمثل .وليست هذه الجملة من قول المؤمنين إذ لا قبل للمؤمنين ن يحكموا هذا الحكم، على أن أسلوب افتتاحه يقتضي أنه كلام من بيده

الحكم يوم القيامة وهو ملك يوم الدين، فهو كلام من جانب ، أي وهم مع الندم وذلك الذل والخزي بسماع ما يكرهون في عذاب مستمر وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لكثرة ذلك في التذييلات لأهميتها.

والمقيم :الذي لا يرتحل .ووصف به العذاب على وجه الاستعارة، شبه المستمر الدائم لذي اتخذ دار إقامة لا يبرحها.

)وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ا ّ ِ)

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ١٨٥) .

عطف على جملة)أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ(أي هم في عذاب دائم لا يجدون منه نصيرا .وهو رد لمزاعمهم أن آلهتهم تنفعهم عند .

وجملة)ينصروهم(صفةـلـ(أولياء) للدلالة على أن المراد هنا ولاية خاصة، وهي ولاية النصر، كما كان قوله (وَمَنْ يُضْلِلِ ا ًّ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْـبَعْدِهِ) مرادا به ولاية الإرشاد.

و (من) زائدة في النفي لتأكيد نفي الولي لهم.

وقوله (مِنْ دُونِ ا ًِّ) صفة نية ل (أولياء) وهي صفة كاشفة .و (من) زائدة لتأكيد تعلق ظرف (دون) لفعل.

(وَمَنْ يُضْلِلِ ا ًّ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

تذييل لجملة)وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَـيَنْصُرُونَهُمْ(وتقدم آنفا الكلام على نظيره وهو (وَمَنْ يُضْلِلِ ا ًّ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْـبَعْدِهِ)

و (سبيل) نكرة في سياق النفي فيعم كل سبيل مخلص من الضلال ومن آ ره والمقصود هنا ابتداء هو سبيل الفرار من العذاب المقيم كما يقتضيه السياق"[١] .

وذكر ابن الجوزي في الطرف الخفي "أربعة أقوال:

أحدها: من طَرْفٍ ذليل، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد . وقال الأخفش: ينظُرون من عين ضعيفة . وقال غيره: « مِنْ » بمعنى « الباء » .

والثاني: يسارِقون النظر، قاله قتادة، والسدي .

والثالث: ينظُرون ببعض العَيْن، قاله أبو عبيدة .

والرابع: أنهم ينظُرون إلى النار بقلوبهم، لأنهم قد حُشروا عُمْياً فلمـيَرَوها عيُنهم، حكاه الفراء، والزجاج"[٢] .

١: التحرير والتنوير (٢١ / ١٨٢) .

٢: زاد المسير (٥ / ٣٢٦) .

قال في الظلال: "(وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ: هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ، وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) .

والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب، فتتهاوى كبر ؤهم .ويتساءلون في انكسار: (هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ؟) في هذه الصيغة الموحية ليأس مع اللهفة، والانهيار مع التطلع إلى أي رقة للخلاص . وهم يعرضون على النار (خاشِعِينَ) لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار: (يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ.) وهي صورة شاخصة ذليلة.

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف فهم ينطقون ويقررون:

(وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا: إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) وهم هؤلاء الذين خسروا كل شي ء، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون: هل إلى مرد من سبيل؟

ويجيء التعليق العام على المشهد بيا لمآل هؤلاء المعروضين على النار:

(أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ .وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ا ِّ وَمَنْ يُضْلِلِ ا ُّ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ)

فقد عدم النصير، وقد أغلق السبيل"[1] .

قال السعدي رحمه : "(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا) (أي :على النار) خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ (أي :ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم)، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) أي :ينظرون إلى النار مسارقة وشزرا، من هيبتها وخوفها.

(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا) حيث ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم :

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣١٦٨) .

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ) على الحقيقة (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم .(أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ) أنفسهم لكفر والمعاصي (فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ) أي :في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبدا، ولا يفنز عنهم وهم فيه مبلسون.

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ا ّ ِ) كما كانوا في الدنيا يمنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب لم يدفع عنهم .(وَمَنْ يُضْلِلِ ا ّ ُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ) تحصل به هدايته، فهؤلاء ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم"(١) .

١: تفسير السعدي (١ / ٥٩٣) .

النموذج الثالث والثلاثون:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)الزخرف: ٣٦-٣٨.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: ومن يُعْرِض عن ذكر الرحمن ,وهو القرآن ,فلم يَخَفْ عقابه ,ولم يهتد بهدايته ,نجعل له شيطاناً في الدنيا يغويه ;جزاء له على إعراضه عن ذكر ,فهو له ملازم ومصاحب يمنعه الحلال ,ويبعثه على الحرام.

وإن الشياطين ليصدون عن سبيل الحق هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر ,فيزيِّنون لهم الضلالة ,ويكرِّهون لهم الإيمان لله والعمل بطاعته ,ويظن هؤلاء المعرضون بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلال أنهم على الحق والهدى.

حتى إذا جاء الذي أعرض عن ذكر الرحمن وقرينُه من الشياطين للحساب والجزاء , قال المعرض عن ذكر لقرينه :وددت أن بيني وبينك بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب , فبئس القرين لي حيث أغويتني.

ولن ينفعكم اليوم -أيها المعرضون -عن ذكر إذ أشركتم في الدنيا أنكم في العذاب مشتركون أنتم وقرناؤكم ,فلكل واحد نصيبه الأوفر من العذاب ,كما اشتركتم في الكفر.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشور رحمه : "عاد الكلام هنا إلى عواقب صرفِهم عقولَهم عن التدبر في الدعوة القرآنية فكان انصرافهم سببا لأن يسخر شياطين لهم تلازمهم فلا تزال

تصرفهم عن النظر في الحق وأدلة الرشد .وهو تسخير اقتضاه نظام تولد الفروع من أصولها، فلا يتعجب من عمى بصائرهم عن إدراك الحق البين، وهذا من سنة الوجود في تولد الأشياء من عناصرها فالضلال ينمي ويتولد في النفوس ويتمكن منها مرة بعد مرة حتى يصير طبعا على القلب وأكنة فيه وختما عليه ولا يضعف عمل الشيطان إلا بتكرر الدعوة إلى الحق و لزجر والإنذار، فمن ز د التذكير تنقدح شرارات نور فربما أضاءت فصادفت قوة نور الحق حالة وهن الشيطان فتتغلب القوة الملكية على القوة الشيطانية فيفيق صاحبها من نومة ضلاله.

ولولا ذلك لما ارعوى ضال عن ضلاله ولما نفع إرشاد المرشدين في نفوس المخاطبين"[١] .

ويقول صاحب التحرير: "وقوله)وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ(تمثيل لحالهم في إظهارهم عدم فهم القرآن بحال من يعشو عن الشيء الظاهر للبصر.

و(يعشُ): مضارع عشا -كَغَزَا- عُشُوًّا - لواو-، إذا نظرَ إلى الشيء نظرا غير بت يشبه نظر الأعشى، وأما العَشَا بفتح العين والشين فهو اسم ضعف العين عن رؤية الأشياء، يقال : عشِيَ لياء مثل عرج إذا كانت في بصره آفة العشا ومصدره عشًى بفتح العين والقصر مثل العرج .والفعل واوي عشا يعشو، ويقال عشي يعشى إذا صار العشا له آفة لأن أفعال الأدواء تي كثيرا على)فَعِل(بكسر العين مثل مرض.

فمعنى)وَمَنْ يَعْشُ(من ينظر نظرا غير متمكن في القرآن، أي من لا حظ له إلا سماع كلمات القرآن دون تدبر وقصد للانتفاع بمعانيه، فشبه سماع القرآن مع عدم الانتفاع به بنظر الناظر دون مل.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥١) .

وعدي)يعش(بـ(عن(المفيدة للمجاوزة لأنه ضمن معنى الإعراض عن ذكر الرحمان وإلا فإن حق عشا أن يعدىبـ(إلى)"[1].

ثم قال: "و)ذِكْرِ الرَّحْمَنِ(هو القرآن المعبر عنه لذكر في قوله)أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً)

والتقييض :الإ حة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه، وهو مشتق من اسم جامد وهو قيض البيضة، أي القشر المحيط بما في داخل البيضة من للمَحِّ [هو صفار البيض] لأن القيض يلازم البيضة فلا يفارقها حتى يخرج منها الفرخ فيتم ما أتيح له القيض.

فصيغة التفعيل للجعل مثل طيَّنَ الجدار :ومثل أزره، أي ألبسه الإزار، ودرعوا الجارية، أي ألبسوها الدرع .وأصله هنا تشبيه أي نجعله كالقيض له، ثم شاع حتى صار معنى مستقلا، وقد تقدم في قوله تعالى)وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَ ءَ(في سورة فصلت فضم إليه ما هنا.

وأتى لضمير في)له(مفردا لأن لكل واحد ممن تحقق فيهم الشرط شيطا وليس لجميعهم شيطان واحد، ويدل له قوله)قَالَ َ لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ(لإفراد، أي قال كل من له قرين لقرينه.

ولم يذكر متعلق فعل (نقيض) اكتفاء بدلالة مفعوله وهو (شيطا) فعلم منه أنه مقيض لإضلاله، أي هم أعرضوا عن القرآن لوسوسة الشيطان لهم.

وفرع عن (نقيض) قوله (فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) لأن التقييض كان لأجل مقارنته وجيء لجملة المفرعة جملة اسمية للدلالة على الدوام، أي فكان قرينا مقارنة بتة دائمة، ولذلك لم يقل :نقيض له شيطا قرينا له.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥١) .

وقرأ الجمهور نقيض بنون العظمة، وقرأ يعقوب بِياء الغائب عائدا ضميره على (الرحمن)

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) في موضع الحال من الضمير في قوله (فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) أي مقارنة صد عن السبيل.

وضميرا (إنهم) و (يصدون) عائدان إلى (شيطا) .

وضمير النصب في" يصدونهم "عائد إلى (من) لأن (من(الشرطية عامة فكأنه قيل : كل من يعشو عن ذكر الرحمان نقيض لهم شياطين لكل واحد شيطان"[1]

ثم يقول صاحب التحرير: "وضميرا)وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(عائدان إلى ما عاد إليه ضمير النصب من)يصدونهم)، أي ويحسب المصدودون عن السبيل أنفسهم مهتدين.

والتعريف في)السبيل(تعريف الجنس .والسبيل :الطريق السابلة الممتدة الموصلة إلى المطلوب.

وقد مثلت حالة الذين يعشون عن ذكر الرحمان وحال مقارنة الشياطين لهم بحال من استهدى قوما ليدلوه على طريق موصل لبغيته فضللوه وصرفوه عن السبيل وأسلكوه في فيافي التيه غشا وخديعة، وهو يحسب أنه سائر إلى حيث يبلغ طلبته.

فجملة)وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(معطوفة على جملة (وإنهم) فهي في معنى الحال من الضمير في قوله (فهو) والرابط واو الحال، والتقدير :ويحسب المصدودون أنهم مهتدون بهم إلى السبيل.

والاهتداء :العلم لطريق الموصل إلى المقصود.

(حَتَّى إِذَا جَاءَ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥٣) .

قال ابن عاشُور: "(حتى) ابتدائية، وهي تفيد التسبب الذي هو غاية مجازية . فاستعمال)حتى(فيه استعارة تبعية.

وليست في الآية دلالة على دوام الصد عن السبيل وحسبان الآخرين الاهتداء إلى فناء القرينين، إذ قد يؤمن الكافر فينقطع الصد والحسبان فلا تغتر بتوهم من يزعمون أن الغاية الحقيقية لا تفارق)حتى(في جميع استعمالاتها" [1]

وقرأ فع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر (جاءا (لف التثنية عائدًا، على من يعش عن ذكر الرحمان وقرينه، أي شيطانه، وأفرد ضمير)قال(لرجوعه إلى من يعش عن ذكر الرحمان خاصة، أي قال الكافر متندما على ما فرط من اتباعه إ ه وائتماره مره .وقرأ الجمهور)جاء (بصيغة المفرد والضمير المستتر في)قال(عائد إلى)وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ)، أي قال أحدهما وهو الذي يعشو .فالمعنى على القراءتين واحد لأن قراءة التثنية صريحة في مجيء الشيطان مع قرينه الكافر وأن المتندم هو الكافر، والقراءة لإفراد متضمنة مجيء الشيطان من قوله (َ لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) إذ علم أن شيطانه القرين حاضر من خطاب الآخر إ ه بقوله (وبينك) . وحرف ( ) أصله للنداء، ويستعمل للتلهف كثيرا كما في قوله (حسرة) وهو هنا للتلهف والتندم.

والمشرقان :المشرق والمغرب، غلب اسم المشرق لأنه أكثر حضورا لأذهان لتشوف النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام.

والمراد لمشرق والمغرب :إما مكان شروق الشمس وغروبها في الأفق، وإما الجهة من الأرض التي تبدو الشمس منها عند شروقها وتغيب منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة من سكان الأرض .وعلى الاحتمالين فهو مثل لشدة البعد.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥٤) .

وأضيف (بعد) إلى (المشرقين) لتثنية بتقدير :بعد لهما، أي مختص بهما بتأويل البعد لتباعد وهو إيجاز بديع حصل من صيغة التغليب ومن الإضافة .ومساواته أن يقال بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق فنابت كلمة (المشرقين) عن ست كلمات" [١]

وقوله (فَبِئْسَ الْقَرِينُ) بعد أن تمنى مفارقته فرع عليه ذما فالكافر يذم شيطانه الذي كان قرينا، ويعرض بذلك للتفصي من المؤاخذة، وإلقاء التبعة على الشيطان الذي أضله.

والمقصود من حكاية هذا تفظيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيء العاقبة، وهذا من قبل قوله تعالى (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) والمقصود تحذير الناس من قرين السوء وذم الشياطين ليعافهم الناس كقوله)إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً([٢] .

(وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

قال صاحب التحرير والتنوير: الظاهر أن هذه الجملة معطوفة على جملة (قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ(وأن قولا محذوفا دل عليه فعل)جاءا (الدال على أن الفريقين حضرا للحساب وتلك الحضرة تؤذن لمقاولة فإن الفريقين لما حضرا وتبرأ أحدهما من الآخر قصدا للتفصي من المؤاخذة كما تقدمت الإشارة إليه آنفا فيقول ولن ينفعكم اليوم أنكم في العذاب مشتركون.

والخطاب موجه للذين عشوا عن ذكر الرحمان ولشياطينهم.

وفي هذا الكلام إشارة إلى كلام مطوي، والتقدير :لا تلقوا التبعة على القر ء فأنتم مؤاخذون بطاعتهم وهم مؤاخذون ضلالكم وأنتم مشتركون في العذاب ولن ينفعكم

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥٥) .

٢: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥٥) .

أنكم في العذاب مشتركون لأن عذاب فريق لا يخفف عن فريق كما قال تعالى (رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ).

ووقوع فعل (ينفعكم) في سياق النفي يدل على نفي أن يكون الاشتراك في العذاب فعا بحال لأنه لا يخفف عن الشريك من عذابه .وأما ما يتعارفه الناس من تسلي أحد برؤية مثله ممن مني بمصيبة فذلك من أوهام البشر في الحياة الدنيا، ولعل جعل لهم ذلك رحمة بهم في الدنيا، وأما الآخرة فعالم الحقائق دون الأوهام .وفي هذا التوهم جاء قول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وقرأ الجمهور (أنكم) بفتح همزة (إن) على جعل المصدر فاعلا .وقرأ ابن عامر (إنكم) بكسر الهمزة على الاستئناف ويكون الوقف عند قوله (إذ ظلمتم) وفاعل (ينفعكم) ضمير عائد على التمني بقولهم (يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) أي لن ينفعكم تمنيكم ولا تفصيكم.

و (إذ) أصله ظرف مبهم للزمن الماضي تفسره الجملة التي يضاف هو إليها ويخرج عن الظرفية إلى ما يقاربها بتوسع أو إلى ما يشابهها لمجاز .وهو التعليل، وهي هنا مجاز في معنى التعليل"[1] .

قال ابن الجوزي: "(ومن يَعْشُ) فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يُعْرِضْ، قاله الضحاك عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والفراء، والزجاج.

والثاني: يَعْمَ، روي عن ابن عباس أيضاً، وبه قال عطاء، وابن زيد .

والثالث: أنه البَصَر الضعيف، حكاه الماوردي" .

وقال صاحب الظلال: "(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً ...)الخ.

١: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٥٦) .

والعشى كلال البصر عن الرؤية، وغالبا ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين أن تحدق فيه أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله .وقد يكون ذلك لمرض خاص .والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطا ً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)

وقد قضت مشيئة ا ّ في خلقة الإنسان ذلك .واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر ا ّ يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له، ويزين له السوء .وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه ا ّ في علمه.

ووظيفة قر ء السوء من الشياطين أن يصدوا قر ءهم عن سبيل ا ّ ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون:

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)..

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين .أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ثم لا يدعه يفيق، أو يتبين الضلال فيثوب، إنما يوهمه أنه سائر في الطريق القاصد القويم !حتى يصطدم لمصير الأليم.

والتعبير لفعل المضارع: لَيَصُدُّونَهُمْ .(وَيَحْسَبُونَ) .. يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار يراها الآخرون، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون.

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون:

(حَتَّى إذا جاءَ قالَ: لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ .فَبِئْسَ الْقَرِينُ) !وهكذا ننتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة .ويطوى شريط الحياة السادرة، ويصل العمي (الذين يعشون عن ذكر الرحمن) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار .هنا يفيقون

كما يفيق المخمور، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال، وأوهمه أنه الهدى!

وقاده في طريق الهلاك، وهو يلوح له لسلامة !ينظر إليه في حنق يقول: (لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ) ! ليته لم يكن بيننا لقاء .على هذا البعد السحيق !ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله:(فَبِئْسَ الْقَرِينُ) !ونسمع كلمة التيئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع:

(وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) !فالعذاب كامل لا تخففه الشركة، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون !عندئذ ينصرف عن هؤلاء، في مشهدهم البائس الكئيب ويدعهم يتلاومون ويتشاتمون"(١) .

وقال العلامة السعدي: "يخبر تعالى عن عقوبته البليغة، لمن أعرض عن ذكره، فقال :(وَمَنْ يَعْشُ) أي :يعرض ويصد (عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ) الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها، فقد قبل خير المواهب، وفاز عظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدا، وقيَّض له الرحمن شيطا مريدا، يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمنيه، ويؤزه إلى المعاصي أزا،

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) أي :الصراط المستقيم، والدين القويم .(وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل :فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣١٩٠) .

قيل :لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر ا ّ ، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر ا ّ في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو :إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرّي من قرينه، ولهذا قال تعالى :(حَتَّى إِذَا جَاءَ َ قَالَ َ لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)

كما في قوله تعالى :(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ َ لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا َ وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاً خَلِيلا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا)

وقوله تعالى (:وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (أي :ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضا، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة .نسألك ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك"[١].

١: تفسير السعدي (١/ ٧٦٦) .

النموذج الرابع والثلاثون:

(وَ َدَوْا َ مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ ِ لْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون) الزخرف:٧٧-٧٨ .

التفسير الإجمالي::

و دى هؤلاء المجرمون بعد أن أدخلهم جهنم" مالكًا "خازن جهنم : مالك لِيُمِتنا ربك ,فنستريح ممَّا نحن فيه ,فأجابهم مالكٌ :إنكم ماكثون ,لا خروج لكم منها ,ولا محيد لكم عنها.

لقد جئناكم لحق ووضحناه لكم ,ولكن أكثركم لما جاء به الرسل من الحق كارهون .

التفسير التفصيلي:

(وَ َدَوْا َ مَالِكُ)، قال ابن كثير رحمه : "وهو :خازن النار .

روى البخاري :عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال :سمعت رسول صلى عليه وسلم يقرأ على المنبر :(وَ َدَوْا َ مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)، أي :ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى :(لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) .

وقال :(وَيَتَجَنَّبُهَا الأشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى)، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، (قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ): قال ابن عباس :مكث ألف سنة، ثم قال :إنكم ماكثون، رواه ابن أبي حاتم"[1] .

أي :لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ ِ لْحَقِّ)، أي :بيناه لكم ووضحناه وفسر ه،) وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (أي :ولكن كانت

١: هو في مستدرك الحاكم (٣٦٧٧) .

سجا كم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق و ه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم لملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة"[١] .

وقال ابن عاشُور: "حكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنه مما سيقع يوم القيامة، إما لأن إبلاسهم في عذاب جهنم وهو اليأس يكون بعد أن دوا مالك وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة)و دوا(حالية، وإما لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر نحو قوله تعالى)وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ(وهذا إن كانت جملة)و دوا(إلخ معطوفة.

و)مالك(المنادى اسم الملك الموكل بجهنم خاطبوه ليرفع دعوهم إلى تعالى شفاعة.

واللام في)لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ(لام الأمر بمعنى الدعاء وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلا على معنى التبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار ما مثل التعظيم . والقضاء بمعنى :الإماتة سألوا أن يزيل عنهم الحياة ليسنزيحوا من إحساس العذاب وهم إنما سألوا أن يميتهم فأجيبوا هم ماكثون جوا جامعا لنفي الإماتة ونفي الخروج فهو جواب قاطع لما قد يسألونه من بعد"[٢] .

وجملة)لَقَدْ جِئْنَاكُمْ ِ لْحَقِّ(إلى آخرها في موضع العلة لجملة)إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(عتبار تمام الجملة وهو الاستدراك بقوله)وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

وضمير)جئناكم) للملائكة، والحق :الوحي الذي نزل به جبريل فنسب مالك المجيء لحق إلى جمع الملائكة على طريقة اعتزاز الفريق والقبيلة بمزا بعضها، وهي طريقة معروفة في كلام العرب .

١: تفسير اين كثير (٧ / ٢٤١) .

٢: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٩٣) .

وإنما نسبت كراهة الحق إلى أكثرهم دون جميعهم لأن المشركين فريقان أحدهما سادة كبراء لملة الكفر وهم الذين يصدون الناس عن الإيمان لإرهاب والترغيب مثل أبي جهل حين صد أ طالب عند احتضاره عن قول لا إله إلا وقال أترغب عن ملة عبد المطلب[١]، و نيهما دهماء وعامة وهم تبع لأئمة الكفر .

والفريق الأول هم المراد من قوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) وأولئك إنما كرهوا الحق لأنه يرمي إلى زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم.

وتقديم (للحق) على (كارهون) للاهتمام لحق تنويها به، وفيه إقامة الفاصلة أيضا"[٢] .

وقال ابن الجوزي: "فيسكُت، عن جوابهم مُدَّةً، فيها أربعة أقوال .

أحدها: أربعون عاماً، قاله عبد بن عمرو، ومقاتل .

والثاني: ثلاثون سنة قاله أنس .

والثالث: ألف سنة، قاله ابن عباس .

والرابع: مائة سنة، قاله كعب .

وفي سكوته عن جوابهم هذه المدة قولان .

أحدهما: أنه سكت حتى أوحى إليه أَن أَجِبْهم، قاله مقاتل .

والثاني: لأنـبُعْدَ ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذَلُّ"[٣] .

قال صاحب الظلال: "ثم تتناوح في الجو صيحة من بعيد .صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق:

١: هو في صحيح البخاري (١٣٦٠)

٢: التحرير والتنوير (٢٥ / ٢٩٤)

٣: زاد المسير (٥ / ٣٤٣) .

(وَ دَوْا: مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ)..

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق .من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم .إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين .إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث .فهم مبلسون ئسون .إنما يصيحون في طلب الهلاك .الهلاك السريع الذي يريح .. وحسب المنا أن يكن أمانيا .. !وإن هذا النداء ليلقي ظلا كثيفا للكرب والضيق .وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صوابها العذاب، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة: (مالِكُ . لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ) !ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل، وبلا رعاية ولا اهتمام:

(قالَ: إِنَّكُمْ ماكِثُونَ) !فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء .. إنكم ماكثون ! وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق، المعرضين عن الهدى، الصائرين إلى هذا المصير ويعجب من أمرهم على رؤوس الأشهاد، في أنسب جو للتحذير والتعجيب.

(لَقَدْ جِئْناكُمْ ِ لْحَقِّ، وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ.. (.

وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه، لا عدم إدراك أنه الحق، ولا الشك في صدق الرسول الكريم فما عهدوا عليه كذ قط على الناس، فكيف يكذب على ا ّ ويدعي عليه ما يدعيه؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق، ولكنهم يكرهونه، لأنه يصادم أهواءهم، ويقف في طريق شهواتهم، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته !فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجتراء على الدعاة!"(١) .

١: في ظلال القرآن (٥ / ٣٢٠٣) .

وقال السعدي: "{ وَ َدَوْا } وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استزاحة، { َ مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد ـفـ { قَالَ } لهم مالك خازن النار -حين طلبوا منه أن يدعو ا ّ لهم أن يقضي عليهم-: { إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ } أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غما إلى غمهم.

ثم وبخهم بما فعلوا فقال: { لَقَدْ جِئْنَاكُمْ ِ لْحَقِّ } الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو اتبعتموه، لفزتم وسعدتم، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها"(١) .

١: تفسير السعدي (١ / ٧٧٠) .

النموذج الخامس والثلاثون:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) الأحقاف: ٣٤.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: ويوم القيامة يُعْرَض الذين كفروا على نار جهنم للعذاب فيقال لهم :أليس هذا العذاب بالحق؟ فيجيبون قائلين :بلى وربنا هو الحق ,فيقال لهم : فذوقوا العذاب بما كنتم تجحدون عذاب النار وتنكرونه في الدنيا.

التفسير التفصيلي:

قال ابن كثير: "ثم قال تعالى متهددا ومتوعدا لمن كفر به :(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ (أي :يقال لهم :أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟) قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا (أي :لا يسعهم إلا الاعتراف، (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)"[1] .

وقال ابن عاشور: " و(يوم) مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار، أو يكون التقدير: اذكر يوم يعرض الذين كفروا، وموقع هذا الكلام أن عرض المشركين على النار من آثار الجزاء الواقع بعد البعث، فلما ذكر في الآية السابقة الاستدلال على إمكان البعث بقوله (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بل إنه على كل شيء قدير) أعقبه في هذه الآية بما يحصل لهم يوم البعث جمعا بين الاستدلال والإنذار وذكر من ذلك ما يقال

١: تفسير ابن كثير (٧ / ٣٠٥) .

لهم مما لا مندوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم جمعا بين ما رد به في الدنيا من قوله (بلى) وما يردون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم (بَلَى وَرَبِّنَا) والجملة عطف على جملة (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ا ـَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ).. الخ .

وذكر (الَّذِينَ كَفَرُوا) إظهار في مقام الإضمار للإيماء لموصول إلى علة بناء الخبر، أي يقال لهم ذلك لأنهم كفروا.

والإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعد (قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ)

والحق :الثابت.

والاستفهام في قوله (أليس هذا لحق) تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمون أن الجزاء طل وكذب، وقالوا (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) وإنما أقسموا على كلامهم بقسم (وربنا) قسما مستعملا في الندامة والتغليط لأنفسهم وجعلوا المقسم به بعنوان الرب تحننا وتخضعا .وفرع على إقرارهم (فَذُوقُوا الْعَذَابَ) والذوق مجاز في الإحساس .والأمر مستعمل في الإهانة"[1] .

قال في الظلال: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ .أَلَيْسَ هذا ِ لْحَقِّ؟ قالُوا: بَلى وَرَبِّنا .قالَ: فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)..

يبدأ المشهد حكاية أو مقدمة لحكاية: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ)..

وبينما السامع في انتظار وصف ما سيكون، إذا المشهد يشخص بذاته .وإذا الحوار قائم في المشهد المعروض)أَلَيْسَ هذا ِ لْحَقِّ؟(..

و له من سؤال؟ بل لها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون، واليوم تتلوى أعناقهم على الحق الذي كانوا ينكرون.

والجواب في خزي وفي مذلة وفي ارتياع:)بلى .وربنا(..

١: التحرير والتنوير (٢٦ / ٥٦) .

هكذا هم يقسمون: (وَرَبِّنا) .. ربهم الذي كانوا لا يستجيبون لداعيه، ولا يستمعون لنبيه ولا يعترفون له بربوبية .ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذي أنكروه !عندئذ يبلغ السؤال غاية من الترذيل والتقريع، ويقضى الأمر، وينتهي الحوار:

(قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)..

كلمة ورد غطاها ، كما يقال !الجريمة ظاهرة .الجاني معترف .فإلى الجحيم !وسرعة المشهد هنا مقصودة .فالمواجهة حاسمة، ولا مجال لأخذ ولا رد .لقد كانوا ينكرون. فالآن يعترفون .والآن يذوقون!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٢٧٥) .

النموذج السادس والثلاثون:

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) الملك:١١.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: وللكافرين بخالقهم عذاب جهنم ,وساء المرجع لهم جهنم.

إذا طُرح هؤلاء الكافرون في جهنم سمعوا لها صو ً شديدًا منكرًا ,وهي تغلي غليا ً شديدًا.

تكاد جهنم تتمزق مِن شدة غضبها على الكفار ,كلما طُرح فيها جماعة من الناس سألهم الموكلون مرها على سبيل التوبيخ :ألم تكم في الدنيا رسول يحذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟

أجابوهم قائلين :بلى قد جاء رسول مِن عند وحذَّر ,فكذَّبناه ,وقلنا فيما جاء به من الآ ت :ما نزَّل على أحد من البشر شيئًا ,ما أنتم -أيها الرسل -إلا في ذهاب بعيد عن الحق.

وقالوا معترفين :لو كنا نسمع سماع مَن يطلب الحق ,أو نفكر فيما نُدْعى إليه ,ما كنا في عداد أهل النار.

فاعترفوا بتكذيبهم وكفرهم الذي استحقوا به عذاب النار ,فبعدًا لأهل النار عن رحمة .

التفسير التفصيلي:

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

قال ابن عاشور: "أي: ولجميع الذين كفروا لله عذاب جهنم فالمراد عامة المشركين

.

وتقديم المجرور للاهتمام بتعلقه لمسند إليه والمبادرة به.

وجملة (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) حال أو معترضة لإنشاء الذم.

وحذف المخصوص لذم لدلالة ما قبل (بِئْسَ) عليه .والتقدير :وبئس المصير عذاب جهنم، والمعنى :بئست جهنم مصيرا للذين كفروا"[١] .

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ، تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ).

ثم يقول: "والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان ذم مصيرهم في جهنم، أي من جملة مذام مصيرهم مذمة ما يسمعونه فيها من أصوات مؤلمة مخيفة.

و)إذا(ظرف متعلقب)سمعوا(يدل على الاقتران بين زمن الإلقاء وزمن سماع الشهيق.

والشهيق :تردد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبكاء ونحوه، أطلق على صوت التهاب ر جهنم الشهيق تفظيعا له لأن قوله:)سَمِعُوا لَهَا(يقتضي أن الشهيق شهيقها لأن أصل اللام أن تكون لشبه الملك.

وجملة)وَهِيَ تَفُورُ(حال من ضمير)فيها(.

وتفور :تغلي وترتفع ألسنة لهيبها.

و (الغيظ) أشد الغضب .

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٢) .

وقوله :(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) خبر ن عن ضمير (وهي)، مُثِّلَتْ حالة فورانها وتصاعد ألسنة لهيبها ورطمها ما فيها والتهام من يلقون إليها، بحال مغتاظ شديد الغيظ لا يترك شيئا مما غاظه إلا سلط عليه ما يستطيع من الأضرار.

واستعمل المركب الدال على الهيئة المشبه بها مع مرادفاته كقولهم :يكاد فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا، أي يكاد تتفرق أجزاؤه فيتميز بعضها عن بعض وهذا من التمثيلية المكنية.

ونظير هذه الاستعارة قوله تعالى :(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) في سورة الكهف، إذ مثل الجدار بشخص له إرادة.

و (تميزُ) أصله تتميز، أي تنفصل، أي تتجزأ أجزاء تخييلا لشدة الاضطراب ن أجزاءها قاربت أن تتقطع.

(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ ۡتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَ نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ا ّ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ).

أتبع وصف ما يجده أهل النار عند إلقائهم فيها من فضائع أهوالها بوصف ما يتلقاهم به خزنة النار.

فالجملة استئناف بياني أ ره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها إذ يتساءل السامع عن سبب وقوع أهل النار فيها فجاء بيانه نه تكذيبهم رسل الذين أرسل إليهم، مع ما انضم إليه من وصف ندامة أهل النار على ما فرط منهم من تكذيب رسل وعلى إهمالهم النظر في دعوة الرسل والتدبر فيما جاءهم به"[1]

و(كلما(مركب من" كل "اسم دال على الشمول .

و"ما "الظرفية المصدرية وهو حرف يؤول مع الفعل الذي بعده بمصدره.

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٣) .

والتقدير :في كل وقت إلقاء فوج يسألهم خزنتها الفوج.

و تصال" كل "بحرف" ما "المصدرية الظرفية اكتسب التركيب معنى الشرط وشابه أدوات الشرط في الاحتياج إلى جملتين مرتبة إحداهما على الأخرى.

وجيء بفعلي)ألقى(و)سألهم(ماضيين لأن أكثر ما يقع الفعل بعد)كلما(أن يكون بصيغة المضي لأنها لما شابهت الشرط استوى الماضي والمضارع معها لظهور أنه للزمن المستقبل فأوثر فعل المضي لأنه أخف. والفوج: الجماعة، أي جماعة ممن حق عليهم الخلود .

وجيء لضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع في قوله :(سألهم) الخ .

لتأويل الفوج بجماعة أفراده كما في قوله :(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا).

وخزنة النار :الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم وهو جمع خازن للموكل لحفظ وأصل الخازن :الذي يخزن شيئا، أي يحفظه في مكان حصين، فإطلاقه على الموكلين مجاز مرسل"(1)

ويقول ابن عاشور: "وجملة (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) بيان لجملة (سألهم خزنتها) السابقة، كقوله :(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ).

والاستفهام في قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) للتوبيخ والتنديم ليزيدهم حسرة وتنديما.

والنذير :المنذر، أي رسول منذر بعقاب .

والمراد أفواج أهل النار من جميع الأمم التي أرسلت إليهم الرسل.

وجملة (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ) إما معترضة بين كلام خزنة جهنم اعتراضا يشير إلى أن الفوج قاطع كلام الخزنة بتعجيل الاعتراف بما وبخوهم عليه وذلك من شدة الخوف.

1: التحرير والتنوير (29 / 23) .

وفصلت الجملة لوجهين لأنها اعتراض، ولوقوعها في سياق المحاورة كما تقدم في نموذج التنصل من سورة سبأ.

وكان جوابهم جواب المتحسر المتندم، فابتدروا الجواب دفعة بحرف (بلى) المفيد نقيض النفي في الاستفهام فهو مفيد معنى: جاء نذير .

ولذلك كان قولهم :(قَدْ جَاءَ نَذِيرٌ) مؤكدا لما دلت عليه (بلى)، وهو من تكرير الكلام عند التحسر، مع ز دة التحقيق ب (قَدْ) وذلك التأكيد هو مناط الندامة والاعتراف لخطأ.

وجملة:)إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(الأظهر أنها بقية كلام خزنة جهنم فصل بينها وبين ما سبقها من كلامهم اعتراض جواب الفوج الموجه إليهم الاستفهام التوبيخي كما ذكر ه آنفا، ويؤيد هذا إعادة فعل القول في حكاية بقية كلام الفوج: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ...) الخ، لانقطاعه لاعتراض الواقع خلال حكايته .

ويحتمل أن تكون جملة)إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(من تمام كلام كل فوج لنذيرهم . وأوتي بضمير جمع المخاطبين مع أن لكل قوم رسولا واحدا في الغالب- ستثناء موسى وهارون و ستثناء رسل أصحاب القرية المذكورة في سورة يس-، إما على اعتبار الحكاية لمعنى ن جمع كلام جميع الأفواج في عبارة واحدة فجيء بضمير الجمع والمراد التوزيع على الأفواج، أي قال جميع الأفواج:)قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَ نَذِيرٌ(إلى قوله:)إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ(.وإما على إرادة شمول الضمير للنذير وأتباعه الذين يؤمنون بما جاء به"[1]

وعموم) شيء(في قوله:)مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)، المراد منه شيء من التنزيل، إذ يدل على أنهم كانوا يحيلون أن ينزل وحيا على بشر، وهذه شنشنة أي "طبيعة ودأب أهل الكفر" قال تعالى :(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ).

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٥) .

ووصف الضلالـبـ(كبير) معناه شديد لغ غاية ما يبلغ إليه جنسه حتى كأنه جسم كبير.

ومعنى القصر المستفاد من النفي والاستثناء (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ) قصر قلب، أي ما حالكم التي أنتم متلبسون بها إلا الضلال، وليس الوحي الإلهي والهدى كما تزعمون.

و(في(الظرفية شبهت تمحضهم للضلال حاطة الظرف لمظروف.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(.

أعيد فعل القول للإشارة إلى أن هذا كلام آخر غير الذي وقع جوا على سؤال خزنة جهنم وإنما هذا قول قالوه في مجامعهم في النار تحسرا وتندما، أي وقال بعضهم لبعض في النار فهو من قبيل قوله تعالى:)حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّو (.

وذكروا ما يدل على انتفاء السمع والعقل عنهم في الدنيا، وهم يريدون سمعا خاصا وعقلا خاصا، فانتفاء السمع عراضهم عن تلقي دعوة الرسل مثل ما حكى عن المشركين)وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ(وانتفاء العقل بنزك التدبر في آ ت الرسل ودلائل صدقهم فيما يدعون إليه"[1] .

ثم يضيف ابن عاشُور قائلا: "ولا شك أن أقل الناس عقلا المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخالف الشرك من معتقدات، ولا على ما يخالف أعمال أهله من الأعمال، فكان حكم العقل قاضيا ن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار للامتثال إذ لا معارض له في دينهم لولا الإلف والتكبر.

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٥) .

ويؤخذ في هذه الآية أن قوام الصلاح في حسن التلقي وحسن النظر وأن الأثر والنظر(أي القياس) هما أصلا الهدى.

و (أَوْ) للتقسيم وهو تقسيم عتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع رة إذا ألقي إليها إرشاد، وحسن التفهم والنظر رة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها، أو من دواعي أنفسها، قال تعالى :(فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ ا ّ ُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ).

ووجه تقديم السمع في الآية على العقل بمنزلة الكلي والسمع بمنزلة الجزئي ورعيا للترتيب الطبيعي لأن سَمْعَ دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذَرُون، ثم يعملون عقولهم في التدبر فيها.

(فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ).

الفاء الأولى فصيحة، والتقدير :إذ قالوا ذلك إذ تبين أنهم اعترفوا هنالك بذنبهم، أي فهم محقوقون بما هم فيه من العذاب.

والسحق :اسم مصدر معناه البعد، وهو هنا ئب عن الإسحاق لأنه دعاء لإبعاد فهو مفعول مطلق ئب عن فعله، أي أسحقهم إسحاقا ويجوز أن يراد من هذا الدعاء التعجب من حالهم كما يقال :قاتله ، وويل له، في مقام التعجب.

والفاء الثانية للتسبب، أي فهم جديرون لدعاء عليهم لإبعاد أو جديرون لتعجب من بعدهم عن الحق أو عن رحمة تعالى .

ويحتمل أيضا أن يقال لهم يوم الحساب عقب اعترافهم، تنديما يزيدهم ألما في نفوسهم فوق ألم الحريق في جلودهم.

و (لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) يعم المخاطبين لقرآن وغيرهم فكان هذا الدعاء بمنزلة التذييل لما فيه من العموم.

وقرأ الجمهور (فسحقا) بسكون الحاء .وقرأه الكسائي وأبو جعفر بضم الحاء وهو لغة فيه وذلك لاتباع ضمة السين"[1] .

وقال السعدي: "وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الذي يهان أهله غاية الهوان.

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا) على وجه الإهانة والذل (سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا) أي :صو ً عاليًا فظيعًا، (وَهِيَ تَفُورُ).

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) أي :تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟ "ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال :(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ ۡتِكُمْ نَذِيرٌ) ؟ أي :حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

(قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَ َ نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ ا ّ ُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ)

فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم، ضلالا كبيرًا، فأي عناد وتكبر وظلم، يشبه هذا؟

(وَقَالُوا) معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل ، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأر ب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم لأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند ، وجاء

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٧) .

به رسول ، علمًا ومعرفة وعملا، و لأدلة العقلية :المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم- في الإيمان -بحسب ما من عليهم به من الاقتداء لمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير"[١] .

وقال في الظلال: "لما ذكر ما أعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين:

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(..

ثم يرسم مشهدا لجهنم هذه، وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديد:

(إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ .تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ..)!

وجهنم هنا مخلوقة حية، تكظم غيظها، فتزتفع أنفاسها في شهيق وتفور ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين !والتعبير في ظاهره يبدو مجازا تصوير لحالة جهنم . ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة .فكل خليقة من خلائق ا" حية ذات روح من نوعها .وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه، وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها .وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر نها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود.

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن:)تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ(..وورد كذلك:) جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ(..وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل.

١: تفسير السعدي (١ / ٨٧٥) .

كذلك ورد)ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ: ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا: أَتَيْنا طائِعِينَ(..

مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس ا" .ولكن هذا التأويل لا ضرورة له .بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح.

ووردت صفة جهنم هذه .كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا .تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ، وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً، وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً)

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة، حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه، وتسبيح كل شيء بحمده .ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر، ويشذ عن هذا الموكب وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه، فيغتاظ ويحنق، ويكاد من الغيظ يتمزق .كما هو حال جهنم وهي: (تَفُورُ .تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ!).

كذلك نلمح هذه الظاهرة في خزنة جهنم:

(كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها .أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟)..

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والتزذيل .فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق .كما هي مشاركة لها في التعذيب، وليس أمرّ من التزذيل والتأنيب للضائق المكروب !والجواب في ذلة وانكسار واعتزاف لحمق والغفلة، بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل لضلال:

(قالُوا: بَلى ! قَدْ جاءَ نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا، وَقُلْنا: ما نَزَّلَ ا" مِنْ شَيْ ءٍ .إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ .وَقالُوا: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ..)!

فالذي يسمع أو يعقل، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء .ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد .ولا يسارع تهام الرسل لضلال على هذا النحو المتبجح الوقح، الذي لا يستند في الإنكار إلى دليل .ثم ينكر ويدعي ذلك الادعاء العريض على رسل ا ّ الصادقين يقول:)ملـنَزَّلَ ا ّّ مِنْ شَيْ ءٍ: إِنْـأَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ !)

(فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ(..

والسحق البعد .وهو دعاء عليهم من ا ّ بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه.

والدعاء من ا ّ قضاء .فهم مبعدون من رحمته .لا رجاء لهم في مغفرة، ولا إقالة لهم من عذاب .وهم أصحاب السعير الملازمون له .و لها من صحبة !و له من مصير ! وهذا العذاب، عذاب السعير، في جهنم التي تشهق نفاسها وهي تفور، عذاب شديد مروع حقا .وا ّ لا يظلم أحدا .ونحسب – وا ّ أعلم – أن النفس التي تكفر بربها – وقد أودع فطرها حقيقة الإيمان ودليله – هي نفس فرغت من كل خير .كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتبارا في الوجود، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم .وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكاها هذه النار، إلى غير نجاة منها ولا فرار !والنفس التي تكفر ّ في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة، صورة منكرة جهنمية نكيرة .صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسخها وشناعتها.

فكل شيء روحه مؤمنة، وكل شيء يسبح بحمد ربه، وكل شيء فيه هذا الخير، وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود .. ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود، الآبدة الشريرة، الجاسية الممسوخة النفور .فأي مكان في الوجود كله تنتهي إليه، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود؟ إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة

المتلمظة، الحارقة، المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة!"[1].

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٦٣٤) .

النموذج السابع والثلاثون:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) الحاقة: ٢٥-٣٤.

التفسير الإجمالي:

قال مؤلفو التفسير الميسر: وَأمَّا من أعطي كتاب أعماله بشماله ,فيقول نادمًا متحسرًا : يا ليتني لم أُعط كتابي ,ولم أعلم ما جزائي؟ يا ليت الموتة التي متُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري ,ولم أُبعث بعدها ,ما نفعني مالي الذي جمعته في الدنيا ,ذهبت عني حجتي ,ولم يَعُدْ لي حجة أحتج بها.

يقال لخزنة جهنم :خذوا هذا المجرم الأثيم ,فاجمعوا يديه إلى عنقه بالأغلال ,ثم أدخلوه الجحيم ليقاسي حرها ,ثم في سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعًا فأدخلوه فيها؛ إنه كان لا يصدِّق بأن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له ,ولا يعمل بهديه ,ولا يحث الناس في الدنيا على إطعام أهل الحاجة من المساكين وغيرهم.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: "تمنى كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه، لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب فيتمنى أن لا يكون علم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمنا، فإن ترقب السوء عذاب.

وجملة (وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) في موضع الحال من ضمير (لَيْتَنِي).

والمعنى :إنه كان مكذ لحساب وهو مقابل قول الذي أوتي كتابه بيمينه :أني ظننت أني ملاق حسابيه.

وجملة الحال معترضة بين جملتي التمني.

ويحتمل أن يكون عطفا على التمني، أي ليتني لم أدر ما حسابيه، أي لم أعرف كنه حسابي، أي نتيجته، وهذا وإن كان في معنى التمني الذي قبله فإعادته تكرير لأجل التحسر والتحزن.

و (ما) استفهامية، والاستفهام بها هو الذي علق فعل (أَدْرِ) عن العمل، و (َ لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ) تمن آخر.

ولم يعطف على التمني الأول لأن المقصود التحسر والتندم.

وضمير (لَيْتَهَا) عائد إلى معلوم من السياق، أي ليت حالتي، أو ليت مصيبتي كانت القاضية، والقاضية :الموت.

وجملة (َ لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ) من الكلام الصالح لأن يكون مثلا لإيجازه ووفرة دلالته ورشاقة معناه، عبر بها عما يقوله من أوتي كتابه بشماله من التحسر لعبارة التي يقولها المتحسر في الدنيا بكلام عربي يؤدي المعنى المقصود .ونظيره ما حكي عنهم في بعض النماذج السابقة نحو :(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً) وقوله :(َ وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً) وقوله :(َ وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ).

ثم أخذ يتحسر على ما فرط من الخير في الدنيا لإقبال على ما لم يجده في العالم الأبدي فقال :(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ)، أي يقول ذلك من كان ذا مال وذا سلطان من ذلك الفريق من جميع أهل الإشراك والكفر"[1] .

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٦٩) .

ثم يخاطبك ابن عاشُور رحمه قائلا: "فما ظنك بحسرة من اتبعوهم واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك، وفي هذا تعريض بسادة مشركي العرب مثل أبي جهل وأمية بن خلف قال تعالى: (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ).

وفي عبارتَيْ (أَغْنَى عَنِّي) جناسٌ خطيٌّ ولو مع اختلاف قليل كما في قولهم غرك عزك.

ومعنى هلاك السلطان :عدم الانتفاع به يومئذ فهو هلاك مجازي .وضمن (هَلَكَ) معنى" غاب "فعدي بـ"عن"، أي لم يحضرني سلطاني الذي عهدته. (١)

(خُذُوهُ) مقول لقول محذوف موقعه في موقع الحال من ضمير (فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)، والتقدير :يقال :خذوه.

ومعلوم من المقام أن المأمورين ن خذوه هم الملائكة الموكلون بسوق أهل الحساب إلى ما أعد لهم.

والأخذ :الإمساك ليد.

وغلوه :أمر من غله إذا وضعه في الغل وهو القيد الذي يجعل في عنق الجاني أو الأسير فهو فعل مشتق من اسم جامد، ولم يسمع إلا ثلاثيا ولعل قياسه- كما يقول ابن عاشُور -أن يقال غلله بلامين لأن الغل مضعف اللام فحقه أن يكون مثل عمم، إذا جعل له عمامة، وأزر، إذا ألبسه إزارا، ودرَّع الجارية، إذا ألبسها الدرع، فلعلهم قالوا :غله تخفيفا . وعطف بفاء التعقيب لإفادة الإسراع بوضعه في الأغلال عقب أخذه. (٢)

و (ثم) في قوله :(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) للتراخي الرتبي لأن مضمون الجملة المعطوفة بها أشد في العقاب من أخذه ووضعه في الأغلال.

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٢٦) .

٢: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٢٧) .

وصلى :مضاعف تضعيف تعدية لأن صلي لنار معناه أصابه حرقها أو تدفأ بها، فإذا عدي قيل :أصلاه را، وصلاه را.

قوله(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

(ثم) للتراخي الرتبي لنسبة لمضمون الجملتين قبلها لأن مضمون (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً) أعظم من مضمون (فَغُلُّوهُ).

ومضمون (فَاسْلُكُوهُ) دل على إدخالهم الجحيم فكان إسلاكه في تلك السلسلة أعظم من مطلق إسلاكه الجحيم.

ومعنى)اسْلُكُوهُ :)اجعلوه سالكا، أي داخلا في السلسلة وذلك ن تلف عليه السلسلة فيكون في وسطها، ويقال :سلكه، إذا أدخله في شيء، أي اجعلوه في الجحيم مكبلا في أغلاله.

والسلسلة :اسم لمجموع حلق من حديد داخل بعض تلك الحلق في بعض تجعل لو ق شخص كي لا يزول من مكانه . وتقدم في نموذج سورة غافر: (إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ).

والذرع :كيل طول الجسم لذراع وهو مقدار من الطول مقدر بذراع الإنسان، وكانوا يقدرون بمقادير الأعضاء مثل الذراع، والأصبع، والأنملة، والقدم، و لأبعاد التي بين الأعضاء مثل الشبر، والفنز، والرتَب بفتح الراء والتاء، والعتب، والبصم والخطوة"[1].

ثم يقول ابن عاشور: "وجملة (إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ ِ ـَّ ِ الْعَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) في موضع العلة للأمر خذه وإصلائه الجحيم.

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٢٨) .

ووصف   لعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرا بعظيم فكان جزاء وفاقا.

والحض على الشيء :أن يطلب من أحد فعل شيء ويلح في ذلك الطلب.

ونفي حضه على طعام المسكين يقتضي بطريق الفحوى أنه لا يطعم المسكين من ماله لأنه إذا كان لا   مر غيره   طعام المسكين فهو لا يطعمه من ماله، فالمعنى لا يطعم المسكين ولا   مر   طعامه.

وإذ قد جعل عدم حضه على طعام المسكين جزء علة لشدة عذابه، علمنا من ذلك موعظة للمؤمنين زاجرة عن منع المساكين حقهم في الأموال وهو الحق المعروف في الزكاة والكفارات وغيرها.

وقوله :(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ) من تمام الكلام الذي ابتدئ بقوله :(خُذُوهُ)، وتفريع عليه.

والمقصود منه أن يسمعه من أوتي كتابه بشماله فييأس من أن يجد مدافعا ويدفع عنه بشفاعة، وتنديم له على ما أضاعه في حياته من التزلف إلى الأصنام وسدنتها وتمويههم عليه أنه يجدهم عند الشدائد وإلمام المصائب .وهذا وجه تقييد نفي الحميم ب (الْيَوْمَ) تعريضا   ن أحماءهم في الدنيا لا ينفعوهم اليوم كما تقدم في عدة نماذج كقوله تعالى (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقوله عنهم :(فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا) وغير ذلك مما تفرق في آي القرآن.

فقوله)له(هو خبر)لَيْسَ(لأن المجرور بلام الاختصاص هو محط الإخبار دون ظرف المكان .والحميم :القريب، وهو هنا كناية عن النصير إذ المتعارف عند العرب أن أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته.

والغسلين :بكسر الغين ما يدخل في أفواه أهل النار من المواد السائلة من الأجساد وماء النار ونحو ذلك مما يعلمه فهو علم على ذلك مثل سجين، وسرقين، وعرنين .

فقيل إنه فعلين من الغسل لأنه سال من الأبدان فكأنه غسل عنها، ولا موجب لبيان اشتقاقه [1].

و (الْخَاطِئُونَ): أصحاب الخطا يقال :خطئ، إذا أذنب.

والمعنى :لا كله إلا هو وأمثاله من الخاطئين.

وتعريف (الْخَاطِئُونَ) للدلالة على الكمال في الوصف، أي المرتكبون أشد الخطأ وهو الإشراك.

وقرأ الجمهور (الْخَاطِئُونَ) ظهار الهمزة، وقرأ أبو جعفر (الخاطون) بضم الطاء بعدها واو على حذف الهمزة تخفيفا بعد إبدالها ء تخفيفا"[2] .

قال السعدي: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ) الآ ت.

"هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزا لهم وخز وعارا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والخزي (َ ـلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ) لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية.

(وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ) أي :ليتني كنت نسيا منسيا ولم أبعث وأحاسب ولهذا قال:

(َ ـلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (أي: ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو و ل عليه لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب فيقول (:مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (أي :ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئا، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

١: التحرير والتنوير

٢: التحرير والتنوير (٢٩ / ١٣٠) .

(هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (أي :ذهب واضمحل فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الر ح، وفاتت بسببه المتاجر والأر ح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للز نية الغلاظ الشداد (:خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (أي :اجعلوا في عنقه غلا يخنقه.

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) أي :قلبوه على جمرها ولهبها.

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا (من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة (فَاسْلُكُوهُ)أي :انظموه فيها فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة من له التوبيخ والعتاب.

فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل (:إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ ِ ّ ِ الْعَظِيمِ (ن كان كافرا بربه معاندا لرسله رادا ما جاءوا به من الحق.

(وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (أي :ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين فلا يطعمهم ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران :الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان لله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين طعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا"[1] .

وقال في الظلال: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ) وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته، وأن إلى العذاب مصيره، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد، وقفة المتحسر الكسير الكئيب .. (فَيَقُولُ: لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ !وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ ! لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ !ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ !هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ!)..

وهي وقفة طويلة، وحسرة مديدة، ونغمة ئسه، ولهجة ئسة .

١: تفسير السعدي (١ / ٨٨٣) .

والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية !وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف، وتقصير بعضها، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس .وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير .ومن ثم يطول ويطول، في تنغيم وتفصيل .ويتمنى ذلك البائس أنه لم ت هذا الموقف، ولم يؤت كتابه، ولم يدر ما حسابه كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا .. ثم يتحسر أن لا شيء فعه مما كان يعتز به أو يجمعه:)ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ) .. (هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ(..فلا المال أغنى أو نفع .ولا السلطان بقي أو دفع ..والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ء العلة قبلها بعد المد لألف، في تحزن وتحسر .. هي جزء من ظلال الموقف الموحية لحسرة والأسى إيحاء عميقا بليغا..

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم، بجلاله وهوله وروعته:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ .ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ .ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ)..

للهول الهائل !و للرعب القاتل !و للجلال الماثل!)خُذُوهُ(..

كلمة تصدر من العلي الأعلى .فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل .ويبتدره المكلفون لأمر من كل جانب، كما يقول ابن أبي حاتم سناده عن المنهال بن عمرو:» إذا قال ا" تعالى: خذوه ابتدره سبعون ألف ملك .إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقي سبعين ألفا في النار .. «كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة!)فَغُلُّوهُ(..

فأي السبعين ألفا بلغه جعل الغل في عنقه!..

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(..

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه..

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ(..

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه !ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورها، ولعل هذا الإيحاء هو المقصود. !

فإذا انتهى الأمر، نشرت أسبابه على الحشود:

(إِنَّهُ كانَ لاـيُؤْمِنُ ِ ـَّ ِ الْعَظِيمِ .وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ)..

إنه قد خلا قلبه من الإيمان ـّ ، والرحمة لعباد .فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب.

خلا قلبه من الإيمان ـّ فهو موات، وهو خرب، وهو بور .وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد .فكل شيء مؤمن، يسبح بحمد ربه، موصول بمصدر وجوده .أما هو فمقطوع من ا ـّ .مقطوع من الوجود المؤمن ـّ .

وخلا قلبه من الرحمة لعباد .والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة ولكن هذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال مر المسكين .ولم يحض على طعامه وهي خطوة وراء إطعامه .توحي ن هناك واجبا اجتماعيا يتحاض عليه المؤمنون .وهو وثيق الصلة لإيمان. يليه في النص، ويليه في الميزان!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٦٨٣) .

النموذج الثامن والثلاثون:

﴿يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَ َ َ الْيَقِين﴾ المدثر: ٤٠-٤٧ .

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: يسأل بعضهم بعضًا عن الكافرين الذين أجرموا في حق أنفسهم :ما الذي أدخلكم جهنم ,وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال المجرمون :لم نكن من المصلِّين في الدنيا ,ولم نكن نتصدق ونحسن للفقراء والمساكين ,وكنا نتحدث لباطل مع أهل الغَواية والضلالة ,وكنا نكذب بيوم الحساب والجزاء ,حتى جاء الموت ,ونحن في تلك الضلالات والمنكرات.

التفسير التفصيلي:

يقول ابن عاشور: "وقوله ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ يجوز أن يكون متعلقا بقوله: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ قدم للاهتمام، و ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ حال من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وهو مناط التفصيل الذي جيء لأجله لاستثناء المنقطع.

ويجوز أن يكون في جنات خبر مبتدإ محذوف تقديره :هم في جنات .والجملة استئناف بياني لمضمون جملة الاستثناء ويكون (يتساءلون) حالا من الضمير المحذوف.

ومعنى ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوز أن يكون على ظاهر صيغة التفاعل للدلالة على صدور الفعل من جانبين، أي يسأل أصحاب اليمين بعضهم بعضا عن شأن المجرمين، وتكون جملة ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ بيا لجملة ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

وضمير الخطاب في قوله :(سَلَكَكُمْ) يؤذن بمحذوف .والتقدير :فيسألون المجرمين ما سلككم في سقر، وليس التفا ، أو يقول بعض المسؤولين لأصحابهم جوا لسائليهم قلنا لهم :ما سلككم في سقر.

ويجوز أن تكون صيغة التفاعل مستعملة في معنى تكرير الفعل أي يكثر سؤال كل أحد منهم سؤالا متكررا أو هو من تعداد السؤال لأجل تعداد السائلين.

والتقدير :يتساءلون المجرمين عنهم، أي عن سبب حصولهم في سقر، ويدل عليه بيان جملة(يَتَسَاءَلُونَ(بجملة)مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)، فإن ما سلككم فيه بيان للتساؤل.

وأصل معنى سلكه أدخله بين أجزاء شيء حقيقة، ومنه جاء سلك العقد .

واستعير هنا للزج بهم"(١)

ويضيف ابن عاشور: "فإن كان السؤال على حقيقته والاستفهام مستعملا في أصل معناه كان الباعث على السؤال، إما نسيان كانوا علموه في الدنيا من أسباب الثواب والعقاب فيبقى عموم)يتساءلون(الراجع إلى أصحاب اليمين وعموم المجرمين على ظاهره، فكل من أصحاب اليمين يشرف على المجرمين من أعالي الجنة فيسألهم عن سبب ولوجهم النار فيحصل جوابهم وذلك إلهام من ليحمده أهل الجنة على ما أخذوا به من أسباب نجاتهم مما أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك.

وإما أن يكون سؤالا موجها من بعض أصحاب اليمين إلى س كانوا يظنونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار من المنافقين أو المرتدين بعد موت أصحابهم، فيكون المراد صحاب اليمين بعضهم و لمجرمين بعضهم وهذا مثل ما في قوله تعالى :(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ) في سورة الصافات وقوله

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٠٣) .

فيها :(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) إلى قوله :(فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ).

وإن كان السؤال ليس على حقيقته وكان الاستفهام مستعملا في التنديم، أو التوبيخ فعموم أصحاب اليمين وعموم المجرمين على حقيقته[1].

ثم يقول ابن عاشور: وأجاب المجرمون بذكر أسباب الزج بهم في النار لأنهم ما ظنوا إلا ظاهر الاستفهام، فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطا وهي :أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة فحرموا أنفسهم من التقرب إلى .

وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال.

وأنهم كانوا يخوضون الخوض المعهود الذي لا يعدو عن ييد الشرك وأذى الرسول صلى عليه وسلم والمؤمنين.

وأنهم كذبوا لجزاء فلم يتطلبوا ما ينجيهم .وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب المناسب لمقام التحسر والتلهف على ما فات، فكأنهم قالوا لأ لم نكن من المؤمنين لأن أهل الإيمان اشتهروا نهم أهل الصلاة، و نهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، و نهم يؤمنون لآخرة وبيوم الدين ويصدقون الرسل.

وأصل الخوض الدخول في الماء، ويستعار كثيرا للمحادثة المتكررة، وقد اشتهر إطلاقه في القرآن على الجدال واللجاج غير المحمود كقوله تعالى:)ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(وغير ذلك، وقد جمع الإطلاقين قوله تعالى:)وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آ تِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ(.

ويوم الدين :يوم الجزاء.

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٠٣) .

و)اليقين :)اسم مصدر يقن كفرح، إذا علم علما لا شك معه ولا تردد.

وإتيانه مستعار لحصوله بعد أن لم يكن حاصلا، شبه الحصول بعد الانتفاء لمجيء بعد المغيب.

والمعنى :حتى حصل لنا العلم ن ما كنا نكذب به بت، فقوله:)حَتَّى أَ َ َ الْيَقِينُ(على هذا الوجه غاية لجملة (نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ).

ويطلق اليقين أيضا على الموت لأنه معلوم حصوله لكل حي فيجوز أن يكون مرادا هنا كما في قوله تعالى :(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى َ ْتِيَكَ الْيَقِينُ).

والمعنى :كنا نفعل ذلك مدة حياتنا كلها.

وفي الأفعال المضارعة في قوله (لم نك، ونخوض، ونكذب) إيذان ن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم"(١)

ويضيف صاحب التحرير قائلاً: "وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد من معادلة حسناته وسيئاته، وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها.

وقد حرم هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعة المؤمنين على أقدارهم"(٢) .

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ)

قال السعدي: "أي :في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلو هم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي :حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم تعالى؟

١: التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٠٥) .

٢: التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٠٥) .

فقال بعضهم لبعض: (هل أنتم مطلعون) فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم :(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ) أي :أي شيء أدخلكم فيها؟ و ي :ذنب استحققتموها؟ـف (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) فلا إخلاص للمعبود، ولا نفع للخلق المحتاجين.

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) أي :نخوض لباطل، ونجادل به الحق، (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) هذا آ ر الخوض لباطل، وهو التكذيب لحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد (حَتَّى أَ َ َ الْيَقِينُ) أي :الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم ب الأمل"(١) .

وقال في ظلال القرآن: "وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت، المقيدة بما فعلت، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال، وإرسالهم من القيد، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير:

(إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ..)

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل ا" الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها.

وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة .يلمس قلوب المجرمين المكذبين، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا، ولا يبالونهم، في موقف الكرامة والاستعلاء، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف:

١: تفسير السعدي (١ / ٨٩٧) .

»ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ .. «ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين .. وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون .. وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى ! والاعتزاف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت لمجرمين إلى سقر، يعترفون بها هم لسنتهم في ذات المستكين أمام المؤمنين:

(قالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) .. وهي كناية عن الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين.

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ) .. وهذه تلي عدم الإيمان، بوصفها عبادة ا " في خلقه، بعد عبادته – سبحانه – في ذاته .

ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية، على الرغم من الفخر لكرم في مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء.

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ) .. وهي تصف حالة الاستهتار مر العقيدة، وحقيقة الإيمان، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال .

وهي أعظم الجد وأخطر الأمر في حياة الإنسان وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة، فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه .وعلى ضوئها يمضي في طريق الحياة .

فكيف لا يقطع فيها برأي ولا خذها مأخذ الجد؟ ويخوض فيها مع الخائضين، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) وهذه أس البلا .فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين، وتضطرب في تقديره جميع القيم، ويضيق في حسه مجال الحياة، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير، فلا يطمئن إلى هذه العواقب، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير .. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها .. وينتهي من ثم إلى شر مصير.

والمجرمون يقولون: إننا ظللنا على هذه الأحوال، لا نصلي، ولا نطعم المسكين، ونخوض مع الخائضين، ونكذب بيوم الدين..

(حَتَّى أَ َ الْيَقِينُ) .. الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب، ويفصل في الأمر بلا مرد .. ولا يترك مجالا لندم ولا توبة ولا عمل صالح .. بعد اليقين.."[1] .

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٧٦٢) .

النموذج التاسع والثلاثون:

(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) النبأ: ٤٠.

التفسير الإجمالي::

قال مؤلفو التفسير الميسر: إنا حذَّرناكم عذاب يوم الآخرة القريب الذي يرى فيه كل امرئ ما عمل من خير أو اكتسب من إثم ,ويقول الكافر من هول الحساب : ليتني كنت ترابًا فلم أُبعث.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: "(إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ) مستعمل في قطع العذر وليس مستعملا في إفادة الحكم لأن كون ما سبق في السورة إنذارا أمر معلوم للمخاطبين .وافتتح الخبر بحرف التأكيد للمبالغة في الإعذار بتنزيلهم منزلة من يتردد في ذلك.

وجعل المسند فعلا مسندا إلى الضمير المنفصل لإفادة تقوي الحكم، مع تمثيل المتكلم في مثل المتبري من تبعة ما عسى أن يلحق المخاطبين من ضر إن لم خذوا حذرهم مما أنذرهم به

والإنذار :الإخبار بحصول ما يسوء في مستقبل قريب.

وعبر عنه لمضي لأن أعظم الإنذار قد حصل بما تقدم في السورة من قوله :(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا) إلى قوله :(فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا)"[1] .

ثم يقول ابن عاشور: "وقرب العذاب مستعمل في تحققه وإلا فإنه بحسب العرف بعيد، قال تعالى :(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا)، أي لتحققه فهو كالقريب على أن

١: التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٠) .

العذاب يصدق بعذاب الآخرة وهو ما تقدم الإنذار به، ويصدق بعذاب الدنيا من القتل والأسر في غزوات المسلمين لأهل الشرك .

وفسره مقاتل نه قتل قريش ببدر .

ويشمل عذاب يوم الفتح ويوم حنين كما ورد لفظ العذاب لذلك في قوله تعالى : (يُعَذِّبْهُمُ ا ٱللَّهُ ِ يْدِيكُمْ) وقوله :(وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاً دُونَ ذَلِكَ).

(يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ َ لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاً).

يقول ابن عاشور: والمرء :اسم للرجل إذ هو اسم مؤنثه امرأة.

والاقتصار على المرء جري على غالب استعمال العرب في كلامهم، فالكلام خرج مخرج الغالب في التخاطب لأن المرأة كانت بمعزل عن المشاركة في شؤون ما كان خارج البيت.

والمراد :ينظر الإنسان من ذكر أو أنثى، ما قدمت يداه .

وهذا يعلم من استقراء الشريعة الدال على عموم التكاليف للرجال والنساء إلا ما خص منها حد الصنفين .

وتعريف (الْمَرْءُ(للاستغراق مثل)إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(.

وفعل)يَنظُرُ(يجوز أن يكون من نظر العين أي البصر، والمعنى :يوم يرى المرء ما قدمت يداه .ومعناه: حصول جزاء عمله له، فعبر عنه لنظر لأن الجزاء لا يخلو من أن يكون مرئيا لصاحبه من خير أو شر، فإطلاق النظر هنا على الوجدان على وجه المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق.

ونظيره قوله تعالى:)لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ(.

وقد جاءت الحقيقة في قوله تعالى(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا(الآية .و"ما "موصولة صلتها جملة (قَدَّمَتْ يَدَاهُ).

ويجوز أن يكون من نظر الفكر، وأصله مجاز شاع حتى لحق لمعاني الحقيقية . ومنه التنظر :توقع الشيء، أي يوم يترقب ويتأمل ما قدمت يداه، وتكون" ما "على هذا الوجه استفهامية وفعل (يَنظُرُ) معلقا عن العمل بسبب الاستفهام، والمعنى :ينظر المرء جواب من يسأل: ما قدمت يداه .

ويحتمل أن يكون (ينظر) من الانتظار كقوله تعالى :(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ(.

والتقديم :تسبيق الشيء والابتداء به"كما يقول ابن عاشور[1].

و(مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ(-كما قال في التحرير- "هو ما أسلفه من الأعمال في الدنيا من خير أو شر فلا يختص بما عمله من السيئات لقوله تعالى:)يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ)الآية.

وقد تكون اليدان كناية عن جميع آلات الأعمال، وإما أن يكون بطريقة التمثيل بتشبيه هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة الصانع للمصنوعات بيديه أو قول بلسانه أو مشي برجليه.

وخص لذكر من عموم المرء الإنسان الكافر الذي يقول (يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا) لأن السياق يتحدث عن منكري البعث فكان ذلك وجه تخصيصه لذكر، أي يوم يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلا عن أصحاب العقول المكلفين لشرائع، أي يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حساس ن يكون أقل شيء مما لا إدراك له وهو التراب، وذلك تلهف وتندم على ما قدمت يداه من الكفر.

١: التحرير والتنوير (٣٠ / ٥١) .

وقد كانوا يقولون (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَا ً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) فجعل عقابهم لتحسر وتمني أن يكونوا من جنس التراب.

ووصف الكافر بتمنيه أن يكون ترا يفهم منه أن المؤمن ليس كذلك لأن المؤمن وإن عمل بعض السيئات وتوقع العقاب على سيئاته فهو يرجو أن تكون عاقبته إلى النعيم"[1] .

قال السعدي: (إِ ّ أَنْذَرْ َكُمْ عَذَا ً قَرِيبًا) لأنه قد أزف مقبلا وكل ما هو آت فهو قريب.

(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) أي :هذا الذي يهمه ويفزع إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه، كما قال تعالى :(َ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ا َّ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا ا َّ إِنَّ ا َّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) الآ ت.

فإن وجد خيرا فليحمد ، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

قال في الظلال: "في ظل هذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار، وهزة للنائمين السادرين في الخمار:» ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ .فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآ ً .إِ ّ أَنْذَرْ كُمْ عَذا ً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ، وَيَقُولُ الْكافِرُ: لَيْتَنِي كُنْتُ تُرا ً.. «

إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون في ارتياب:)ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ(..فلا مجال للتساؤل والاختلاف..

١: التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٢) .

والفرصة ما تزال سانحة !(فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآ ً) .. قبل أن تكون جهنم مرصادا ومآ !وهو الإنذار الذي يوقظ من الخمار(ّ أَنْذَرْ كُمْ عَذا ً قَرِيباً)

..ليس لبعيد، فجهنم تنتظركم وتترصد لكم .على النحو الذي رأيتم .والدنيا كلها رحلة قصيرة، وعمر قريب !وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود: (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ: لَيْتَنِي كُنْتُ تُرا ً) .

..وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب !وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم، حتى ليتمنى الكائن الإنساني أن ينعدم .ويصير إلى عنصر مهمل زهيد .ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد .. وهو الموقف الذي يقابل تساؤل المتسائلين وشك المتشككين .في ذلك النبأ العظيم!!"[١] .

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٨٠٩) .

النموذج الأربعون:

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) .

التفسير الإجمالي::

وجيء في ذلك اليوم العظيم بجهنم ,يومئذ يتعظ الكافر ويتوب ,وكيف ينفعه الاتعاظ والتوبة ,وقد فرَّط فيهما في الدنيا ,وفات أوانهما؟

يقول : ليتني قدَّمتُ في الدنيا من الأعمال ما ينفعني لحياتي في الآخرة.

ففي ذلك اليوم العصيب لا يستطيع أحدٌ ولا يقدر أن يُعذِّبَ مثل تعذيب من عصاه ,ولا يستطيع أحد أن يوثِقَ مثل و ق ,ولا يبلغ أحدٌ مبلغه في ذلك.

التفسير التفصيلي:

قال ابن عاشُور: " (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) أي أحضرت جهنم وفتحت أبوابها فكأنها جاء بها جاء والمعنى :أظهرت لهم جهنم قال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) وقال: (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى).

وفي صحيح مسلم أن (لجهنم سبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[1] وهو تفسير لمعنى)وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ(ثم يقول ابن عاشُور: وأمور الآخرة من خوارق العادات.

و (الإنسان) هو: الإنسان الكافر[2].

ثم يقول ابن عاشور في تحريره: "وجملة)وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(معترضة بين جملة)يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ(وجملة)يقول ليتني(الخ.

١: صحيح مسلم برقم (٧٣٤٣) .

٢: التحرير والتنوير (٣٠ / ٢٢٩) .

و)أنى(اسم استفهام بمعنى :أين له الذكرى، وهو استفهام مستعمل في الإنكار والنفي، والكلام على حذف مضاف، والتقدير :وأين له نفع الذكرى.

وجملة)يَقُولُ ـَ ـلَيْتَنِي)، يحتمل أن تكون قولا للسان تحسرا وتندما فتكون الجملة حالا من)الإنسان(أو بدل اشتمال من جملة)يتذكر(فإن تذكره مشتمل على تحسر وندامة .ويحتمل أن يكون قوله في نفسه فتكون الجملة بيا لجملة)يتذكر(.

ومفعول)قدمت(محذوف للإيجاز.

واللام في قوله :(لحياتي) تحتمل معنى التوقيت، أي قدمتُ عند أزمان حياتي فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت.

وتحتمل أن يكون اللام للعلة، أي قدمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار . والمراد :الحياة الكاملة السالمة من العذاب لأن حياتهم في العذاب حياة غشاوة وغياب قال تعالى :(ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى).

وحرف النداء في قوله :(ـَ ـلَيْتَنِي) للتنبيه اهتماما بهذا التمني في يوم وقوعه.

والعذاب :اسم مصدر عذب، والو ق :اسم مصدر أوثق.

وقرأ الجمهور (يُعَذِّبُ) بكسر الذال (يُوثِقُ) بكسر الثاء على أن)أَحَدٌ(في الموضعين فاعل)يُعَذِّبُ، و يُوثِقُ(.وأن عذابه من إضافة المصدر إلى مفعوله فضمير)عَذَابَهُ(عائد إلى الإنسان في قوله:)يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ(وهو مفعول مطلق مبين للنوع على معنى التشبيه البليغ، أي عذا مثل عذابه، وانتفاء المماثلة في الشدة، أي يعذب عذا هو أشد عذاب يعذبه العصاة، أي عذا لا نظير له في أصناف عذاب المعذبين على معنى قوله تعالى:)فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَا ً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ(والمراد في شدته.

وقرأه الكسائي ويعقوب بفتح ذال (يُعَذِّبُ) وفتح ء (يُوثِقُ) مبنيين للنائب .

والمعنى :لا يعذب أحد مثل عذاب ما يعذب به ذلك الإنسان المتحسر يومئذ، ولا يوثق أحد مثل و قه ـف(أحد) هنا بمنزلة (أَحَداً) في قوله تعالى :(فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَا ً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ).

والوَ ق بفتح الواو اسم مصدر أوثق وهو الربط ويجعل للأسير والمقود إلى القتل . فيجعل لأهل النار و ق يساقون به إلى النار قال تعالى :(إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ) الآية.

وانتصاب (و قه) كانتصاب)عذابه(على المفعولية المطلقة لمعنى التشبيه"[١] .

قال السعدي: "(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) تقودها الملائكة لسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور ف(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ) ما قدمه من خير وشر.

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) فقد فات أوانها، وذهب زمانها .

يقول متحسرًا على ما فرط في جنب :(َ لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) الدائمة الباقية، عملا صالحًا، كما قال تعالى :(يَقُولُ َ لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا َ وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلا ً خَلِيلا).

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها وفي تتميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء.

(فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ) لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له.

(وَلا يُوثِقُ وَ َقَهُ أَحَدٌ (فإنهم يقرنون بسلاسل من ر، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين"[٢] .

١: التحرير والتنوير (٣٠ / ٣٠١) .

٢: تفسير السعدي (١ / ٩٢٤) .

وقال صاحب الظلال: "مشهد ترجف له القلوب يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى !﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ﴾ الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء لمنع والعطاء . والذي أكل التراث أكلا لما، وأحب المال حبا جما .والذي لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين .والذي طغى وأفسد وتولى..

يومئذ يتذكر .يتذكر الحق ويتعظ بما يرى .. ولكن لقد فات الأوان

(وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى) ؟ ولقد مضى عهد الذكرى، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدا !وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا !

وحين تتجلى له هذه الحقيقة:﴿يَقُولُ: يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي﴾ .. ليتني قدمت شيئا لحياتي هنا .فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة .وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها .

ليتني .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة !

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ، وَلا يُوثِقُ وَ ثاقَهُ أَحَدٌ﴾ .. إنه ا" القهار الجبار .الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد .والذي يوثق و قه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد .وعذاب ا" وو قه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنا القرآن كله، ويجملهما هنا حيث يصفهما لتفرد بلا شبيه من عذاب البشر وو قهم .أو من عذاب الخلق جميعا وو قهم .وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون، وإكثارهم من الفساد في الأرض، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم لقيود والأغلال .فها هو ذا ربك – أيها النبي وأيها المؤمن – يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم .ولكن شتان بين عذاب وعذاب، وو ق وو ق .. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر .

فليكن عذاب الطغاة للناس وو قهم ما يكون .فسيعذبون هم ويوثقون، عذا وو قا وراء التصورات والظنون!"[1] .

١: في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٠٧) .

الخاتمة

بعد أن تمت دراسة هذه النماذج تفسيرا وتحليلا أختم البحث بوقفات علها تلخص للقارئ الكريم مجمل أهداف البحث، وأهم المحطات التي ينبغي أن نتوقف عندها، وبعض النتائج التي توصلت إليها، وهذه الوقفات هي:

الوقفة الأولى: قد يلاحظ القارئ من خلال هذه النماذج أن مرتكبي جريمة الكفر خياراتهم محدودة في تلك المواقف الصعبة.

وسأجملها فيما يلي:

الحالة الأولى: أن يحاول بعضهم إنكار الجريمة من أصلها، وهذا در ووجدته صريحا في موقفين:

- الأول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَا ّ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الأنعام: ٢٢ - ٢٤"

ولاشك أن إنكار الجريمة محاولة ئسة يمتطيها المدان قبل أن تتكشف الأدلة الدامغة، والحقائق القطعية التي تدينه.

- الثاني: نجده عند طائفة من البشر يحاولون الاستفادة من مهنتهم التي كانوا يتقنونها، فيبعثون من قبورهم، وهم يحملون في قلوبهم ثقافة الخداع.. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ا ّ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ المجادلة: ١٨ " وقد كان نموذج سورة الحديد خاصا بهذه الفئة.

الحالة الثانية: أن يحاول بعض البشرية إلقاء التبعة على غيره من الإنس أو الملائكة أو الجمادات، وقد مر معك - أخي القارئ - تنصل هؤلاء المتبوعين من التابعين في أربعة عشر نموذجا، فلا حاجة لإعادة ما تقدم .

الحالة الثالثة: أن يلجأ مرتكبو الجريمة في نهاية المطاف إلى الاعتراف ساليب الاعتراف المعروفة التي أشير إليها في التمهيد، وعندما نتأمل هذا التفاوت من الناحية المنطقية فإن الواقع يثبت أن المجرم في بداية التحقيق قد ينكر الجريمة من أصلها، وعندما تظهر بعض الأدلة ضده ينتقل من إنكار الجريمة لكلية إلى إلقاء التبعة على طرف آخر إن توفر له ذلك، وعندما يتنصل ذلك الطرف وتكتمل الأدلة التي تدينه فلا مناص أمامه من الاعتراف، ومن هنا نفهم الحكمة من هذا التفاوت، حيث وجد إنكار أصل الجريمة في نموذجين فقط ووجد التنصل منها في أربعة عشر نموذجا ووجد الاعتراف بها في أربعين نموذجا.

الوقفة الثانية: من محطات الرحلة .

لقد بينت في المقدمة أن البحث مقصور على ما بعد النفخة الثانية، ونتزك القرآن الكريم ليرسم لنا معالم تلك المرحلة بجوانبها المختلفة:

البداية:

- (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ا ّ ّ ُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) الزمر: ٦٨)
- (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) يس: ٥١
- (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ) المعارج: ٤٣
- (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) الكهف: ٩٩
- (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) القمر: ٧ – ٨

من هنا تبدأ المحطة الأولى من محطات الرحلة ثم يبدأ السير كما في الآ ت السابقة إلى ساحة العدل (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) وبعد الوصول إلى الساحة توجه بعض الأسئلة والعدل عنوان المرحلة (لا ظُلْمَ الْيَوْمَ) غافر: ١٧ (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف: ٤٧ .

• (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ ِ َتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ) النمل: ٨٣

• (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) الأنعام: ٢٢

• (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ا َّ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) الفرقان: ١٧

• (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِ َّكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) سبأ: ٤٠-٤١

بعد ذلك تي المرحلة الثالثة، يساق أصحاب الجرائم إلى مكان العقوبة..

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ َتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آ َتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) الزمر: ٧١

و تي الاعتراف بعد المقابلة فتكون النتيجة (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) الزمر: ٧٢

وهنا يلاحظ القارئ طرفين ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر نظرة متبادلة ولكن الهدف مختلف والرؤية متفاوتة !

• (وَمَنْ يُضْلِلِ ا َّ ُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ) الشورى: ٤٤

• (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) الفرقان: ١٢

وعندما يقتربون منها تتغير بعض المواقف، وتحصل بعض المفاجآت ! (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الأنعام: ٢٧

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فصلت: ٢٠

الوقفة الثالثة: ما بعد الرحلة:

إنها نهاية مؤلمة جسد ونفسيا، ونترك القرآن الكريم يتحدث عن هذه الإقامة الأبدية .

بدءًا بطريقة الدخول إلى المقر (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) [الطور: ١٣] (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ) الرحمن: ٤١ ومرورا لحديث عن المدة (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) ويتحدث عن مساحة مكانهم (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) الفرقان: ١٣

ويتحدث عن محيط إقامتهم الخارجي (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) الزمر: ١٦ (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) العنكبوت: ٥٥

ويتحدث عن ر ضتهم القسرية نسأل السلامة (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) الرحمن: ٤٤ ويتحدث عنهم في غير وقت الر ضة (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) الحاقة: ٣٢ ويتحدث عن جلودهم (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا) النساء: ٥٦ .

ويتحدث عن ملابسهم (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ َرٍ) الحج: ١٩.
ويتحدث عن رؤوسهم (يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) الحج: ١٩

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً للشَّوى) المعارج: ١٥ ويتحدث عن وجوههم (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) الكهف: ٢٩ ويتحدث عن أمعائهم (وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) محمد: ١٥ ويتحدث عن بطونهم (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ) الحج: ٢٠ . ويتحدث عن أفئدتهم (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) الهمزة: ٧

ويتحدث عن تعامل حراسهم (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) الحج: ٢٢ ويتحدث عن أبوابها (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) الهمزة: ٨ ويتحدث عن آلامهم (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) فاطر: ٣٧ (وَ َدَوْا َ مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) الزخرف: ٧٧

أحبتي الكرام، عندما يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الواقع الأليم الذي ينتظر بعض البشرية، لا شك أن العاقل سيستخدم سمعه وعقله لتأمين مستقبله آخذًا العبرة من موقف فريق اعترف بعد فوات الأوان، (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) الملك: ٧ كما مر معنا في نموذج سورة تبارك.

الوقفة الرابعة:

من أسباب هذا المصير ..

من المناسب أن نقف وقفة مع هذه الأسباب التي أدت إلى المآل الحزين والعذاب المهين، ويمكن أن نجملها في ما يلي:

١: أسباب عقدية .

٢: أسباب شعائرية .

٣: أسباب اجتماعية.

٤: أسباب أخلاقية.

أولاً: الأسباب العقدية.

لا شك أن التوحيد هو أخطر هذه الملفات على الإطلاق (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ ِ ّ َفَقَدْ حَرَّمَ ا ّ ُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ) المائدة: ٧٢، فأنت تلاحظ أن بعض المدانين يعترف خطائه طلبا للخروج من النار، ويكون الرد مبينا عدم إفراد خالقهم لوحدانية (ذَلِكُمْ ِ َنَّهُ إِذَا دُعِيَ ا ّ ُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ ِ ّ ِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) غافر: ١٢ (ذَلِكَ ِ َنَّ ا ّ َ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ ا ّ َ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) لقمان: ٣٠ (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ ِ ّ ِ الْعَظِيمِ) الحاقة: ٣٣ (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) المدثر: ٤٦

إن عدم إفراد الخالق الرازق لعبودية، وعدم الإيمان لله العظيم والتكذيب بيوم الدين كانت أسبا رزة من أسباب هذا المصير المؤلم، نعوذ لله من كل سوء .

نيا: الأسباب الشعائرية:

من أسباب هذا المصير ترك الصلاة، فهي عمود الدين، وهي الصلة بين العبد ورب العالمين (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) المدثر: ٤٣.

لثا: الأسباب الاجتماعية.

من أسباب هذا المصير التفريط في التكافل الاجتماعي حيث نرى هلاك هذا النوع محصورا في بندين: الأول عدم الإيمان لله العظيم كما أسلفنا، والثاني: عدم الحض على طعام المسكين.

رابعا:الأسباب العقدية: عدم الثبات على مبدإٍ والرحيل مع كل مغامر مشاركة أو سماعًا.

إن بعض الأفراد ليست لهم خطوط حمر تمنعهم من الوقوع في الخطر، ومن هنا تي دقة القرآن الكريم في التعبير عن أصحاب الفوضى الفكرية والسلوكية (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) المدثر: ٤٥

خامسا: من أسباب هذا المصير كراهية الحق:

(وَ دَوْا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ ِ لْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) الزخرف: ٧٧ – ٧٨ .

إن ظاهرة كراهية الحق ظاهرة خطيرة، قد يترجمها اللسان والفعل إلى ممارسات، وعلى العاقل إن ابتلي بشيء من كراهية الحق أن يراجع نفسه، وليعلم أنه لا يضر إلا نفسه، وليعلم كذلك أن الحق عنده من يحميه، وأن البدائل البشرية جاهزة لسد كل فجوة (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ ْتِي ا ّ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ا ّ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ ا ِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَا ّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) المائدة: ٥٤ (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ ا ّ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَا ّ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) محمد: ٣٨ .

سادسا: من هذه الأسباب الاستهزاء والسخرية لأخيار.

إن العاقل لا يمكن أن يقايض الخلود في جهنم، بسخرية من زيد أو ضحكة من عمرو من الأخيار، إن الأمر ببقاء بعض الناس في جهنم، علل لسخرية ببعض الصالحين الذين يعلنون إيمانهم ويرجون رحمة ربهم ومغفرته، ويثنون على الكريم الرحيم بما هو أهله، (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِ حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي

وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) . [المؤمنون: ١٨٠ - ١١١]

وعندما يستقر أهل النار في أماكنهم، يستفسرون في جهنم عن أشخاص كانوا يستهزؤون بهم في الدنيا، (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) ص:٦٢-٦٤ .

هذه وقفات سريعة، ولا ينبغي أن نكرر ما تقدم تفسيره في النماذج، وفقنا الكريم الوهاب لما يحبه ويرضاه، وغفر لنا ولوالدينا ولجميع موتى المسلمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه: المصطفى السالك بن الطالب الشنقيطي..

الجمعة ٢١ / رجب / ١٤٣٤ ه

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقريظ القارئ الكبير الشيخ سعد الغامدي	١
المقدمة	٢
سبب الكتابة	٥
من نماذج وأساليب التنصل والاعتزاف	١٥
وقفة مع نموذج قرآني	١٨
مفاجأة الشهود	٢٠
طريقة تفسير الآ ت	٢١
الأستاذ الإمام	٢٣
ملاحظة	٢٤
مجال هذه الرسالة	٢٧
نماذج التنصل:	١١٠
النموذج الأول	
النموذج الثاني	
النموذج الثالث	
النموذج الرابع	
النموذج الخامس	
النموذج السادس	
النموذج السابع	

النموذج الثامن النموذج التاسع النموذج العاشر النموذج الحادي عشر النموذج الثاني عشر النموذج الثالث عشر النموذج الرابع عشر نماذج الاعتزاف: النموذج الأول النموذج الثاني النموذج الثالث النموذج الرابع النموذج الخامس النموذج السادس النموذج السابع النموذج الثامن النموذج التاسع النموذج العاشر النموذج الحادي عشر النموذج الثاني عشر النموذج الثالث عشر	٣٣٢

النموذج الرابع عشر النموذج الخامس عشر النموذج السادس عشر النموذج السابع عشر النموذج الثامن عشر النموذج التاسع عشر النموذج العشرون النموذج الحادي والعشرون النموذج الثاني والعشرون النموذج الثالث والعشرون النموذج الرابع والعشرون النموذج الخامس والعشرون النموذج السادس والعشرون النموذج السابع والعشرون النموذج الثامن والعشرون النموذج التاسع والعشرون النموذج الثلاثون النموذج الحادي والثلاثون النموذج الثاني والثلاثون النموذج الثالث والثلاثون النموذج الرابع والثلاثون	

النموذج الخامس والثلاثون	
النموذج السادس والثلاثون	
النموذج السابع والثلاثون	
النموذج الثامن والثلاثون	
النموذج التاسع والثلاثون	
النموذج الأربعون	
الخاتمة	٣٤١
الفهرس	

المراجع

التفاسير:

- تفسير الطبري .
- تفسير ابن الجوزي .
- تفسير ابن القرطبي .
- أحكام القرآن لابن العربي .
- تفسير الرازي .
- تفسير القشيري .
- تفسير البغوي .
- تفسير ابن جُزي .
- تفسير ابن كثير .
- تفسير النسفي .
- تفسير الشوكاني .
- تفسير أبي السعود .
- تفسير القاسمي .
- تفسير المنار .
- أضواء البيان .
- تفسير ابن عاشور .
- تفسير السعدي .
- في ظلال القرآن .

كتب السنة:

- موطأ الإمام مالك .
- صحيح البخاري .
- صحيح مسلم .
- مسند الإمام أحمد .
- مستدرك الحاكم .
- سنن الترمذي .
- سنن الدارمي .
- معاجم الطبراني .
- الحلية لأبي نعيم .
- مسند البزار .

كتب أخرى:

- وحي القلم للرافعي .
- منازل الأئمة الأربعة ليحيى بن إبراهيم السلماسي .
- عدة الصابرين لابن القيم .
- المساعد لشرح التسهيل لابن مالك.
- المساعد على التسهيل لابن مالك.